النبوة والأنبياء

دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام
وأثرهم في تغيير مفاهيم البشر
بأسلوب يجمع بين الدقة والسهولة، والجدة والتحقيق

بقلم
محمد علي الصابوني

دار القلم
دمشق

Marfat.com

ساعدت مؤسسة محمّد بن لادن
في نشر هذا الكتاب بسعرٍ مخفض
الثمن: ٦ ريالات

Marfat.com

النبوة والأنبياء

دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام
وأثرهم في تغيير مفاهيم البشر
بأسلوب يجمع بين الدقة والسهولة، والجدة والتحقيق

بقلم
محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى
بمكة المكرمة

احقر محمد شريف عفي عنه
نوري مسجد الصنائعيه
العين
١/٩/١٤١٠هـ

الطبعة الرابعة
مزيدة ومنقحة

دار القلم
دمشق

Marfat.com

الطبعة الرابعة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وصفوة الخلق، سيدنا ومولانا محمد، الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه، نجومِ الدُّجى، وشموس العلم والعرفان، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه محاضرات في «تاريخ الأنبياء» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ألقيتها على طلبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، قسم «التاريخ»، وقد راعيت فيها الإيجاز والتنقيح للأخبار، فتركت الغثَّ وأخذت الصحيحَ السمين، واعتمدتُ على أوثق المصادر، ألا وهو كتاب الله ﴿الَّذي لاَ يَأْتيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ فأكثرتُ من الاستشهاد به، ثم على أقوال المفسرين الموثوقين، كما أخذتُ بالأخبار الثابتة الصحيحة، من كلام سيد المرسلين، وقد رجعت إلى الكتب التاريخية، فانتقيتُ منها الأخبار التي توافق ما جاء في الكتاب والسنة، ولا تخالف المعقول، وطرحتُ منها ما كان من «إسرائيليات» بعيدة عن منطق العقل والدين، وقد رأيت أن أجمعها في كتاب تعميماً للفائدة ونشراً للعلم، لحاجة الكثيرين من أبناء المسلمين، لمعرفة حياة الرسل

Marfat.com

صلوات الله وسلامه عليهم، ودعـوتهم، وسيرتهم في تهـذيب البشريـة، ونقل الأمم والشعوب، من ظلمات الجهالة والضلالة، إلى نور الهدايـة والإيمان، فلقـد جعلهم الله القدوة والأسوة لكل مؤمنٍ، بل لكل فردٍ ينشد حياة العزّة والكرامة، بسلوك طريق الاستقامة والرشاد.

والله أسـأل أن ينفـع بها أبنـاءنـا الـطلاب وإخـوانـنـا المسلمين، وأن يجعلهـا خـالصة لـوجهه الكـريم، إنـه سميـع مجيب الدعـاء، وآخـر دعـوانـا أن الحمـد لله ربِّ العالمين.

غرة رجب الفرد سنة ١٣٩٠هـ

محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى
بمكة المكرمة

Marfat.com

الفَصْلُ الأَوَّلُ

التَّعْرِيف بالنُّبُوَّة

ويشمل الآتي:

١ - تمهيد.
٢ - النبوَّةُ هبةٌ ربَّانيَّة.
٣ - الفرق بين النُّبُوةِ والمُلْكِ
٤ - ما هو النبيُّ، وما هو الرسول؟
٥ - الأنبياء صفوة البشر.
٦ - محمَّد سيِّدُ الأنبياء والمرسلين.
٧ - هل يجوز التفضيلُ بين الأنبياء؟
٨ - لماذا كان الأنبياء بشرًا؟
٩ - مهمة الرسل الكرام.
١٠ - وظائف الرسل صلوات الله عليهم.

Marfat.com

تمهيد

- ١ -

لا بد قبل البدء في الحديث عن «النبوة والأنبياء» أن نوضِّح معنى النبوة، وأن نذكر ملامحها ومزاياها، وأن نبين صفات الأنبياء وخصائص الدعوة التي جاءوا بها، ليتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، في المجتمعات التي ولدوا فيها، وبين الأمم الذين بعثوا إليهم، ومدى هذا التأثير في تغيير مفاهيم الأمم وعقائدهم التي نشأوا عليها، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى، فكانت دعوة الأنبياء إنقاذاً للأمم من براثن الشرك والوثنية، وتطهيراً للمجتمع من أدران التحلل والفساد، والفوضى والاضطراب . . وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

فقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض، وحادوا عن الطريق القويم، فبعث الله

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

Marfat.com

تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين. . «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله إليهم نوحاً والنبيين من بعده».

وأوضح الباري جل وعلا الغاية من بعثه الرسل الكرام فقال وهو أصدق القائلين:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١).

كما جعل كل رسول منقذاً لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال جلت عظمته:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢).

* * *

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).
(٢) سورة إبراهيم عليه السلام: الآية (٥).

Marfat.com

النبوة هبة ربانية

ـ ٢ ـ

النبوة فضل إلـهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص لها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرَك بالجد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي بمحض الفضل الإلـهي:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

فهي إذاً «اصطفاء واختيار» ولا تكون إلا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها، ممن هم أهل لحملها، لأنها حمل ثقيل، وتكليفٌ عظيم، لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال، كما قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(٢).

والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء، إنما هي اختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، يختارهم لحمل الرسالة، ويصطفيهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل كما وضح الباري جل وعلا ذلك في كتابه العزيز فقال تقدست أسماؤه:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٤).
(٢) سورة المزمّل: الآية (٥).

Marfat.com

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[1].

وقال جلت عظمته:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل:

﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾[3].

اعتراض المشركين على نبوة محمد:

وحين اعترض المشركون ـ من كفار قريش ـ على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه واستغربوا أن تنزل «الرسالة» على يتيم فقير، لا يملك من أسباب القوة والغنى شيئاً، وليس له من مظاهر السلطان والملك ما يجعله في نظرهم عظيماً، وحين رأوا ـ بنظرهم القاصر ـ أن النبوة ينبغي أن تكون لغنيٍّ عظيم، شريف، من السادة والزعماء، من أشراف قريش وعظمائها، ومن سادتها ووجهائها، جاء الرد الإلـهي الزاجر، فحكى الله سبحانه وتعالى شبهتهم، وردَّ عليهم بأسلوب مفحم قاصم فقال وهو أصدق القائلين:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الحج: الآية (٧٥).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).
(٣) سورة صٓ: الآية (٤٧).
(٤) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

Marfat.com

فالآية الكريمة ردت على المشركين سخفهم وحماقتهم حين زعموا أن النبوة لا تليق إلا برجل من الأغنياء ومن العظماء، لا بإنسان فقير يتيم كيتيم أبي طالب، وقد رد الله تعالى عليهم بأن النبوة اصطفاء واختيار، يختار الله لها من شاء من خلقه ﴿ اللَّهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته﴾ وإذا كانت النبوة أعظم شأناً من المال والجاه، والسلطان، وكانت حكمة الله العلية قد حددت لكل إنسان رزقه، ولكل مخلوق حظه من المال والرزق، والمال بالنسبة للنبوة أمر حقير، فكيف يُتْرَكُ الأمر الجليل العظيم وهو «الرسالة والنبوة» إلى أهواء الناس ورغباتهم؟؟ فإذا لم يشأ الله تعالى أن يترك أمر الرزق لأهل الأرض بل قسم ووزع وحَدّد لكلٍ نصيبه فكيف يترك أمر النبوة إلى أهواء الناس؟ وهذا هو السر الدقيق، في التعبير بقوله جل وعلا:

﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[1].

فالذي وهب الرزق هو الذي وهب النبوة.

* * *

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٢) نفسها.

Marfat.com

الفرق بين النُّبوةِ والمُلْكِ

ـ ٣ ـ

إن النبوة هبة من الله، واختصاص من العلي القدير، لمن شاء من خلقه، وهي تختلف عن الملك والسلطان في نقاط جوهرية، نذكر منها أهمها وهي:

أولاً: النبوة لا تكون بالإرثِ فولدُ النبي لا يكون نبياً بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي، والاصطفاء الرباني ﴿ولقدِ اخْتَرْنَاهُم على عِلْمٍ على العَالمينَ﴾ ﴿إنَّ اللَّهَ اصْطفى آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران على العَالمينَ﴾.

ثانياً: النبوة لا تُعطى لكافر أبداً، ولا تعطى إلا للمؤمن، بخلاف السلطان والملك فقد يعطى لغير المؤمن، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ونادى فرعونُ في قومه قالَ: يا قوم أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي، أَفلا تُبصرون؟﴾ وكما قال عن «النمروذ» الذي ادعى الألوهية في زمن إبراهيم الخليل: ﴿ألَمْ تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في رَبِّه أنْ آتاهُ الله الملك، إذ قال إبراهيمُ ربِّي الذي يُحيي ويُميتُ، قال أنا أحيي وأميتُ، قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب؟ فبُهت الذي كفرَ والله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾.

ثالثاً: النبوة خاصة بالرجال، ولا تكون للنساء أبداً[١]، والحكمة من تخصيص

---

(١) ما يقوله بعضهم: إن النبوة قد تكون في النساء، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وأوحَيْنَا إلى أم مُوسى أن أرْضِعيه...﴾ الآية. فإنه استدلالٌ خاطئ، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما =

Marfat.com

الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبءٌ ثقيل، وتكليفٌ شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، وابتُلوا ابتلاء شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله: ﴿فاصبرْ كما صبر أولو العزم من الرُّسل﴾، والدليل على أن النبوة خاصة بالرجال قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

قال في الجوهرة:

«وما كانت نبياً قطُّ أُنثى ولا عبداً قبيحاً في الفعال»

رابعاً: النبوة لها ميدان واسع، وغرض نبيل، وهدف من أسمى الأهداف ودعوتها الأساسية، إنما هي الدعوة إلى (الإيمان بالله) والدعوة إلى (الإيمان بالآخرة) وإيثارها على الحياة الدنيا الفانية، التي يطمع فيها كثير من الناس ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ والملك يتعارض مع هذه الدعوة، لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاء بالتزهيد عنها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم. فلو كان الأنبياء هم (الملوك) والأمراء والسلاطين، ثم دعوا الناس إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة لما كان لدعوتهم أيُّ وقع أو أثر في النفوس.. لأنهم يعيشون عيش الملوك ثم يزهدون الناس في هذه الحياة. والداعي إذا لم يكن بسيرته قدوة فلن يكون لكلامه أي تأثير. وليس معنى هذا أنه يمتنع اجتماع (النبوة والملك) في إنسان، فقد يجتمعان في الشخص الواحد كما حصل لسيدنا

= هو بطريق (الإلهام) فقد أخبر تعالى بأنه أوحى إلى النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً...﴾ فهل يصح أن نقول: إن النحل قد نبّأه الله تعالى؟ كذلك هنا ﴿وأوحينا إلى أمِّ موسىٰ﴾ فإنه وحي إلهام، لا وحي نبوَّة، فتدبَّرْهُ واللَّهُ يرعاك.

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

Marfat.com

(سليمان بن داود) عليه السلام، ولكنه قليل ونادر، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

* * *

(١) سورة صۤ: الآيات (٣٥ ـ ٣٩).

Marfat.com

ماهو النبيُّ، وماهو الرسول؟

ـ ٤ ـ

النبي هو: إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، ولكنه لم يكلف بالتبليغ.

وأما الرسول فهو: إنسان من البشر، أوحى الله تعالى إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه.

فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة.. لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم ـ على ما جاء في بعض الآثار ـ مائة وعشرين ألفاً (١٢٠) ألفاً[٢].. أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون وكلهم من الرسل وهم كالآتي:

(آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحٰق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب،

---

(٢) روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم، نبي مكلَّم، قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال ثلاثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً. وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جماً غفيراً» رواه أحمد في المسند ١٧٨/٥.

Marfat.com

يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، إليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد) صلوات الله عليهم أجمعين.

وهؤلاء يجب الإيمان بهم (تفصيلاً) بمعنى أنه يتعيَّن التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم (جملة) بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز، لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1].

وقد جُمع هؤلاء الرسل في آية كريمة، ذكر منهم فيها (١٨) ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله الكريم.. أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وقد جُمع بقيةُ الرسل في بيتين من الشعر، تسهيلاً للحفظ، وهما:

«في تلك حُجَّتُنا منهم ثمانيةٌ ... من بعدِ عَشْرٍ، ويبقى سَبْعةٌ وهُمُوا»
«إدريسُ، هودٌ، شعيبٌ، صالحٌ وكذا ... ذو الكفل، آدمٌ، بالمختار قد خُتِموا»

---

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٨٣ ـ ٨٧).

Marfat.com

وأما الدليل على أن الرسل الكرام مأمورون بتبليغ الرسالة، وأنهم يختلفون عن الأنبياء في هذه النقطة بالذات، فهو النص القرآني الكريم وهو قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(١).

وقوله تعالى مخاطباً سيد الرسل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

* * *

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).

Marfat.com

الأنبياء صفوة البشر

ـ ٥ ـ

اختار الله عز وجل من بين خلقه، فريقاً من البشر، ليكونوا نموذجاً للكمال، وعنواناً للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية، على مدى الأزمان وكر الدهور. . واصطفاهم المولى ـ جلّت حكمته ليكونوا هداة ومصلحين، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾(١).

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم «الأنبياء والمرسلون» الذين شرفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم خيرة الخلق، وصفوة البشر. . وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بمحض الفضل الإلٰهي والحكمة الربّانية، ولا يمكن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

Marfat.com

لأحد من البشر ـ مهما سما في سلّم الكمال ـ أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد في الطاعة والعبادة، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة كما مرّ معنا، إنما هي هبةٌ من الله واصطفاءٌ واختيار ﴿اللَّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته﴾.

التفاضل بين الأنبياء:

وهؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، فقد جعلهم الله تعالى درجات، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(1)..

ويقول أيضاً:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾(2).

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم (أولي العزم) وهم قادة الأنبياء وسادتهم وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم في جهادهم وصبرهم، فقال عز من قائل:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ...﴾(3) الآية.

وإنما سُموا (بأولي العزم) لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقاً ومريراً.. فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة، وتعاقبت عليه الأجيال العديدة، لأنه عمّر طويلاً، ولكن حياته كانت كلّها محناً وشدائد (كنوح) عليه السلام الذي لبث في قومه قريباً من ألف عام ولم يؤمن معه إلا قليل، وصدق الله حيث يقول:

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

(2) سورة الإسراء: الآية (٥٥).

(3) سورة الأحقاف: الآية (٣٥).

Marfat.com

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

ومنهم من وصلت به الشدة والكربُ، ونـال من قومـه الشدائـد والأهوال، إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار، كإبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، فقد كانت عقوبته في سبيل تبليـغ دعوة الله الإحراقَ بالنار، ولكن الله عزّ وجل نجّاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (٢).

وهكذا بقية أولي العـزم كموسى وعيسى ومحمـد صلوات الله وسلامـه عليهم أجمعين، كلهم أوذوا؛ واضطهدوا وشرِّدوا، فتحملوا الأذى والعذاب، وصبـروا على البلاء والشدة:

﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٣).

ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء، وسـادة الرسـل، وأن يحملوا اللواء في سبيـل عزّة الإنسـانية، وانتشـالها من بـراثن الشـرك والضـلال، إلى نـور التـوحيـد والإيمان.

* * *

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٤).
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (٦٩ ـ ٧٠).
(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٦).

Marfat.com

محمد سيد الأنبياء والمرسلين

– ٦ –

وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق، وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، فهو آخر الأنبياء في البعثة، وأفضلهم في المنزلة والرتبة.. كما أن القرآن آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها، فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ النبوة، كما ختم بالقرآن الكريم الوحي، فكان ختام المسك، وواسطة العقد، قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(١).

ومما يدل على أن محمداً ﷺ سيد الرسل وأفضل الأنبياء والمرسلين، أنه لم يبعث نبي قطُّ إلا وقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إنْ أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به، وليكونن من أنصاره وأتباعه فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره، وعظيم فضله ﷺ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ(٢) ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ(٣) وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

(٢) ميثاق النبيين: الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه.

(٣) لما آتيتكم من كتاب: أي بسبب نعمتي عليكم بالنبوة والوحي.

Marfat.com

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى[1] قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه مبيّناً علو المنزلة التي أعطاه الله إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيدخلنيها الله ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين على ربي ولا فخر...»[3].

وأشار العلامة (القاضي عياض) في كتابه «الشفا» إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام، وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم. وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

وقال في حق نوح عليه السلام:

﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ ... ﴾[5].

---

(١) إصري: أي عهدي، فقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء أنهم إن أدركوا زمان محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وينضووا تحت لوائه، ويصبحوا من أتباعه ﷺ، وما أعظمه من شرف!!.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٣) الحديث رواه الترمذي في المناقب برقم: ٣٦١٨، وقال: حديث حسن.

(٤) سورة الصافات: الآية (١٠٥).

(٥) سورة هود: الآية (٤٨).

Marfat.com

وقال في نداء موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

وقال مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . . ﴾ الآية[2].

وهكذا بقية الأنبياء صلوات الله عليهم ناداهم بأسمائهم التي سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة، إظهاراً لعظيم قدره، وجلال فضله، فقال عز من قائل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[3].

وقال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

وقال جلت حكمته:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[5].

وقال جل شأنه:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (١١٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٥).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٤).

(٤) سورة المائدة: الآية (٦٧).

Marfat.com

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ . . .﴾[1] الآية.

ولا نجد في كتاب الله عز وجل آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح، مثل ما جاء في خطاب الأنبياء، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس في الآيات الكريمة آية واحدة تقول: يا محمد. . وهذا من ألطف الإشارات إلى عظيم قدره ﷺ، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق[2].

فصلوات ربي وسلامه على صفوة الخلق، المبعوث رحمة للعالمين، الذي خصه الله تبارك وتعالى بالشرف العظيم الذي لا يدانيه فيه أحد، وجعله سيد الأولين والآخرين، ولقد أحسن من قال:

«محمد صفوة الباري ورحمته ... وخِيرَةُ اللَّهِ من عُرْبٍ ومن عَجَم

وقال شاعر طيبة:

وأَرَادَ رَبُّكَ أن يُجَلِّي رحمةً ... في الكونِ فاختارَ النَّبِيَّ محمدا
قد زَيَّنته شمائلُ مَحمودةٌ ... فَغَدَا على كُلِّ العوالِمِ سَيِّدا

* * *

(١) سورة المائدة: الآية (٤١).
(٢) انظر كتاب الشفا بحقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض.

Marfat.com

هل يجوز التفضيلُ بين الأنبياء ؟

ـ ٧ ـ

وقد يقول قائل: كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل، وقد قال القرآن الكريم: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. . .﴾؟؟.

والجواب: أن المراد في الآية الكريمة من التفريق بين الرسل هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء وكفروا برسالة الآخرين، ففرقوا بين الرسل، وقد وضح الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[١].

وليس المراد من التفريق (التفضيل) بين الرسل، بدليل أن الله تعالى قد فضَّل بعضهم على بعض بصريح القرآن فقال عز من قائل:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . . .﴾[٢] الآية.

---

(١) سورة النساء: الآيتان (١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

Marfat.com

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1].

فهذا المراد من الآية الكريمة وقد أوضحته الآيات الأخرى، كما أوضحه بيان الرسول ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم:

«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاَّ أدخلهُ اللَّهُ النَّارَ»[2].

بعثة الأنبياء:

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده.. ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم.. أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى. وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية، تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية، وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال.

وقد جرت سُنة الله في خلقه ألاّ يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً، يدعوها إلى البر والخير، وينهاها عن السوء والشر، وذلك حتى لا يدع لأحدٍ من البشر عذراً، ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولاً﴾ ولئلا يقول الناس يوم القيامة ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة على الله تعالى في عدم استحقاقهم للعذاب:

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[3].

* * *

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٥٥).

(٢) انظر: صحيح الإمام مسلم ١/١٣٤.

(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).

Marfat.com

لماذا كان الأنبياء بشراً؟

— ٨ —

لما كان الغرض من بعثة الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام، أن يكونوا سفراء بين الله تبارك وتعالى وبين عباده، حتى يبلغوا الناس أوامر الله تعالى ونواهيه، ويرشدوا الخلق إلى ما يحبه الباري جل وعلا وما يبغضه، ويكونوا قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.. ولمّا كان لا بد في الوسيط (السفير) أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه.. لذلك بعث الله تبارك وتعالى الرسل من البشر، ليبلّغوا أوامر الله، ويدعوا الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولو كان الرسل من (الملائكة) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم.. ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل وهو أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا.. ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلُقاً، وأطهر منا عملاً، وأكرم مقاماً.. لأن الملائكة الأطهار كما أخبر عنهم رب العزة جل وعلا:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

وأنهم دائماً في عبادة لا ينقطعون عنها أبداً:

---

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

Marfat.com

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ (١).

ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية، لأنهم عباد مكرمون. ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق (مَلَكاً) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنه، أو يجتمعوا به، لأنه إن جاءهم بصورة (ملكية) فزعوا وصعقوا وولوا الأدبار هرباً وفزعاً منه، لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة ولم يروا مثل هذا الخلق العظيم.

روى أن النبي ﷺ رجع في بعض أيامه من غار حراء فسمع صوتاً فنظر أمامه فوجد (جبريل) عليه السلام قد جلس على كرسي وقد ملأ ما بين السماء والأرض، ففزع وارتعد، ورجع إلى بيته وهو يقول: دثروني دثروني.. كما رآه مرة أخرى وقد بسط جناحيه فسدّ ما بين المشرق والمغرب. ولو جاءهم بصورة بشرية ـ أي تمثّل لهم الملك بصورة إنسان ـ لشكّوا في أمره، والتبس عليهم الحال، هل هو ملك أم هو بشر؟.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ (٢) أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٣) وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا (٤) عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لو جعلنا النبي ملكاً كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر، ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٢) لولا: (لولا) هنا بمعنى هلاّ فهي للتحضيض، وليست حرف امتناع لوجود.

(٣) لا يُنْظَرون: أي لا يُؤَخَّرون، ولا يُمْهلون.

(٤) وَلَلبسنا: اللبس: الخلطُ، يقال لَبَسْتُ عليه الأمر ألبسه لَبْساً أي خلطته، والآية من سورة الأنعام: الآية (٩).

Marfat.com

هل هو ملك أم بشر؟ فيشكُون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة.

قال العلاّمة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ٢/٣٩٤: قوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي: إنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر (ملكاً) لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفُّهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعمُّ المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ إنه بشر، وليس بينه وبينهم فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس (الشك) كما يفعلون[١].

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم.. فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبياً (مَلَكاً) كما قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٢].

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢/٣٩٤.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان (٩٤ ــ ٩٥).

Marfat.com

اعتراض المشركين:

ولقد اعترض المشركون على بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، كيف يكون من البشر وهو يدعي النبوة؟ قالوا: إنه بشر مثلهم يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي في الأسواق!! واتخذوا من ذلك ذريعة لتكذيبه والطعن في رسالته.. وطلبوا أن يكون معه من الملك، والجاه، والسلطان ما يؤهله للنبوة: المال الوفير، والكنوز العظيمة، والحدائق الغنّاء، ومن كل زهرة الدنيا مما يكون عادة للملوك والعظماء.. ثم لما رأوه فقيراً يتيماً، استبعدوا ذلك على الله ـ جلَّ وعلا ـ فأنكروا رسالته، وقالوا: إنه ساحر يسحر الناس بحلاوة لسانه، وطيب كلامه، وما جاء به ما هو إلا من أساطير الأولين، اقرأ قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾(١).

وهكذا نجد منطق الشرك والضلال، في كل عصر وزمان، منطقاً واحداً لا يكاد يتغير.. فما بعث الله نبياً إلا وقف المشركون في وجهه وقفة (استكبار وعناد) يتساءلون: إنه بشر مثلنا؟ يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، وينام كما ننام!! لماذا لا يكون من الملائكة؟ لماذا لا يكون من الأشراف العظماء، من أهل الثروة والغنى والسلطان؟ استمع إلى موقف الجحود والعناد في قصة نوح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ

(١) سورة الفرقان: الآيات (٧ ـ ١١).

Marfat.com

﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (١).

واستمع إلى موقف (عاد) مع نبي الله الكريم (هود):

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا
مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢).

واستمع أيضاً إلى موقف (الطغيان) يُمثِّله فرعون الأثيم مع زبانيته في وجه النبيَّيْن الكريمين (موسى وهارون) عليهما الصلاة والسلام:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا
فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ (٣).

ثم انظر إلى موقف كفار قريش من دعوة سيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ
أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤).

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (٢٣ ـ ٢٥).
(٢) سورة المؤمنون: الآيات (٣٣ ـ ٣٦).
(٣) سورة المؤمنون: الآيات (٤٥ ـ ٤٨).
(٤) سورة الفرقان: الآيتان (٤١ ـ ٤٢).

Marfat.com

إنـه موقف واحـد لا يكاد يتغيـر . . مـوقف أمـلاه عليهم الـطغيـان، والعنـاد، والاستكبـار . . وكأنهم عمـوا أو تعامـوا عن حكمة الله الأزليـة، في أن يكـون النبـي المرسل إلى الخلق، من البشر لا من الملائكة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(1).

* * *

(1) سورة النحل: الآية (43).

Marfat.com

مهمة الرسل الكرام

ـ ٩ ـ

لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، وكانت هناك بعض الأمور الغيبية العظيمة التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي وعن طريق الشرع، كالإيمان بالله تعالى: وبصفاته العلية، والإيمان بالملائكة وبالبعث والنشور إلى غير ذلك من الأمور الغيبية. لذلك فقد اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، ليقطع على البشر معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة، كما قال سبحانه:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1].

وليكون هؤلاء الرسل قُدوة للناس، يتأسَّون بهم في أقوالهم وأفعالهم، وسجاياهم الحميدة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2].

ولا بدَّ للإنسان كي يسلك الطريق المستقيم، من داع يدعوه إلى الخير، ومرشدٍ يرشده إلى نور الهداية والعرفان، ولهذا بعث الله الرسل، ليكونوا منارات للهدى، وأعلاماً للفضيلة، ولينشروا النور والضياء في أرجاء المعمورة، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة، ومهمات جسيمة، نذكرها في الآتي مع شيء من التفصيل والبيان.

---

(١) سورة النساء: الآية (١٦٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

Marfat.com

وظائف الرسل صلوات الله عليهم

ـ ١٠ ـ

أولاً: دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار. وهذه ـ في الحقيقة ـ هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بُعِثَ من أجلها الرسل الكرام وهي تعريف الخلق بالخالق ـ جل وعلا ـ والإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، كما قال جل ثناؤه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ . . . ﴾[2] الآية.

ثانياً: تبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر، فالأوامر الإلّهية لا بد لها من مُبلِّغ، ولا بد أن يكون هذا المبلِّغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر، للحكمة السابقة التي ذكرناها، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وفيهم يقول القرآن الكريم:

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

Marfat.com

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(١).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول (تبليغ الرسالة) وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

ثالثاً: هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.

وهذه الوظيفة مهمة كل رسول كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٣).

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٤).

رابعاً: ليكون الرسل قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر. فالرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم، هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم، والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).
(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٥).
(٤) سورة الأحزاب: الآيتان (٤٥ ـ ٤٦).

Marfat.com

للكمال، وعنواناً للفضل لأنهم أكمل الناس عقلاً وأطهرهم سلوكاً، وأشرفهم رتبة ومنزلة، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

وقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .﴾(٢) الآية.

خامساً: التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى ذلك تشير الآيات البينات.

قال الله تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾(٣).

سادساً: تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

فلقد بعث الله الرسل الكرام ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة وهي (الدار الآخرة) كما قال تعالى:

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢١).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).
(٣) سورة الأنعام: الآيتان (١٣٠ ـ ١٣١).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٤).

Marfat.com

وكما قال جل ثناؤه:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ... ﴾[1] الآية.

سابعاً: وأخيراً لئلا يبقى لإنسان حجة عند الله، كما قال تعالى:

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[2].

أي بعثهم بالبشارة والإنذار، ليقطع على الناس معاذيرهم، حتى لا يقول أحدٌ من الخلق، لو أن الله أرسل إليَّ رسولاً لآمنت وأطعتُ، كما نبّه تعالى في سورة طه بقوله تقدَّست أسماؤه:

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾[3]؟!

هذه أهم وظائف الرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ذكرناها بإيجاز والله الموفق والهادي إلى سوء السبيل.

• • •

(١) سورة الحديد: الآية (٢٠).

(٢) سورة النساء: الآية (١٦٥).

(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).

Marfat.com

الفصل الثاني
مزايا دعوة الأنبياء

- الميزةُ الأولى : دعوتهم ربّانية .
- الميزةُ الثانية : لا يطلبون أجرًا على الرسالة .
- الميزةُ الثالثة : إخلاص الدين لله تعالى .
- الميزةُ الرابعة : البساطة وعدم التعقيد .
- الميزةُ الخامسة : وضوح الهدف والغاية .
- الميزةُ السادسة : إيثار الآخرة والزهد في الدنيا .
- الميزةُ السابعة : التشدّد في أمور الغيبيات .
- صفات الأنبياء « الصدقُ ، الامانةُ ، التبليغ ، الفطانةُ ، السلامةُ من العيوب المنفرة ، العصمةُ » .

Marfat.com

خصائص ومزايا الدعوة

ما هي مزايا دعوة الأنبياء:

أهم ما في دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن لها خصائص ومزايا نلخصها فيما يلي:

أولاً: دعوة الأنبياء (ربّانية) أي بوحي وتكليف من الله عز وجل.

ثانياً: أن الأنبياء لا يطلبون أجراً على الرسالة بل يأخذون الأجر من الله.

ثالثاً: إخلاص الدين لله سبحانه، وإفراد العبادة له جل وعلا.

رابعاً: البساطة في الدعوة، وعدم التكلف أو التعقيد.

خامساً: وضوح الهدف والغاية في دعوة الأنبياء الكرام.

سادساً: الزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا.

سابعاً: التركيز على (عقيدة التوحيد) والتشديد في أمر الإيمان بالغيب.

هذه أهم مزايا دعوة الأنبياء الكرام، وسنوضح كل مزية من هذه المزايا بشيء من التوضيح والبيان، والله المستعان.

الميزة الأولى:

أولاً: أما أن دعوة الأنبياء (ربّانية) فإنما يقصد بذلك أنها بوحي وتكليف من الله عز وجل، فليست هي نابعة من نفوسهم، وليست نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم، من ظلم وبغي وجور واستبداد. كما أنها ليست نتيجة تفكيرهم

Marfat.com

العميق أو تألمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، بل هي بوحي من الله وتكليف من الباري جل وعلا، فكل ما جاء به الأنبياء إنما مصدره الوحي، فكل نبي من الأنبياء يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

فليس لهم إذاً إلا تبليغ أوامر الله سبحانه وتعالى.

يقول فضيلة الشيخ (أبو الحسن الندوي) حفظه الله في كتابه «النبوة والأنبياء»:

(إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء، أن العلم الذي ينشرونه بين الناس، والعقيدة التي يدعون إليها والدعوة التي يقومون بها، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم، أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها، ويكرمون بها.. فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى.. والقول الفصل في ذلك القول القرآن الكريم على لسان سيد الرسل ﷺ:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(1).

وقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(2).

---

(1) سورة يونس: الآية (16).

(2) سورة الشورى: الآية (52).

Marfat.com

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[1].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله عن رسوله الكريم:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

ولا يستطيع أن يحدث تغييراً، أو تبديلاً، أو تحويراً، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله ﷺ ملقناً إيَّاه الحجة:

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم، وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع، والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب، ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به: (درْ مَعْ الدَّهْرِ كَيْفَ دَارْ)[4].

---

(١) سورة النحل: الآية (٢).

(٢) سورة النجم: الآيتان (٣ ــ ٤).

(٣) سورة يونس: الآية (١٥).

(٤) انظر: كتاب النبوّة والأنبياء لفضيلة الشيخ الندوي ص ٣٥.

Marfat.com

ويظهر لنا الفرق جلياً واضحاً في سيرة الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم، حيث لا يقبلون المساومة على شيء من أمور الدعوة مهما كان الثمن بخلاف دعوة الزعماء والمصلحين.. فحين عرض المشركون عروضاً سخية على رسول الله ﷺ، وكان من جملة تلك العروض أن يملكوه عليهم، أو يزوجوه ما شاء وأحب من النساء، أو يدفعوا له كرائم أموالهم ويعطوه ما شاء من مال ومتاع، مقابل أن يترك الدعوة، ويعرض عن ذم الآلهة والسخرية بالأوثان والأصنام، ماذا كان جوابه؟ وماذا كان موقفه؟؟ لقد قال قولته الشهيرة، التي لا يزال يرددها الزمان:

«والله لو وضعوا الشمس عن يميني، والقمر عن يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»(٤).

الميزة الثانية:

أما الميزة الثانية لدعوة الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم، فهي أنهم لا يطلبون أجراً من أحد، ولا يقبلون على تبليغ الرسالة ثمناً من إنسان، إنما يطلبون الأجر والثواب من الله تبارك وتعالى، فكل نبي من الأنبياء كان يعلن على رؤوس الأشهاد، علانية وجهاراً أنه لا يريد أجراً على الدعوة، ويقرر بكل وضوح وجلاء أن دعوته لم تكن من أجل طلب الدنيا أو طلب المال.

واستمع إلى (هود) وهو يخاطب قومه فيقول:
﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٢).
وهذا هو خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله يقرر الحقيقة ناصعة جلية فيقول:
﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٣).

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام.
(٢) سورة نوح: الآية (٥١).
(٣) سورة الفرقان: الآية (٥٧).

Marfat.com

ويقول في موطن آخر من الدعوة:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

وهكذا كان الرسل الكرام لا يدعون أحداً بقصد الكسب المادي، أو الربح الدنيوي، إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله، فهم في دعوتهم يخلصون العمل، وفي نصحهم وإرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح، إنما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2].

الميزة الثالثة:

أما الميزة الثالثة لدعوة الأنبياء الكرام فهي إخلاص الدين لله سبحانه، وإفراد العبادة له جل وعلا. وهذا هو الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء في كل عصر وزمان، وفي كل بيئة ومكان، فلم يكن هدف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم القدير، وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب الأرباب جل وعلا، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[3].

ولقد أرسل الله جميع الرسل بهذه الدعوة الكريمة المباركة (دعوة التوحيد) وإخلاص النية والعمل له تعالى عن طريق إفراده بالعبادة، كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4].

---

(١) سورة صَ: الآية (٨٦).

(٢) سورة الكهف: الآية (١١٠).

(٣) سورة البيِّنة: الآية (٥).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

Marfat.com

يقول الشيخ الجليل (أحمد الدهلوي) رحمة الله في كتابه «حجة الله البالغة»:

(إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم، وأكبر هدفهم في كل زمان، وفي كل بيئة هو «تصحيح العقيدة» في الله تعالى، وتصحيح «الصلة بين العبد وربه» والدعوة إلى «إخلاص الدين» وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده.. وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم. الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام، والصالحين والمقدسين، من الأحياء والأموات الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير المملكة)[1].

الميزة الرابعة:

أما الميزة الرابعة في دعوة الأنبياء صلوات الله عليهم فهي: البساطة في الدعوة، وعلم التكلف والتعقيد.

وهذه الميزة واضحة في دعوة جميع الأنبياء، فإنهم يسيرون مع الفطرة، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، ولا يتكلفون في دعوتهم كما يفعل بعض الزعماء والمصلحين ولا يُعقِّدون الأمور أو يخاطبون الناس بما لا يفهمون أو يدركون.. بل يسلكون طريق الحكمة، في الدعوة والتبليغ، فهذا سيد الرسل ﷺ يقول على لسانه القرآن:

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

كما يأمره ربه بالدعوة إلى الله بالحكمة فيقول عز من قائل:

---

(١) انظر: كتاب حجة الله البالغة للدهلوي.

Marfat.com

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١).

ولا بد لنجاح الدعوة من سلوك طريق الأنبياء في البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع، وعدم التكلف في دعوة الناس أو مخاطبتهم، وإقامة الحجة عليهم بالمنطق والبرهان العقلي، الذي يفهمه الكبير والصغير، والعالم والجاهل، انظر إلى (إبراهيم) عليه السلام وهو يقيم الحجة القاصمة على خصمه العنيد، ويقطع عليه الطريق بأيسر السبل وأظهر البراهين الدامغة:

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢).

ولهذا نجد أن أنجح طريق للدعوة هو (الأسلوب الفطري) الذي يخاطب الفطرة بعيداً عن الأساليب الصناعية، والمناهج الكلامية، والأمور العويصة وقد أجاد حجة الإسلام رحمه الله حين قال:

«أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون. . بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»(٣).

وقد قال الإمام الرازي رحمه الله:

(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً،

---

(١) سورة النحل: الآية (١٢٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

(٣) راجع: كتاب «النبوة والأنبياء» للأستاذ الندوي.

Marfat.com

ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[١].

الميزة الخامسة:

والميزة الخامسة في دعوة الأنبياء هي: وضوح الهدف والغاية في الدعوة، فهم يدعون الناس إلى هدف واضح، وإلى فكرة بينة، لا لبس فيها ولا غموض، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

فطريقة الأنبياء واضحة، ودعوتهم ظاهرة ساطعة، مثل الشمس في رابعة النهار، ولهذا قال النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم:

«لقد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٣].

وهكذا نجد أن الأنبياء الكرام إنما دعوا الناس إلى رسالة ربانية، ذات هدف واضح، وغاية نبيلة، وهم في دعوتهم لا يسلكون الطرق الملتوية التي تُخفي وراءها الغرض والهدف من تلك الدعوة، كما هو الحال عند بعض القادة والزعماء، الذين لا يعرفون قصدهم ولا غرضهم على وجه الحقيقة والتأكيد.

الميزة السادسة:

الميزة السادسة في دعوة الأنبياء هي (الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا). وهذه الميزة ملازمة لدعوة الأنبياء الكرام، فليس هدفهم الاستمتاع

---

(١) راجع: كتاب «النبوات» للإمام ابن تيمية رحمه الله.
(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٨).
(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة؛ وأحمد في المسند ٤/١٢٦.

Marfat.com

بزهرة الدنيا وزينة الحياة، لذلك فقد عاش كل الرسل الكرام في شظف من العيش، وفي شدة من الضيق، مع أنهم كانوا يستطيعون أن يتنعموا في الدنيا، وأن يعيشوا فيها عيشة العظماء.. ولكنهم آثروا الباقية على الفانية، لأنهم أيقنوا أن ﴿ما عندَ الله خيرٌ وأبقى﴾ وأن ﴿ما عندَ الله خيرٌ للأبرار﴾ لذلك فقد كانوا زاهدين في الدنيا، مقبلين على الآخرة.. وقد خاطب الله سيد الأنبياء بقوله:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(١).

وحين طلب أزواج رسول الله ﷺ من الرسول الكريم أن يوسِّع عليهن في النفقة وأن يزيد لهن في الرزق، ويعاملهن كبقية النساء اللواتي يعشن فى رَغد من الدنيا، وفي بحبوحة من النعيم.. حين طلبن ذلك نزل التخيير لهن من السماء، وكان ذلك درساً لهن قاسياً في الحياة حيث أمر الله رسوله أن يُخيرهنَّ بقوله جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

ولقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: والله إني لأحبك، فقال: «انظر ماذا تقول؟» فكرر الرجل عليه الكلمة ثلاث مرات، فقال له الرسول الكريم: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافاً(٣) فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه»(٤).

---

(١) سورة طه: الآية (١٣١).

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان (٢٨ ـ ٢٩).

(٣) تجفافاً: المراد به اللباس وأصله ما يلبسه الفرس ليتقي به الأذى.

(٤) رواه الترمذي في سننه رقم ٢٣٥٠، وقال: حديث حسن غريب.

Marfat.com

يقول الشيخ (أبو الحسن الندوي) في كتابه «النبوة والأنبياء» ما نصه:

(ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة، وإيثارها على الدنيا، والاستهانة بقيمتها ومتاعها، دعوة باللسان فقط، ودعوة لأمتهم فقط، بل كان ذلك مبدأ ومنهاجاً لحياتهم، وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم، فكانوا زاهدين في الدنيا، مقبلين على الآخرة، قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة، وضحوا بها في سبيل دعوتهم...).

ثم قال حفظه الله:

(ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ معروفة في السيرة النبوية، تثير العجب، وتسحر النفوس، وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور، وكان شعارها الدائم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».

الميزة السابعة:

والميزة السابعة من مزايا دعوة الأنبياء هي: التركيز على عقيدة التوحيد، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب.

وهذه من المزايا الواضحة، التي تظهر للعيان بكل جلاء ووضوح، في دعوة جميع الأنبياء، حيث إنهم جميعاً قد ركزوا جهودهم على تقرير (عقيدة التوحيد) وإثبات وحدانية الله، ووجود الصانع المدبر الحكيم، كما أنهم قد ركزوا على موضوع الإيمان بالغيب، فلا نكاد نجد نبياً من الأنبياء إلا وقد حذر قومه من خطر الوثنية والإشراك، ودعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له.. استمع إلى القرآن الكريم يحدثك عن الأنبياء الكرام نبياً نبياً.. وكيف كان التوحيد أساس دعوتهم، وغاية جهادهم، فتجده يقول عن (نوح) عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٣).

Marfat.com

وتجده يقول عن (هود) عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١).

وتجده يقول عن (صالح) عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٢).

وهكذا يحدثنا القرآن الكريم عن جميع الأنبياء، أنهم قد دعوا إلى (التوحيد) أما إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد كانت دعوته إلى التوحيد، ومحاربته للوثنية، أوضح وأصرح، حيث تجلى موقفه الصلب مع قومه في تسفيه عقولهم، وتسفيه ما يعبدونه من أصنام، حتى حكموا عليه بالتحريق في النار، ولكن الله تبارك وتعالى قد نجاه من كيدهم:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾(٣).

وهكذا نرى المعركة تشتد بين الأنبياء وأقوامهم حول رسالة الحق ودعوة التوحيد، وتنتهي بانتصار الحق وتغلب الرسل، وهلاك المكذِّبين.. وصدق الله حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٤)..

---

(١) سورة هود: الآية (٥٠).

(٢) سورة هود: الآية (٦١).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان (٦٩ ـ ٧٠).

(٤) سورة الصافات: الآيات (١٧١ ـ ١٧٣).

Marfat.com

وما أروع هذه البشرى لعباد الله المرسلين ولدعاة الحق إلى يوم الدين حيث يقول جل ثناؤه:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[١].

* * *

(١) سورة غافر: الآيتان (٥١ ـ ٥٢).

Marfat.com

صفات الأنبياء الكرام

اختار الله تباركت أسماؤه الأنبياء الكرام ليكونوا سفراء بينه وبين عباده، واصطفاهم من بين سائر الخلق ليحملوا الأمانة العظيمة «أمانة الوحي» وتبليغ الدعوة والرسالة لعباده.. وقد اقتضت حكمته العلية أن يجعلهم أكمل البشر خلقاً، وأفضلهم علماً، وأشرفهم نسباً، وأعظمهم أمانة، وأن يحفظهم بعنايته، ويكلأهم برعايته، ويربيهم على عينه تبارك وتعالى كما قال جل ثناؤه مخاطباً سيد الرسل الكرام:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾(١).

وكما قال لموسى عليه السلام:

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾(٢).

وإذا تتبعنا القرآن الكريم، وقرأناه قراءة تدبر وتبصر، واستعرضنا آياته الكريمة التي تتحدث عن (النبوة والأنبياء) نجد فيها الذكر العاطر، والثناء المجيد، لهؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين الذين أكرمهم الله بالنبوة واصطفاهم لحمل الرسالة، واختارهم من بين سائر الخلق ليكونوا حملة مشعل (الهداية والإصلاح) وقادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة، وشاطىء الأمن والسلام.

---

(١) سورة الطور: الآية (٤٨).

(٢) سورة طه: الآية (٣٩).

Marfat.com

نستعرض الكتاب المجيد، فتطالعنا صورٌ ونماذجُ لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون.. ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفق بالحياة، ويفيض بالبِشر، وينم عن الحب والإيثار.. فيذكرهم بالثناء العاطر، ويصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية، كل ذلك ليدل على أنهم (الصفوة) المختارة من خلق الله، و (المثل العليا) الكاملة للبشرية.. اقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾(1).

واقرأ قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(2).

وقوله تعالى عنه:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(3).

واقرأ قوله عن الكليم موسى عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(4).

كما يذكر في موطن آخر الثناء العاطر على نبيه وكليمه موسى عليه السلام فيقول:

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).
(2) سورة مريم: الآية (٤١).
(3) سورة النحل: الآية (١٢١).
(4) سورة الأعراف: الآية (١٤٤).

Marfat.com

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[١].

واقرأ قوله جل وعلا عن نبيه (إسماعيل بن إبراهيم) عليه السلام:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[٢].

ثم استمع إلى ذلك الثناء والمديح العاطر، الذي وصف به القرآن الكريم جماعة من الأنبياء المكرمين حيث يقول:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[٣].

وهكذا نجد القرآن العظيم حين يتحدث عن الأنبياء الكرام، يصفهم بأسمى الصفات العالية، وينعتهم بأكمل الأوصاف، وتظهر من خلال سطوره معالم الحب والتكريم، والاصطفاء والاجتباء، فيصفهم تارة بالطاعة والإنابة، وأخرى بالتضحية والإيثار، ويذكرهم في بعض المواطن بالصدق والنزاهة، كل ذلك ليشير إلى علو شأنهم، ورفعة مكانتهم، وسمو الرسالة التي بعثوا من أجلها، فكانوا هداة العالم، وقادة البشرية[٤].

* * *

---

(١) سورة مريم: الآيتان (٥١ ـ ٥٢).
(٢) سورة مريم: الآيتان (٥٤ ـ ٥٥).
(٣) سورة صٓ: الآيات (٤٥ ـ ٤٨).
(٤) راجع: كتاب النبوة والأنبياء للأستاذ الندوي ص ٢٥ ـ ٣٠.

Marfat.com

صفات الرسل الكرام

والأنبياء صلوات الله عليهم ـ وإن كانوا من البشر ـ يأكلون ويشربون، ويصحون ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت. . إلا أنهم يمتازون بخصائص، ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم ومن أهم الضروريات، وهذه الصفات نلخصها فيما يلي :

١ ـ الصدق.
٢ ـ الأمانة.
٣ ـ التبليغ.
٤ ـ الفطانة.
٥ ـ السلامة من العيوب المنفرة.
٦ ـ العصمة.

ولنشرح كل صفة من الصفات الواجبة للأنبياء الكرام صلوات الله عليهم بشيء من التفصيل فنقول وبالله التوفيق :

أولاً ـ الصدق :

وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر، إلا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء، صفة لازمة، بل هي من الصفات الفطرية فيهم، فلا يمكن للنبي ـ أيِّ نبي كان ـ أن يصدر منه ما يخل بالمروءة كالكذب والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل، وغيرها من الصفات القبيحة، لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادي، فكيف بنبي مقرب أو رسول مكرم؟! ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء، لما أصبح هناك ثقة فيما ينقلونه من أخبار الوحي، أو يروونه عن الله عز وجل. . إذ يحتمل أن يكون ذلك من الأمور التي جاءوا بها من تلقاء أنفسهم، أو اخترعوها من بنات أفكارهم، ثم نسبوها إلى الله ـ وحاشاهم من ذلك ـ كذباً وزوراً، ولذلك

Marfat.com

نجد القرآن الكريم، يحكم ذلك الحكم الفاصل، في حق كل من يفتري على الله أو يكذب على لسانه، فيقول في حق سيد المرسلين:

﴿ولو تقوَّل[1] علينا بعضَ الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لَقَطعْنا منه الوتينَ[2]. فمَا منكُمْ من أحدٍ عنهُ حاجزينَ. وإنه لتذكرةٌ للمتقين﴾.

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب) عليه رحمة الله في كتابه ظلال القرآن: «وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرهيب، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة، وهي الحدُّ الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره، وهو صدق الرسول ﷺ، وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه.. ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية، أن محمداً ﷺ صادق فيما أبلغهم، وأنه لو تقول بعض الأقاويل، التي لم يوح بها إليه لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو ﷺ لا بد صادق..» انتهى. ولقد اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق والأمانة، حتى كان المشركون يسمونه (الصادق الأمين) فيقولون: جاء الصادق الأمين، وذهب الصادق الأمين.. وهكذا كان النبي الكريم قبل البعثة علماً بين قريش في صدقه وأمانته، وعلو مكانته.

روي أن رجلاً من سادة قريش لقي (أبا جهل) في أحد طرقات مكة، فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب؟ فأجابه أبو جهل بكل صراحة: والله إن محمداً لصادقٌ، وما كذب قط.. فقال: فما الذي يمنعكم من اتباعه؟ فقال له أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرسيْ رهان ـ أي استوينا وإياهم في السبق والفخر ـ ثم زادوا علينا فقالوا:

---

(١) تقوّل: أي افترى علينا الكذب تقولاً لأنه قول متكلف. والآيات من سورة الحاقة من (٤٤) إلى (٤٨).

(٢) الوتين: عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه.

Marfat.com

بعث منا نبي فمن أين نأتيهم بنبي؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه، وفي هذا أنزل الله جل ثناؤه تسلية لنبيه ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾(١).

فهذا هو عدو الله يقر ويعترف بصدق الرسول، ولكن يمنعه من اتباعه حب الزعامة والرئاسة، وصدق من قال: «والفضل ما شهدت به الأعداء».

وحين سأل (هرقل) ملكُ الروم أبا سفيان بن حرب ــ قبل إسلامه ــ عن أمر محمد ﷺ وكان السؤال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذباً قط!! فأجابه هرقل بجواب رائع هو قوله: «ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»(٢) وهذا لعَمر الحق هو المنطق السديد، والقول الفصل.

ثانياً ــ الأمانة:

وهي أن يكون النبي أميناً على الوحي، يبلغ أوامر الله ونواهيه إلى عباده، دون زيادة أو نقص، ودون تحريف أو تبديل، امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين يبلِّغونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ويخْشَونه ولا يَخْشون أَحَدَاً إلاّ اللَّهَ، وكَفَى باللَّهِ حَسِيباً﴾(٣).

فالأنبياء جميعاً مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله كما نزلت عليهم، لا يمكن لهم أن يخونوا، أو يخفوا ما أمرهم الله تعالى به. لأن الخيانة تتنافى مع الأمانة، وهل يليق بالنبي أن يخون أمانته، فلا ينصح الأمة، ولا يبلغ رسالة الله؟!

---

(١) انظر: السير النبويةلابن هشام، والآية من سورة الأنعام رقم ٣٣.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، وانظر: تمام الحديث في عمدة القاري على شرح البخاري للعيني ١/٧٧.

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).

Marfat.com

فالأنبياء الكرام كلهم قد أدوا الأمانة على الوجه الأكمل، وكل نبـي كان يقول لقومه:

﴿إني لكم ناصحٌ أمين﴾.

وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه:

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾.

أي ليس بمتهم على الـوحي والغيب. ولو لم تكن في الأنبيـاء الأمانـة لتغيرت مظاهر الرسالـة وتبدلت، ولمـا اطمأن الإنسـان على الوحي المنـزل.. ولهذا تقـول السيدة عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمـد كاتمـاً شيئاً ممـا نزل عليـه لكتم هذه الآية الكريمة:

﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما الله مُبْديه، وَتَخْشَىٰ النَاسَ واللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[1].

ولكتم أيضاً الآيات التي فيها عتاب له ﷺ مثل قوله تعالى:

﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾.

وقوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

فلا بد من توفر صفة (الأمانة) في كل نبي ورسول، لتظل النفس مطمئنة إلى سلامة الـوحي، وإلى أن كل مـا جاء بـه النبيُّ إنما هـو من عند الله العـزيز الحكيم وصدق الله حيث يقول:

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير برقم ٣٢٠٦، وقال: هـذا حديث حسن صحيـح؛ ورواه مسلم برقم ١٧٧ في الإيمان، وانظر جامع الأصول ٢/٣٠٨.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ ــ ٦٨).

Marfat.com

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

ثالثاً ــ التبليغ:

وهذه الصفة خاصة بالرسل الكرام صلوات الله عليهم، ويُقصد بها أن يبلغ الرسلُ أحكامَ الله، ويبلغوا الوحي الذي نزل عليهم من السماء، فلا يكتموا شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم، حتى ولو كان في تبليغه للناس إيذاء عظيم لهم، أو شر مستطير يلحقهم من الأشرار والفجار، وقد قال القرآن الكريم في قصة (نوح) عليه السلام:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقال عن (صالح) عليه السلام:

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[3].

وقال في (شعيب) عليه السلام:

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[4].

وهكذا نجد جميع الرسل يعلنون بكل صراحة ووضوح أنهم قد بلغوا رساله

---

(١) سورة النجم: الآيتان (٣ ــ ٤).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٦١ ــ ٦٢).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٩).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٩٣).

Marfat.com

الله، ونصحوا للأمة، حتى خاتم الرسل (محمد) صلوات الله عليه يأمره ربه بتبليغ الرسالة فيقول مخاطباً له:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(1).

فكل رسول مكلف بتبليغ الدعوة والرسالة، ولا يمكن لأحد من الرسل أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً مما نزل عليه، لأنه يكون قد خالف أمر الله، وخان الأمانة التي عهدت إليه... ولهذا نجد بعض السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى: ﴿قل﴾ وهو أمر موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ليبلغه لأمته، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه دون زيادة أو نقص، اقرأ مثلاً قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى .. ﴾(2).

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾(3).

وقوله تعالى:

﴿قلْ أعوذُ بربّ الفلق﴾ وقوله تعالى: ﴿قلْ أعوذُ بربّ النّاس﴾ وقد كان يكفي الرسول أن يبلغ الأوامر الإلهية دون تلك اللفظة التي خوطب بها، ولكنه أمين على الوحي يبلغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان، فلم يقل (هذه سبيلي أدعو إلى الله) ولم يقل (أعوذ برب الفلق) أو (أعوذ برب الناس) وإنما ذكر الأمر الذي توجه إليه من العلي القدير، بنفس الصيغة ونفس الحروف، وذلك دليل الأمانة القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة.

---

(1) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(2) سورة يوسف: الآية (١٠٨).

(3) سورة الكافرون: الآيتان (١ ـ ٢).

Marfat.com

والغـرض من (التبليـغ) أن يقطـع الله الحجـة على الناس، ولئـلا يبقى لأحد عـذر يوم القيـامة، فـإن الله تبارك وتعـالى أكرم من أن يعـذب إنسانـاً قبل أن تبلغـه الرسالة وأرحم من أن يعذبه بدون ذنب كما قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(١).

وكما قال جل ثناؤه:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(٢).

وقد بعث الله جل ثناؤه خاتم المـرسلين ليكون للعـالمين نذيـراً، وأرسله على فتـرة من الرسـل ليقطـع على أهـل الكتاب (اليهـود والنصارى) معاذيرهم لئلا يقولوا مـا جاءنـا من بشير ولا نـذير، وقـد ذكر تبـارك وتعالى ذلـك في كتابـه العزيـز فقـال وهو أصدق القائلين:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

وقد بلّـغ الرسول الكريم دعوة ربه، فحين نزل عليه قول العلي الكبير:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

جهر الرسول بالدعوة، وقام بتبليـغ الرسالة، فصعد على جبل الصفا ثم جعل ينادي القبائل وبطون قريش: «يا بني عبد المطلب، يـا بني فهر، يـا بني كعب..»،

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١٥).
(٢) سورة القصص: الآية (٥٩).
(٣) سورة المائدة: الآية (١٩).
(٤) سورة الحجر: الآية (٩٤).

Marfat.com

حتى اجتمعوا إليه فقال لهم الرسول الكريم: «أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم هل كنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قط!! فقال لهم عليه الصلاة والسلام: فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد.. فقال له عمه (أبو لهب): تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا، فأنزل الله رداً عليه:

﴿تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ...﴾ الآيات[1].

رابعاً ـ الفطانة:

وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة، والذكاء الخارق، مع كمال العقل والرشد، استمع إلى قوله تبارك وتعالى في وصف الخليل إبراهيم عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[2].

وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين تجد فيه آيات النبوغ والذكاء:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ
بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ
وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ونور اليقين للخضري.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٥١).

(٣) سورة الأنبياء: الآيات (٥٨ ـ ٦٧).

Marfat.com

وحقاً إنه لمنتهى الذكاء والنبوغ، يتجلى في عمل إبراهيم عليه السلام فلقد حطم بيده الأصنام، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام ليقيم الحجة على قومه.. فحين قدموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: من الذي حطم آلهتنا وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنت الذي فعلت ذلك يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطمها، ولكن الصنم الكبير والمعبود العظيم هو الذي حطمها لأنه لم يرض أن تعبد معه، والدليل على ذلك أنه وضع القدوم في عنقه، وإذا لم تصدقوا كلامي فاسألوهم عن ذلك الأمر وسلوه.. وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه، فأقام عليهم الحجة بعد أن سفّه عقولهم، وجعلهم يضحكون من أنفسهم، وهكذا يكون منطق الأنبياء.

وانظر إليه في موقف آخر وهو يجادل الطاغية (نمروذ) الذي نازع الله في ملكه، وزعم أنه إلّه يعبد من دون الله، وأنه الرب المعبود، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاؤه؟ وكيف دَحَض خصمه العنيد، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[١].

إنّها الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، فتجعله صريعاً أمام نور الحقّ المبين.

وهكذا جميع الأنبياء والرسل، أعطاهم الله العقل والرشد، فكانوا على أكمل وجوه الذكاء والنبوغ، فقد خصهم الله تعالى بالذكاء الخارق، والفطنة والنباهة، ليستطيعوا إقامة الحجة على أقوامهم، وقد جرت حكمة الله الأزلية، أن يختار للرسالة أكمل الناس عقلاً، وأوفرهم ذكاء، وأقواهم حجة وبرهاناً، ليظهر ضياء الحق، وتعلو دعوة الله، وصدق الله حيث يقول:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

Marfat.com

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١).

وإذا كان البشر يعتريهم النقص، وتضعف قواهم العقلية، وربما وصل البعض منهم إلى حالة (الخرف) عند بلوغ سن الشيخوخة.. فإن الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل، وقوة التفكير، مهما امتدت أعمارهم لأن الله تعالى قد أحاطهم بعنايته، وحفظهم برعايته، ولا يمكن أن تضعف حواسُّهم الفكرية وتتعطل مواهبهم العقلية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واللَّهُ ذو الفضل العظيم.

خامساً ـ السلامة من العيوب المنفّرة:

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء الكرام، فإنه لا يمكن أن تكون فيهم عيوب خَلْقِيَة أو خُلُقية، تنفر الناس من الاجتماع بهم، أو اتباعهم والسماع لدعوتهم كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام، والتشويه الجسدي لا يكون في أحد من الأنبياء، فهم وإن كانوا من البشر، تصيبهم العوارض التي تصيب البشر، إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة، التي تجعل النفوس تنفر منهم، وما روي عن (أيوب) عليه السلام من أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفن جسده وأصبح الدود يخرج من بدنه، حتى كرهته زوجته، فإن هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن (الإسرائيليات) ولا يصح تصديقها أو الاعتقاد بها، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء، والقرآن الكريم لم يذكر لنا شيئاً من هذا، وإنما الذي ذكره أنه قد أصابه الضر في بدنه فدعا ربه ـ بعد أن اشتد به الكرب والضر ـ فكشف الله عنه ما أصابه من كرب وبلاء، قال تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٤).

Marfat.com

لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[1].

وظاهر من الآية الكريمة أن الضر الـذي أصابـه كان في جسمـه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم، أو يزري بمقامهم.

سادساً ـ العصمة:

وسنفرد لها بحثاً خاصاً إن شاء الله لأهميتهـا، والله الموفق والهـادي إلى سواء السبيل.

• • •

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٨٣ ـ ٨٤).

Marfat.com

الفصل الثالث
عصمة الأنبياء

١ - تعريف العصمة ومعناها اللغوى والشرعي .
٢ - هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟
٣ - شبهات حول عصمة الأنبياء والردّ عليها .
٤ - عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام .
٥ - عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
٦ - عصمة يوسف الصّديق عليه السلام .
٧ - عصمة نوح عليه السلام .
٨ - عصمة يونس عليه السلام .
٩ - عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .
١٠ - الآيات التى ورد فيها العتاب .

Marfat.com

عصمة الأنبياء

من المزايا التي امتاز بها الأنبياء على بقية البشر، بعدهم عن اقتراف المعاصي وعزوفهم عن الشهوات واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة، أو يهدر الكرامة، أو يحط من قدر الإنسان. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس خلقاً وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعطرهم سيرة، لأنهم «القدوة» للبشر وهم الأسوة الحسنة للإنسانية، ولذلك أمر الله عز وجل بالاقتداء بهم، والتخلق بأخلاقهم، والسير على منهاجهم في جميع شؤون الحياة، قال تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾(٢).

وقال تقدّست أسماؤه:

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾(٣).

* * *

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٢١).

(٣) سورة صۤ: الآية (٤٧).

Marfat.com

تعريف العصمة ومعناها اللغوي والشرعي

ـ ١ ـ

العصمة في اللغة معناها: المنع، يقال: عصمته عن الطعام، أي: منعته عن تناوله، وعصمته عن الكذب، أي: منعته منه، ومنه قوله تعالى:

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾(١) الآية، أي: يمنعني من الغرق.

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾(٢) أي امتنع امتناعاً شديداً.

وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٣). أي منعوا مني دماءهم وأموالهم.

قال القرطبي: وسميت العصمة عصمةً لأنها تمنع من ارتكاب المعصية.

ومن الخطأ الفاحش ما يقوله البعض: العصمة لله وحده، أو العصمةُ للهِ ولرسله، فإنَّ العصمة إنّما تكون من الجرائم والذنوب، فلا تصحُّ نسبتها إلى الله جلَّ وعلا.

---

(١) سورة هود: الآية (٤٣). (٢) سورة يوسف: الآية (٣٢).

(٣) الحديث رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وانظر البخاري ١/٧٠، كتاب الإيمان؛ ومسلم برقم ٢٢ من كتاب الإيمان أيضاً.

Marfat.com

وأما في الشرع: فالعصمة هي: حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والمحرمات.. فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، وميزهم على سائر البشر، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى، وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرِها وكبيرها.. فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر.

والحكمة من ذلك: أن الله عز وجل: أمر باتباعهم والاقتداء بهم، والسير على نهجهم، فهم «القدوة الحسنة» والأسوة الصالحة للخلق. والنموذج الكامل للبشرية جمعاء، فلو جاز وقوعهم في المعصية، أو ارتكابهم للموبِقات والآثام، لأصبحت المعصية مشروعة، أو أصبحت طاعتهم علينا غير واجبة، وهذا غير سليم، بل هو أمر مستحيل، فالأنبياء هم القادة، وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة، وينهى عن الرذيلة، ثم يرتكب هو أنواع الفواحش والمنكرات؟! ثم إن المعاصي والذنوب ما هي إلا «نجاسات معنوية». وهي تشبه القاذورات والنجاسات الحسية، فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء والرسل الكرام؟

وقد جاء في الحديث الشريف ما يشير إلى أن المعصية نجاسة باطنة وذلك في قوله ﷺ:

«من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، فإنه من يُبْدِ لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله» أو كما ورد والمعنى: من يظهر المعصية ويعلنها فلا بد من إقامة الحد عليه.

فالعقل والشرع يُلزمان القول (بعصمة النبي) إذْ: كيف يجوز أن يكون نبياً ويكون سارقاً، أو قاطع طريق، أو شارب خمر، أو زانياً أو غير ذلك من القاذورات والنجاسات التي تمنع من الاقتداء به، أو من اتِّباعه؟!.

وهل يكون لكلام النبي أثر في النفوس إذا كانت سيرته غير عطرة، أو كانت حياته ملوثة ببعض الموبِقات والآثام؟!.

Marfat.com

إذاً فلا بد من أن تكون حياة (النبي) حياة كريمة فاضلة، مشرقة بنور الهداية، معروفة بالعفة والطهارة، زاخرة بالفضل والنبل والصلاح، وهذا ما يسمى بـ (عصمة الأنبياء)!.

جاء في كتاب «العقيدة الإسلامية»[1] في باب صفة العصمة ما نصُّه:

«وحيث ثبت أن الرسول هو «المثل الأعلى» في أمته، الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له ــ إلا ما كان من خصائصه بالنص ــ وجب أن تكون كل اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى، ووجب أن لا يدخل في شيء من اعتقاداته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه، معصية لله تعالى، لأن الله تعالى أمر الأمم بالاقتداء برسلهم، فإذا أمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوةً ــ في حال المعصية وحدوثها منهم ــ أمراً بالمعصية، وفي هذا تناقض ظاهر».

عصمة الله لرسوله منذ الطفولة:

وقد حفظ الله تعالى نبينا ﷺ منذ طفولته، وعصمه من أفعال الجاهلية في صغره وشبابه، إلى أن جاءته النبوة فأكملت عليه النعمة وتمت له «العصمة» بتشريفه بتحمل أعباء الرسالة على الوجه الأتم الأكمل.

قال (ابن هشام) في السيرة النبوية:

(فشبَّ رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم

---

(١) هو كتاب لأخينا الفاضل الأستاذ (عبد الرحمن حبنكة) الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، وهو من الكتب النفيسة في العقيدة الإسلامية وفقه الله.

Marfat.com

حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله ﷺ ـ فيما ذُكر لي ـ يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره، وأمر جاهليته، أنه قال:

«لقد رأيتني في غلمان من قريش، ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأُدبر، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»(١).

قال (السهيلي) في التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت في الحديث الشريف في حين بنيان الكعبة، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس رضي الله عنه: يا ابن أخي، لو جعلت إزارك على عاتقك ففعل فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزاري، إزاري، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة. وحديث ابن إسحٰق ـ إن صح ـ أنه كان في صغره، فمحمله على أن هذا الأمر كان مرتين، مرة في صغره، ومرة في شبابه.

❊ ❊ ❊

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٩٤.

Marfat.com

هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟

ـ ٢ ـ

وقد اختلف العلماء في (عصمة الأنبياء) هل هي قبل النبوة أم بعدها؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟.

فذهب بعضهم إلى أن العصمة ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها، وذلك لأن السلوك الشخصي ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثر على مستقبل الدعوة للنبي، فلا بد إلا وأن يكون إذاً من ذوي السيرة العطرة، والصفاء النفسي، حتى لا يكون ثَمة مطعن في رسالته ودعوته.

واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1].

وجعلهم من المصطَفيْن الأخيار:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[2].

فلا بد إذاً أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها.

---

(١) سورة طه: الآية (٣٩).

(٢) سورة صٓ: الآية (٤٧).

Marfat.com

وأما الفريق الآخر: فقد ذهبوا إلى أن (عصمة الأنبياء) إنما تكون بعد النبوة، وتكون من الصغائر والكبائر معاً، لأن البشر ليسوا مأمورين باتباعهم قبل النبوة، فالاتباع والاقتداء إنما يكون بعد نزول الوحي عليهم وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة، وأما قبلها فإنما هم كسائر البشر، ومع ذلك فإن سيرتهم تأبى عليهم الوقوع في المعاصي والآثام، أو الانجراف في طريق الفاحشة والرذيلة فإنهم ولو كانوا قبل النبوة غير معصومين، لكنهم محفوظون بالعناية والفطرة.

جاء في كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها) ما نصه: (إن النبي قبل اصطفائه بالنبوة على وجهين:

١ ــ فهو إما أن يكون لم يكلف بعدُ مطلقاً بشرع ما، فالعصمة في حقه غير ذات موضوع، لأن المعاصي والمخالفات بعد ورود الشرع والتكليف به، والمفروض أنه لم يكلف، فلا مجال لبحث العصمة أو عدمها، لأن الذمة خالية من التكليف.

لكن علو فطرة الرسول، وصفاء نفسه، وسمو روحه، وصحة عقله تقتضي أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه: في أخلاقه، ومعاملاته، وأمانته، وفي بعده عن ارتكاب القبائح التي تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة.

٢ ــ وإما أن يكون قد كُلف بشرع رسول سابق، كسيدنا لوط عليه السلام حينما كان تابعاً ــ قبل نبوته ــ لعمه إبراهيم عليه السلام، وكأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى قبل أن يوحى إليهم بالنبوة، وهذه الحالة لم يثبت في عصمة النبي فيها دليل قاطع، لا عن الكبائر، ولا عن الصغائر، لكن سيرة الأنبياء التي أثرت عنهم قبل نبواتهم تشهد بأنهم من أبعد الناس عن المعاصي كبائرها وصغائرها.

ولئن وقع منهم شيء من ذلك فهفوات نادرة، لا تطعن فيهم لعلو فطرتهم وصفاء نفوسهم، وسمو أرواحهم والمهمة التي سيكلفون بها فيما بعد، وإنما تقع منهم هذه الهفوات إثباتاً لبشريتهم أمام الخلائق، لئلا يرفعوهم فوق المستوى

Marfat.com

البشري، ويحملوهم من صفات الألوهية ما لا يمكن أن يتصفوا به، فهم عبيد مخلوقون لله تعالى، وليظهر الفرق بين أحوالهم قبل النبوة وأحوالهم بعدها[1].

والصحيح الذي عليه المعوّل من أقوال العلماء هو: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع مهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمروءة ولا تقدح بالكرامة والشرف.

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن:

«واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً، فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصدِه من القربة والإباحة، أو الحظر، والمعصية.. ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية.

وقال (أبو إسحق الأسفرايني) من علماء أهل السنة: لا يقع من الأنبياء ذنوب، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر. وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم، ولا أصل لهذه المقالة، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم.

وقال بعض المتأخرين:

الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها

---

(١) العقيدة الإسلامية للأستاذ حبنكة ص ١١٦.

Marfat.com

وتـابوا، وكـل ذلك ورد في مـواضـع كثيرة لا يقبـل التأويـل جملتها، وإن قبـل ذلك آحادُها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيـان فهي بالنسبة إلى غيـرهم (حسنات) وفي حقهم (سيئـات) ولقد أحسن الجنيـد حيث قال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) إذ قد يُؤاخذ الوزير، بما يثاب عليه الأجير، قـال القرطبـي: وهـذا هـو الحق، فهم صلوات الله وسـلامـه عليهم، وإن كـان قـد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم ولا قدح في رُتبهم، بـل تلافـاهم واجتباهم، وهـداهم وزكّاهم، واختـارهم واصـطفـاهم[1] صلوات الله عليهم وسلامه».

هل تكون العصمة لغير الأنبياء؟

والعصمة لم تثبت لغير الأنبياء الكرام صلوات اللهوسـلامه عليهم أجمعين، إذ كـل فرد من البشـر معرض للخـطأ والانحراف، والـوقـوع في المعصيـة، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه، من الكبائر، وصانهم عن الرذائل، عن طريق «الحفظ» والتـأييـد، وهـذا من اللطف الإلـهي، لا مـن «العـصمـة» الـتي خص الله بـهـا رسله وأنبياءه.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقـوا الله وآمنوا بـرسولـه يؤتِكُمْ كِفْلَين[2] من رِحمتهِ، ويجعلْ لكمْ نوراً تمشونَ بهِ، ويغفرْ لكمْ، واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

فالنور الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلـهي، الذي يكون لـلأوليـاء والأتقيـاء، أو للصـديقين من الـرجـال، وهـو من الحفظ والتـأييـد، لا من العصمة.

---

(١) انظر: جامع الأحكام للقرطبي ١/٣٠٨.

(٢) «كفلين» الكِفْلُ: الحظُ والنصيب، والمراد يؤتكم مثلين وضعفين من الأجر، والآيـة من سـورة االحديد رقم (٢٨).

Marfat.com

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر: «والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر»(١).

ودعوى بعض المخالفين بعصمة بعض الأشخاص لا صحة لها، ولا برهان من كتاب أو سنة، وإنما هي مجرد أوهام وأحلام، فما كانت «العصمة» لأحد إلا للأنبياء، لأن الله جعلهم قدوة للعالمين (٢) كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٣).

وكل إنسان ـ عدا الأنبياء الكرام ـ معرض للخطأ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى:

(ما منا إلا من رَدَّ ورُدَّ عليه، إلاَّ صاحبُ هذا القبر) يعني بذلك النبي ﷺ بسبب العصمة.

عقيدة أهل الكتاب في الأنبياء:

وإلى جانب هذه الصورة المشرقة، صورة الكمال الإنساني للأنبياء الكرام (الأسوة، والقدوة، والإمامة، والهداية للبشرية) التي يضفيها عليهم القرآن الكريم، وينعتهم بها، نجد عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تتجاوز الحد من النيل من

---

(١) هذا طرف من حديث رواه البخاري ٧/٣٧ في فضائل الصحابة؛ ورواه مسلم برقم ٢٣٩٦ في فضائل عمر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٨/٦٢٠.

(٢) انظر: رسالة «الخطوط العريضة لمذهب الشيعة الإثني عشرية» لمؤلفها الفاضل الشيخ محب الدين الخطيب فإنها نفيسة.

(٣) سورة الأنبياء: آية (٧٣).

Marfat.com

كرامة الأنبياء الأطهار، فلا يكتفون بنسبة المعصية إليهم، وعدم الاعتقاد بعصمتهم، بل يجعلون منهم (أبطالاً) للجريمة و (قادة) للفجور والدعارة وارتكاب أعظم الآثام.

تجد في التوراة ــ المحرَّفة طبعاً ــ الشيء الكثير من هذه المخازي، منها أن أحد الأنبياء وهو (لوط عليه السلام) شرب الخمر ثم نام مع ابنتيه (وطأهما بعد أن سكر) فحملتا منه عن طريق الزنى، استغفر الله!! أي جريمة أقبح من هذه الجريمة النكراء، أن يرتكب النبي جريمة الزنى مع ابنتيه، بعد معاقرة الخمرة، يا لشناعة الأمر، وفظاعة الاتهام!!.

ونحن ننقل النص الذي ورد في التوراة، ليتبين للقارىء عقيدة اليهود في الأنبياء، ومدى الافتراء والبهتان الذي ألصقه اليهود بهم، مما نقطع ونجزم بأنها أخبار كاذبة على الأنبياء الكرام، وأنها من التحريف لكتاب الله. جاء في سفر التكوين صفحة (١٢٨) ما نصه:

«فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه، وخاف أن يسكن صاغر، وأوى إلى كهف هو وابنتاه. فقالت الكبرى منهما للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا، فهلمي نسقيه خمراً، ونضطجع معه، ونقيم من أبينا خلفاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يعلم عن انضجاع ابنته ولا نهوضها. ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: هوذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقه خمراً في ليلتنا هذه أيضاً، وادخلي فاضطجعي معه فنقيم نسلاً من أبينا، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها، ولم يعلم عن اضطجاعها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابين إلى يومنا هذا، وولدت الصغرى أيضاً ودعت اسمه (عمان) فهو أبو العمانيين إلى اليوم». اهـ. نعوذ باللهِ من الزيغ والضلال، والافتراء والبهتان.

ونجد في الباب الثامن والثلاثين من سفر التكوين ص ١٢٨ أن (يهوذا بن

Marfat.com

يعقوب) زنا بزوجة ابنه، وحملت بالزنى منه وولدت توأمين (فارض، وزارح) وأن داود وسليمان وعيسى كلهم من أولاد فارض كما هو مصرح به في الباب الأول (من إنجيل متى).

وأن (داود) عليه السلام زنا بامرأة (أوريا) قائد جيشه وحملت بالزنى فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر (صموئيل).

وهناك ما هو أدهى وأمر. . فإن اليهود يزعمون أن (سليمان) عليه السلام ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد، وبنى المعابد لها كما هو في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول.

ويا ليت شعري ماذا يبقى من حرمة الأنبياء، وكيف يمكن الاقتداء بهم، إذا كان هذا هو تاريخهم. . (سكر، وعربدة، واقتراف للجرائم الشنيعة كالزنى، وسفك الدماء، وعبادة الأوثان)؟؟

هذه بعض عقائد اليهود في أنبيائهم، وكلها كذب وزور وبهتان، ونحن نقطع ونجزم بأنها كلها وأمثالها باطلة، وأنها من تحريف اليهود، لا من التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

وأما (النصارى) فإنهم لا يعتقدون بعصمة الأنبياء وذلك بناء على عقيدتهم بألوهية السيد (المسيح) عليه السلام فهو وحده المعصوم، وكل البشر ـ بما فيهم الأنبياء ـ يخطئون، وليس هناك شفيع ولا مخلص سوى (المسيح) لأن المخطىء لا يخلص المخطئين، على حد تعبير الإنجيل. .

وعند النصارى صور مخزية لا تقل شناعة عن عقيدة اليهود في الأنبياء وكلها ترميهم باقتراف الآثام وارتكاب الجرائم مما لا يقبله عقل ولا نقل.

يقول المرحوم محمد رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي) ما نصه: (إذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر، لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم، بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة

Marfat.com

أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يُقتدَى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب (عصمة الأنبياء) من المعاصي والرذائل وبالغ بعضهم فيها حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر والكبائر. قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة.

وأهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعضَ كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرّئة على الشرور والمفاسد.

والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإله، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره، لأن المخطىء لا يخلص المخطئين وهو منهم، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء، وكتبهم، وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها.

بيد أن كتب العهدين (القديم والجديد) المقدسة عندهم، المحرّفة في اعتقادنا، لا تشهد لهم برمي جميع الأنبياء بالذنوب، فضلاً عن المعاصي التي هي أشد من الذنوب، فإن (يوحنا المعمدان)[1] لم يوصم بخطيئة قط، بل شهدت له أناجيلهم، بما يدل على أنه أعظم من المسيح في عصمته ففي إنجيل (لوقا) جاء قوله: (إنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس).

وفيه أيضاً يقول: (كانت يد الرب معه).

وقال المسيح فيه: (الحق أقول لكم إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان)[2].

---

(١) هو يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام.

(٢) إنجيل متى، إصحاح (١١).

Marfat.com

بل شهدت الأناجيل أن المسيح عليه السلام أهان أمه وإخوته، ولم يسمح لهم بلقائه، وقد استأذنوا عليه ليكلموه، جاء في إنجيل (لوقا): فأخبروه قائلين: أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك، فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها».

يقول السيد رشيد رضا:

نعم إن إخوته لم يكونوا يؤمنون به كما هو مصرح به في موضع آخر، ولكن هل كانت أمه كذلك؟ وهل يجازيها هذا الجزاء؟ والله تعالى يوصي بالإحسان بالوالدين حتى المشركين، ويفضل أم السيد المسيح على نساء العالمين، وإهانة الأم ذنب في جميع الشرائع والآداب. ونحن نبرئه من كل ذلك)[١].

والخلاصة: إن عقيدة المسلمين في الأنبياء هي العقيدة الحقة الصافية، التي جاء بها القرآن الكريم، وشهد بها واقع حياتهم الطاهرة الشريفة، وهي التي تتناسب مع مقامهم العالي، ومنزلتهم الرفيعة، والقول «بعصمة الأنبياء» والاعتقاد بطهارتهم ونزاهتهم، هو ما يتفق مع النصوص القرآنية المجيدة، في جعلهم أئمة الدنيا والدين، وحملهم لواء الدعوة والهداية للعالمين وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه:

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[٢].

ولا بد في القدوة أن يكون كاملاً، ولا بد في النبي أن يكون معصوماً. هذا ما يقتضيه العقل، ويوجبه الشرع وسنتعرض في مكانٍ آخر إن شاء الله لدفع بعض الشبهات عن (عصمة الأنبياء) ليظهر الحق، وينبثق ضياؤه، والله ولينا ونعم الوكيل.

* * *

(١) الوحي المحمدي ص ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

Marfat.com

شبهات حول عصمة الأنبياء والردّ عليها

ـ ٣ ـ

وقد يقول قائل: كيف يكون الأنبياء «معصومين» مع أن القرآن الكريم قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية فقال في حق آدم:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾(١).

وقال في حق نوح:

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢).

وقال لسيد المرسلين:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾(٣)؟؟.

وللجواب على ذلك نقول:

«إن العصمة للأنبياء ثابتة كما دلت على ذلك النصوص القرآنية الكريمة، وكما قضى بذلك المنطق العلمي السليم.. إذ كيف يأمر عز وجل البشر باتباعهم والاقتداء بهم، والسير على نهجهم إن لم يكونوا مثالاً للكمال، ونموذجاً للفضل

---

(١) سورة طه: الآية (١٢١).

(٢) سورة هود: الآية (٤٦).

(٣) سورة الفتح: الآية (٢).

Marfat.com

والنبل والطهر!! ولو لم تكن (العصمة) من صفاتهم لما كنا مكلفين باتباعهم في جميع الأعمال والأفعال!.

أما ما ورد من بعض النصوص الشرعية، التي يدل ظاهرها على وقوع المعاصي والمخالفات من بعض الأنبياء صلوات الله عليهم، فهي محمولة على بعض الوجوه الآتية:

أولاً: إنها ليست معصية وإنما هي فعل خلاف الأولى.

ثانياً: إنها ليست معصية وإنما هي خطأ في الاجتهاد.

ثالثاً: على فرض أنها مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة.

وإنَّما قلنا ذلك، لأنه من المستحيل أن يثني الله تبارك وتعالى عليهم ذلك الثناء العاطر، وهم غارقون في أنواع الموبقات والمنكرات، ونسمع فيهم مثل قوله تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ... ﴾[1].

أي تأسَّ بهم يا محمد في سيرتهم العاطرة، وأخلاقهم الزكية، وفي عفَّتهم، وطهارتهم، ونقائهم!! وأن نقرأ مثل قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾[2].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٠).
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

Marfat.com

عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام

ـ ٤ ـ

معصية آدم عليه السلام، التي صرح القرآن بها في قوله تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(١).

إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى:
﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾.

والاجتباء هو اصطفاء الله له بالرسالة، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول آخر أن «آدم» عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسياً بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا(٢) إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٣).

وقيل: إن آدم عليه السلام لما نُهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى:

---

(١) سورة طه: الآيتان (١٢١ ـ ١٢٢).

(٢) يقال: عهدت إليه بكذا، أي أمرته بكذا والمعنى: أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فنسي هذا الأمر ولم نجد له عزماً على المعصية.

(٣) سورة طه: الآية (١١٥).

Marfat.com

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾، ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر، وكان ذلك باجتهاد منه، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة.

وأقرب الأقوال في هذا أن نقول: إن آدم أكل من الشجرة ناسياً، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وكما قال تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾[1]..

ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التي ذكرناها ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾.. وذلك ما اختاره بعض المفسرين كالقرطبي وابن العربي: أو نقول: إن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير المنار.

جاء في تفسير المنار الجزء الأول صفحة (٣٨٠) قوله:

(وأما مسألة عصمة آدم، فالجري على طريقه السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه، كسائر ما ورد في القصة، مما لا يركن العقل إلى ظاهره، ولنا أن نقول: إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه: ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾.. والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً، فسمي تفخيماً لأمره عصياناً.. والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة).

وأما (ابن العربي) رحمه الله فقد رجح الأول، وذهب إلى أن المخالفة وقعت من آدم عليه السلام بسبب النسيان، فقد جاء في كتاب أحكام القرآن ما نصُّه:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

Marfat.com

(كم قال في تنزيه الأنبياء من الذي لا يليق بمنزلتهم،مما ينسبه الجهلة إليهم ـ من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، وحاشا لله ـ فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبيين!! ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها متعمداً ناسياً، فقيل في تعمده (وعصى آدم ربه). . وقيل في بيان عذره:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1].

ونظيرها: أن يحلف الرجل لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد، ناس، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان. وجاز للمولى أن يقول في عبده: عصى، تحقيراً وتعذيباً، ويعود عليه بفضله فيقول: نسي، تنزيهاً.

ثم قال رحمه الله:

(ولا يجوز لأحد منا اليوم أن يُخبِر بذلك (أي بعصيان آدم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبيِّ المقدَّمِ، الذي عَذَره الله، وتاب عليه، وغفر له)[2]!!

وقال العلامة القرطبي رحمه الله:

(واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها، فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها، وقيل: أكلها ناسياً، وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتماً وجزماً فقال: ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ من قبلُ فنسي ولم نجد له عزماً﴾.

---

(١) سورة طه: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام لابن العربي المالكي ٣/١٢٤٩.

Marfat.com

ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ، لكثرة معارفهم، وعلو منازلهم، ما لا يلزم غيرهم، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً، أي مخالفاً.. قال أبو أمامة: «لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق، إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ولم نجد له عزماً﴾[1].

إذاً يتوضح لنا من أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل، وإنما أكل من الشجرة متأولاً، بطريق الاجتهاد، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى، فعاتبه ربه بإخراجه من الجنة وإنزاله إلى الأرض وذلك لحكمة إلٓهية سابقة، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾!.

* * *

(١) تفسير القرطبي ١/٣٠٦.

Marfat.com

عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

ـ ٥ ـ

وأما بالنسبة لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد وردت بعض النصوص من الكتاب والسنة، ظاهرها يفيد عدم العصمة.. وهذا الظاهر غير مراد لأنه يعارض نصوصاً أخرى، ولا بد حين الجمع بين هذه النصوص، من فهمها على الوجه الذي يتفق مع عقيدة المسلم بـ (عصمة الأنبياء) الكرام.

أما النص الأول فهو في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ[(١)] ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(٢)].

فهذه الآيات الكريمة توهم بظاهرها أن إبراهيم كان شاكّاً في الله، جاهلاً بعظمته، لا يدري من هو الإلـه المستحق للعبادة!.

---

(١) جَنَّ: بمعنى أظلم واشتد ظلامه، أفل: بمعنى غاب، بازغاً: طالعاً.

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٧٦ ـ ٧٩).

Marfat.com

وقد يظن بعض الناس أن (إبراهيم) عليه السلام كان متأثراً ببيئة قومه، وأنه في بدء نشأته عبد معهم الكواكب. كما عبد الشمس والقمر، وهذا جهل فاضح وخطأ مبين، لا يصدر إلا عمن جهل صفات الأنبياء الكرام، ولم يفقه معاني القرآن الحكيم..

فالله ـ جل ثناؤه ـ قد أخبر عن نبيه وخليله (إبراهيم) عليه السلام، بأنه قد أطلعه على ملكوت السموات والأرض، وأنه كان من المؤمنين الموحدين، الكاملين في الإيمان واليقين، وأن الله تعالى قد وهبه كمال الرشد منذ الصغر، وأعطاه الحجة الدامغة، التي تقصم ظهر كل معاند ومكابر، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد، ما كان يغلبه أحد، استمع إلى صدر الآيات الكريمة، كيف أن الله عز وجل يسوق البراهين على كمال يقين إبراهيم فيقول جل ثناؤه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا... ﴾(١).

فالله عز وجل أعطى إبراهيم الحجج المقنعة، والبراهين الساطعة، التي بها قام الدليل على وجود الصانع الحكيم، فهو يجادل أباه بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ ثم يصفه وقومه بالضلالة في عبادة من لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فيقول: ﴿إني أراك وقومَك في ضَلالٍ مُبينٍ﴾.

ثم يأتي البرهان على كمال يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (٧٤ ـ ٧٦).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٥).

Marfat.com

والآيات التي جاءت بعدها إنما هي في مقام الاستدلال على وجود الله، وفي تقرير الحجة على قومه، بحيث يتنزل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم، ويتدرج معهم على حسب اعتقادهم، فيقول عن النجم: هـذا ربـي، ثم عن القمر ثم عن الشمس، ليبطل عقيدتهم في عبادة هذه الآلهة المزعومة بالمنطق السليم، وبالحجة والبرهان. . ولهذا ختم الله عز وجل هذه القصة بقوله جل وعلا:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(١).

ولقد ذكر العلامة (الزمخشري) كلاماً رائعاً هو في منتهى الجودة والإتقان ننقل طرفاً منه حول تفسير هذه الآيات الكريمة، قال رحمه الله:

(وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، ويرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلّهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدِثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبّراً دبر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها. . وقول إبراهيم (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة حيث يقول ﴿لا أحب الآفلين﴾ أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام، وقوله:

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٧).

Marfat.com

تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلـهاً ـ وهـو نظيـر الكواكب في الأفـول ـ فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه)[1].

فـالقصة التي سـاقها القـرآن الكـريم، إنمـا تـرمـز إلى أسلوب الإقنـاع وقـوة الحجة، التي أعطاها الله سبحانه وتعالى، لنبيه وخليله إبراهيم عليـه السلام، وكيف استطاع أن يفحم قومـه في إقامـة البرهـان على وجود الله، وأن يبـرهن لهم ضلالهم وخطأهم في عبادة الكواكب والشمس والقمر. . . ويظهر أن إبراهيم عليه السلام قد سلك معهم أيسر الطرق لبلوغ غـرضه، فلم يجـابههم بالضـلال، وإنمـا تـدرج معهم فادعى أن (الكوكب) الذي رآه ساطعاً في السماء هو ربه، وذلك ليستأنسوا بكلامـه، ثم لما غاب الكوكب أنكر إبـراهيم أن يكون هـذا الكوكب صـالحاً لأن يكـون ربه، لأنه متغير متنقـل، وذلك عـلامة الحـدوث. . ثم لما رأى (القمـر) بازغـاً مضيئاً في السمـاء، قال: هـذا ربـي، فلما غـاب القمر ولم يعـد له نـور، أنكر أن يكـون ربـاً معبـوداً، وهنا لمَّـح إبـراهيم إلى ضلالهم، ولكن بـأسلوب في منتهى الحكمة حيث قـال ﴿لئن لم يهدني ربـي لأكـونن من القوم الضـالين﴾ فما عـرض إلى التصـريـح بضلالهم وإنما اتَّهم نفسـه بالضـلالة، إن عبـد هذا الإلـه المتحرك المتنقـل، الذي تظهر عليه علامات الحـدوث، وقـوله: (من القـوم الضالين) تلميـح بضـلال من عبد القمر.

ثم لمـا بزغت الشمس، وسـطعت بأشعتهـا الذهبيـة على الكـون، وأضـاءت الوجود، قال: هذه الشمس ربـي فهي أكبر المخلوقات وهي أحق بالعبادة من سـائر النجـوم والكواكب، وقـال ذلك ليقيم الحجـة على ضلالهم، فلمـا غابت الشمس، وتوارت خلف الأفق، ولم يعد لها ضياء أو نور. . صرح هنـالك بضـلال من يعبدهـا أو يعبـد تلك المحدثـات، وتبرأ من قـومه ومن عبـادتهم لها وذلـك بعـد أن ظهـرت الحجة، وتبلـج الحق، وبلـغ من الظهور غاية المقصود، :

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٠.

Marfat.com

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

إلى قوله تبارك وتعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

فظهر أن هذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكاً في الله، ولم تكن جهلاً بالخالق جل وعلا.. وإنما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه، عن طريق البرهان والاستدلال، وإفحامهم بأعظم الحجج الدامغة.

يقول (ابن العربي) في أحكام القرآن:

(والذي أوتيه إبراهيم عليه السلام من العلم بالحجة، بظهور دلالة التوحيد، وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى، والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجاً، ولم يكن اعتقاداً)(٣).

فمن ظن بإبراهيم الشك، أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب، فقد جانب الحق، وأخطأ الفهم، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين... وكيف يكون ذلك والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل النبوة ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾!!.

أما النص الثاني الذي يوهم عدم العصمة فهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٧٨ ـ ٧٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٣٢.

Marfat.com

﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ (١) إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

فإن هذا النص الكريم قد يفهم منه أن إبراهيم الخليل كان شاكاً في قدرة الله على إحياء الموتى.. وهذا الفهم غير سليم. فمعاذ الله أن يشك إبراهيم في ربه أو في قدرة الله تعالى، وهو أبو الأنبياء الذي وضع أسس التوحيد، وبنى أول بيت لعبادة الواحد القيوم.. فإبراهيم عليه السلام إنما سأل عن الكيفية ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ولم يسأل عن الماهية فلم يقل: هل تقدر يا رب أن تحيي الموتى؟ والسؤال عن الكيفية إنما هو بقصد الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٓهية.

يقول الشيخ (أحمد المنير) في تعليقه على تفسير الكشاف ما نصه:

(أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الموتَىٰ﴾؟ فليس عن شك ـ والعياذ بالله ـ في قدرة الله على الإحياء.. ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء. ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها. فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه.. ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال، أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه يسأل عن كيفية حكمه لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية.. وقد قطع النبيّ عليه الصلاة والسلام دابر الوهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم(٣) أي ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى.. وأراد بقوله (أولم تؤمن؟) أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة

---

(١) ﴿فصُرْهنَّ إليكَ﴾: أي أضممهن إليك.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

(٣) الحديث أخرجه البخاري ٢٩٤/٦ فتح الباري، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١١٥ في التفسير، وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في شرح الحديث.

Marfat.com

الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك)[1].

ويقول (سيد قطب) عليه رحمة الله في تفسيره الظلال عند هذه الآية الكريمة: ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى..﴾؟ الآية، ما نصُّه:

(إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلٓهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأوّاه، الحليم، المؤمن، الراضي، الخاشع، العابد، القريب، الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عمَّا يختلج أحياناً من الشوق، والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلٓهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلٓهي، في أثناء وقوعه العملي.. ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان!.)[2].

ما هي الكذبات الثلاث؟:

أما ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى (عدم العصمة) بحق إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله عليه السلام:

«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله، قوله ﴿إني سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾.. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على

---

(١) تفسير الكشاف ١/٣٠٨.
(٢) في ظلال القرآن ٣/٤٥.

Marfat.com

جبَّار من الجبابرة، فقيل له: إن هـهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي.. فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتي بها، وقام إبراهيم يصلي، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك.. فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مَهْيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدمني هاجر.. قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء» رواه البخاري ومسلم.

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب: إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة وهي ليست بكذب في الحقيقة والواقع. فقول إبراهيم لقومه: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ إنما هو نوع من التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المعبودة فأراد بقوله: ﴿إني سقيم﴾ المعنى المجازي: أي إني سقيم من عبادتكم لهذه الأصنام، التي لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً.. وكما يكون الإنسان سقيم الجسم يكون سقيم النفس وخاصة إذا رأى قومه في الجهالة والضلالة يتيهون، ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا في ضلالتهم يعمهون!.

وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ لم يكن في الحقيقة كذباً وإنما هو نوع من الحجة الدامغة، والبرهان الساطع أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه فحين سألوه: من حطم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنم الأكبر، سخرية وتهكماً بهم وبهذه

Marfat.com

الأصنام، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾؟.

وأما قوله لزوجته سارة: (إنك أختي) فإنما قصد به أخوة العقيدة وأخوة الإيمان كما قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ولم يقصد به أخوة النسب لأنها زوجته وليست أخته. وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذي يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله، وقد روي: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1] أي أن في التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع في الكذب المحرم. فليس إذاً في كلام إبراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذي يخل بعصمة الأنبياء وإنما هو نوع من التعريض المباح. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ترجمة ٥٧/٨ بابٌ المعاريضُ مندوحةٌ عن الكذب.

Marfat.com

عصمة يوسف الصّدّيق عليه السلام

ـ ٦ ـ

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام، التي قصها علينا القرآن الكريم، صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته، مع ما أعطاه الله عز وجل من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد، وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهُوْجُ، والمكائد المدبرة، التي اصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قص علينا القرآن الكريم طرفاً منها كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(١).

افتراء وبهتان:

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البسطاء السُذّج، ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم، قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٣٠ ـ ٣١).

Marfat.com

أو تذكر في كتب التفسير، وقد نبه عليها العلماء الأثبات، والحفاظ الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة، وتتنافى مع (عصمة الأنبياء) الأطهار.

من هذه الروايات الباطلة المفتراة على الصديق يوسف عليه السلام، أنه حين راودته امرأة العزيز عن نفسها، وطلبت منه أن يواقعها، استجاب لها واستكان، وحاول أن يرتكب معها الفاحشة وأنه عليه السلام حلَّ سراويله وقعد بين شعبها الأربع، وهمَّ أن يواقعها وهي مستلقية على قفاها، ولكنه سمع صوتاً يناديه، وتصور له والده «يعقوب» عليه السلام وهو عاض على أصابعه.. تصور له على جدار الغرفة، فخجل واستحيا وترك ما كان قد همَّ عليه من فعل الفاحشة بزوجة عزيز مصر. وقد نسي هؤلاء الزاعمون أن «يوسف الصديق» نبي مكرم، وأن الله قد حفظه وصانه من رجس المعاصي والفواحش، وأي منكر أعظم، وأية فاحشة أكبر من ارتكاب الزنى، ثم خيانة سيده الذي تعهده ورباه، وأحسن نُزُله ومثواه؟!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا...﴾[1] الآية.

ولم يَنْسَ يوسف الصدِّيق هذه المعاملة الحسنة من سيده، بل ذكر امرأة العزيز حين راودته عن نفسها بهذا الجميل والإحسان الذي فعله معه سيده وأسداه إليه، فكيف يخونه في شرفه وعرضه؟

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

إن الزنى جريمة من أبشع الجرائم، حرَّمتْها الأديانُ السماوية، فكيف يرتكبها نبي من أنبياء الله؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!!.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢١).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٣). ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أحسنَ مَثْواي﴾ أي إن زوجك هو سيدي ومالك أمري، أحسنَ إقامتي وضيافتي، فكيف أخونه في أهله؟

Marfat.com

والـذي جعل هؤلاء يخبـطون خبط عشـواء، في قبـول أمثـال هـذه الأبـاطيـل والأكـاذيب، المنقولـة عن الإسرائيليـات، هو النصُّ القـرآني الكـريم، الـذي جـاء في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام، والذي فهمه هؤلاء البسـطاء فهماً خـاطئاً، لا يتفق مـع عصمة الأنبياء، ولا ينسجم مـع النصوص القرآنية الأخرى.

ذلك النص هو قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ . . . ﴾[1] الآية.

فقـد فسروا الهمَّ من يـوسف على أنه مـطاوعة منـه لامرأة العـزيز، وعـزمٌعلى قربانها. وفسروا البرهان على أنـه الصورة التي ظهـر بها والـده يعقوب عليـه السلام وهو يعض على أنامله حتى ترك يوسف ذلك العمل القبيـح.

وهذا التأويل باطل لا يجوز بحال من الأحوال، للوجـوه الآتية التي سنـذكرهـا فيما بعد إن شاء الله.. وقد نبـه كثير من المفسـرين إلى أمثال هـذه الإسرائيليـات، وبينوا بطلانهـا لئلا ينخـدع بعض المسلمين بها فيـظنوا أنهـا أخبار حقيقيـة موثـوقة، يقول العلامة الشيـخ عبد الله بن أحمد النسفي في تفسيره:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ الطباع مـع الامتناع، ولو كان همُّه كهمِّهـا، لما مَـدَحه الله تعـالى بأنـه من عباده المخلصين، وفيـه إشعار بـالفـرق بين الهمَّين، وما قيل: إنه قعد بين شعبها الأربع، وهي مستلقية على قفاها.. وفسروا «البرهان» بأنه سمـع صوتـاً يناديـه: إيَّاك وإيَّـاها مـرتين، ثم سمع في الثـالثة: أعـرض عنها، فلم ينجـع فيـه (أي لم ينفـع فيـه ذلـك النـداء) حتى مثـل لـه يعقـوب عـاضّـاً على أنملته... إلـخ، قال الشيـخ: فهذا باطل ويدلُّ على بـطلانه قـوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولو كان ذلك منه لمـا برَّأ نفسـه من ذلك، وقـوله ﴿ذلـك ليعلم أني لم أخُنْـهُ بالغيبِ﴾ ولـو كان ذلـك لخانـه بالغيب، وقـوله ﴿كـذلك لنصـرف عنه السـوء والفحشاء﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه إلـخ.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٤).

Marfat.com

أقول: إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق، ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم، دقيق البصر، ذلك أن الهمَّ الذي وقع من امرأة العزيز كان همَّ سوء، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة، ومن أجل ذلك راودته عن نفسه بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب وحاصرته في الدار كما قال تعالى:

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق فلم يكن همَّ سوء، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة، وما خطر بباله عليه السلام شيء مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادة السوء أو عمل الفاحشة.. وإنما كان همُّه أن يدفع العدوان عنه، أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سيدته امرأة العزيز.. ولهذا نجد الصلابة في موقفه، والمقاومة العنيفة في حديثه ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

فالهمُّ منها غير الهمّ منه، همّت به طلباً، وهمَّ بها دفعاً كما يقول بعض المفسرين.

أو نقول: إن الهم منها وقع فعلاً، وأمَّا همَّ يوسف فكان بالطبع، أي إنَّه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفة السوء، والإنسان غير مؤاخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشيء.. وهذا ما فسره به (النسفي) رحمه الله حيث قال: ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ همَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الامتناع.

ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى: ﴿لَوْلَا أَنْ

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٣).

Marfat.com

رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِۦ﴾ المعنى لولا برهان الله، أي: عصمته ليوسف لهمَّ بها، ولكن عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم.

وهناك أقوال أخرى للمفسرين تبرىء ساحته عليه السلام مما نسبه إليه أهل الكتاب وقبِله بعض البسطاء من المسلمين من الإسرائيليات المكذوبة.

الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

وهناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.. ونحن نوجزها فيما يلي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

الوجه الثاني: فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق، وأرادته ليُمتع نفسها بالغصْبِ والإكراه، ولو كان يوسف قد همَّ بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم ولا يفر قال تعالى:

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ...﴾(٢) الآية.

الوجه الثالث: شهادة بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالب لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف، قال تعالى:

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٣).

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٥).

Marfat.com

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(١) .

وقيل: إن الذي شهد هو طفل كان في المهد أنطقه الله بهذه الحجة الدامغة لتظهر براءة يوسف عليه السلام، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد، ولا عجب فالله على كل شيء قدير.

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢) .

وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام، إذ كيف يُعقل أن يفضِّل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها، وطاوعها على نفسها، لما لبث في السجن بضع سنين، بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به. فدعوى هَمِّ يوسف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهر البطلان، يدرك ذلك كل منصف درس تاريخ هذا النبي الكريم، وفهم معاني القرآن العظيم.

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٣) .

وقال تعالى في صدر هذه القصة:

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٦).
(٢) سورة يوسف: الآية (٣٣).
(٣) سورة يوسف: الآية (٢٤).

Marfat.com

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ . . .﴾(١).

فقد أخبر الله تعالى عنه بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تبارك وتعالى إلاّ على من صفت نفسه، وطهرت سريرته من كل نية سيئة، وكل عمل قبيح، فكان من الأطهار المقربين؟ وقد شهد رسول الله ﷺ له أيضاً بالصلاح والتقى، وبالطهارة والاستقامة فقال صلوات الله عليه: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابنِ الكريم، ابنِ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ، بنِ إسحٰقَ، بنِ إبراهيم»(٢).

وكفى بذلك شرفاً وفضلاً!!

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ . . .﴾(٣) الآية.

فهذه شهادة صريحة واضحة على عفة يوسف وبراءته صدرت من نفس امرأة العزيز، التي اتهمته أمام زوجها بعمل الفاحشة، ولفظ (استعصم) يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهذا بيان جلي على أن يوسف عليه السلام بريء مما فسر به بعض الناس (الهمَّ والبرهان) كما أسلفنا بطلانه فيما سبق.

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٢٢ ــ ٢٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء والتفسير ٣٦١/٨ من فتح الباري؛ وأحمد في المسند ٩٦/٢؛ والترمذي في التفسير أيضاً.

(٣) سورة يوسف: الآية (٣١).

Marfat.com

الوجه السابع : ظهور أمارات البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة أمام جميع الشاهدين، ومع ذلك فقد أقدم عزيز مصر على سجنه إيهاماً للناس وستراً على زوجته قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[1].

قال العلامة النسفي في تفسيره:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم والضمير يعود للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي الشواهد على براءة يوسف كقدِّ القميص، وقطع الأيدي، وشهادة الصبي، وغير ذلك ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ لإبداء عذر الحال.. وإرخاء الستر على القيل والقال، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطاوعاً لها، وجَمَلاً ذلولاً زمامُه في يدها، ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه[2].

الوجه الثامن : استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٤﴾[3].

الوجه التاسع : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته، وعفته، ونزاهته، ولولا ذلك لما فضَّل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبع أو تسع سنوات ولاقى فيه

---

(١) سورة يوسف: الآية (٣٥).

(٢) تفسير النسفي ٢/٢٢١.

(٣) سورة يوسف: الآية (٣٤).

Marfat.com

الشدائد، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهمة الشنيعة:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(١).

الوجه العاشر: وأخيراً الاعتراف الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في براءة يوسف ونزاهته وعصمته مما نسب إليه وذلك حين جمع العزيز النسوة وسألهن عن يوسف الصديق فأجبنه بجواب صريح قاطع:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾(٢).

هذه عشرة وجوه في عصمة الصديق يوسف عليه السلام وبراءته مما نُسب إليه من الزور والبهتان، اقتبستها من القرآن الكريم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

— ٧ —

ما ورد بشأن نوح عليه السلام:

ومن هذه النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣).

(١) سورة يوسف: الآية (٥٠).

(٢) سورة يوسف: الآيتان (٥١ ــ ٥٢).

(٣) سورة هود: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦).

Marfat.com

فنوح عليه السلام إنما سأل ربه أن ينجي ولده، لأن الله عز وجل قد وعده بإنجاء أهله وإهلاك الظالمين، وولده من أهله، وكان ابنه قد وعده بالإيمان، فطلب من الله أن ينجيه من الغرق اعتقاداً منه بأن ولده على دينه، ولم يعلم بحقيقة كفره إلا بعد أن أظهر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إنه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، لأنه غير مؤمن، وقد وعدتك بإنجاء المؤمنين، عند ذلك تبرأ نوح من ولده.

ثم إن نوحاً عليه السلام لم يرتكب هنا معصية أو إثماً، وإنما دعا الله أن ينجي ولده، وأخذته الشفقة والعاطفة الأبوية، بكونه بشراً وأباً رحيماً فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان، لينجو من الغرق، فأخبره الله تعالى بأنه قد سبقت له الشقاوة وأنه من الهالكين.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة:

«وقد كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه، لأنه كان ينافق، وإلاَّ لا يحتمل أن يقول: ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(١).

فكان نوح يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون لنبينا عليه السلام الموافقة، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه، وقوله: ﴿ليس من أهلك﴾ أي: من الذين وعدتك النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والعلن(٢).

---

(١) سورة هود: االآية (٣٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي ٢/١٩٢.

Marfat.com

— ٨ —

ما ورد بشأن يونس عليه السلام:

ومن النصوص الكريمة قول الله تعالى في قصة يونس عليه السلام:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

فإن ظاهر هذه الآية قد يوهم أن (يونس) عليه السلام قد فعل ما أغضب الله عز وجل، وأنه شك في قدرة الله على الانتقام منه، وهذا فهم خاطىء وتفسير للآية الكريمة على غير معناها الصحيح، وقد وقع في هذا الوهم بعض الجهلاء، فظنوا أن (يونس) عليه السلام قد وقع في المعصية، وخالف أمر الله فذهب مغاضباً لربه، فابتلعه الحوت بسبب هذا الذنب.

والصحيح الذي ذكره المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة أن (يونس) عليه السلام كان قد أنذر قومه، وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فتمادوا في ضلالهم وكفرهم فأوعدهم بالعذاب العاجل، فلما تأخر عنهم العذاب، خرج كالمستور منهم ليتوارى عن أنظارهم، خشية أن يهزءوا منه ويسخروا، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل، فخرج مغاضباً لقومه، لا مغاضباً لربه ــ وحاشاه ــ عليه أفضل الصلاة والسلام أن يغضب ربه، أو يعصي له أمراً. قال الشيخ أبو البركات عبد الله النسفي في تفسيره:

قوله تعالى: ﴿وذا النون إذْ ذهب مغاضباً..﴾ الآية المعنى: آذكر صاحب الحوت، والنون الحوت فأضيف إليه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي: مراغماً لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته، لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها.. روى أنه بَرِم[٢] بهم لطول ما ذكرهم، فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٨٧ ــ ٨٨).

(٢) برم بهم: أي ضاق ذرعاً بتكذيبهم له.

Marfat.com

ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت. .[1].

فالمغاضبة كانت لقومه لا لربه، والمعاتبة كانت لعدم الصبر، ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله تعالى، ولهذا أمر الله رسوله الكريم، أن يصبر على تكذيب المشركين، وألّا يكون ضيق الصدر، قليل الصبر كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه، حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز من قائل:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ جواب «لولا» ومعلوم أن «لولا» في اللغة العربية هي حرف امتناع لوجود أي أنها تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط. . ومعنى الآية الكريمة: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره لنبذ من بطن الحوت (بالعراء) أي بالفضاء وهو (مذموم) أي معاتب بزلته، لكنه رحم فنبذ غير مذموم.

وأما قوله تعالى في الآية السابقة:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[3].

فهي من القَدْرِ[4] لا من القدرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روي أنه دخل يوماً على معاوية، فقال له معاوية: لقد ضربتني أمواج البحر البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك، فقال ابن عباس وما هي يا معاوية؟

---

(١) تفسير النسفي الجزء الثالث ص ٨٧.

(٢) سورة القلم: الآيات (٤٨ ــ ٥٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية ؛٨٧).

(٤) القَدْر: بمعنى التشديد والتضييق كقوله سبحانه ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه﴾ أي ضُيِّق عليه.

Marfat.com

فقرأ الآية ثم قال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ربه؟ فقال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة، والمعنى: فظن أن لن نضيق عليه بسبب خروجه بغير إذننا قال تعالى: ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقه﴾ أي: ضيق، وقال تعالى:

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾(١).

أي: ضيق عليه رزقه، فزال بذلك الإشكال، والله أعلم.

* * *

(١) سورة الفجر: الآية (١٦).

Marfat.com

عصمة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم

ـ ٩ ـ

والرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ كبقية الرسل الكرام ـ معصوم من الذنوب والآثام، محفوظ بعناية الله عز وجل، محاط برعايته، فلا يمكن أن تقع منه مخالفة لأمر الله، أو يرتكب ذنباً يستحق عليه العقوبة.

ولكنه ﷺ قد يجتهد فيفعل خلاف الأفضل والأحسن فيعاتبه ربه.. وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل وإن كان بالنسبة لمقام الأنبياء يعتبر فعل خلاف الأفضل خطأ يستحق عليه المؤاخذة والعتاب على حد قول بعضهم: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وسنعرض إلى بعض نصوص كريمة ورد فيها العتاب لرسول الله ﷺ ونبين فيها وجه الحق وما ورد فيها من العتاب، كما نعرض لنصوص أخرى ظاهرها يفيد وقوع الرسول في المخالفة والمعصية ونوضح معناها على ضوء أقوال أئمة التفسير، وضوء الكتاب والسنة، فنقول ومن الله نستمد العون:

ـ ١٠ ـ

النص الأول: قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ ـ ٦٨).

Marfat.com

النص الثاني: قال تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] .

النص الثالث: قال تعالى :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾[2] .

النص الرابع: قال تعالى :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[3] .

النص الخامس: قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[4] .

النص السادس: قوله تعالى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة التوبة : الآية (٤٣) .

(٢) سورة عبس : الآيات (١ ــ ٤) .

(٣) سورة الإسراء : الآيات (٧٣ ــ ٧٥) .

(٤) سورة الأحزاب : الآيتان (١ ــ ٢) .

(٥) سورة يونس : الآية (٩٤) .

Marfat.com

النص السابع : قوله تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١] .

النص الثامن : قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] .

النص التاسع : قوله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[٣] .

النص العاشر : قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[٤] .

العتاب في أسرى بدر :

أما الآية الأولى التي فيها عتاب للرسول ﷺ، والتي توهم أن الرسول الكريم قد خالف أمر الله ، وأنه فعل ما لم يرض به الله ، فهي قوله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : الآية (٣٥) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٥٢) .

(٣) سورة الفتح : الآيتان (١ ـ ٢) .

(٤) سورة الأحزاب : الآية (٣٧) .

Marfat.com

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

ولعل بعض البسطاء يظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ارتكب ذنباً، أو فعل جرماً، أو عصى أمراً لرب العالمين، حتى نزل هذا العتاب الشديد مع أن الأمر ليس كما يظنون، وإنما غايته أن الرسول ﷺ قد استشار بعض الصحابة في (أسرى بدر) ثم اجتهد فحكم بترجيح رأي الأكثرين، فقبل الفداء من الأسرى، وكان هذا الاجتهاد منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن والأولى، لأن مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام كانت تقتضي ألا يقبل عليه الصلاة والسلام منهم الفداء، بل يسفك ويريق منهم الدماء، لتضعف شوكة الكفر، وتهن عزيمة المشركين، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين لا سيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين.

ونذكر هنا بعض الروايات لأصحاب التفسير بالمأثور حول نزول هذه الآية الكريمة:

١ ــ روى الترمذي والحاكم والبيهقي، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال:

(لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك، وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرموه عليهم ناراً.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان (٦٧ ــ ٦٨).

Marfat.com

فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك.

فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، وقال أناس يأخذ برأي عمر رضي الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن.. وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة.

مَثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ قال:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديّاراً﴾ ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[3].

ثم قال عليه السلام: «أنتم عالةً فلا ينفلتنّ أحد منكم إلاّ بفداء أو ضرب عنق فقال عبد الله: يا رسول الله إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء.. فأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ...﴾[4] الآية.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٣) سورة يونس: الآية (٨٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٧).

Marfat.com

وَرَوَىٰ أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(لمَّا أسروا الأسرى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ فقال: لا والله يا رسول الله لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل (أي أخيه) فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان ــ قريب لعمر ــ فأضرب عنقه، وتمكِّنَ فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهويَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلمَّا كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. . قلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟! فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة ــ لشجرة قريبة منه ــ وأنزل الله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ . . ﴾(١) الآية).

فقد دل هذا الحديث الشريف على أن الذين أشاروا على الرسول ﷺ بأخذ الفداء كثيرون وإنما ذكر في أكثر الروايات (أبو بكر) رضي الله عنه لأنه أول من أشار بذلك فقد استشاره ﷺ أول ما استشار أصحابه، كما أنه أكبرهم مقاماً وأحبهم إلى رسول الله ﷺ.

فهذا العتاب الشديد من الله عز وجل لنبيه ولأصحابه الأبرار، كان بقصد التعليم والتنبيه إلى الأخذ بالأكمل والأفضل والتريث في مثل هذه الأمور الدقيقة،

---

(١) انظر صحيح الإمام مسلم ١٣٨٥/٣.

Marfat.com

فالله عز وجل يريد عزة الإسلام ورفعة شأنه.. وقد قال (ابن عباس) رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ قال: ذلك إنما كان يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا، واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فإما منًّا بعد وإما فداءً﴾ فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسرى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم (أي أطلقوا سراحهم مقابل الفداء). وقد أشارت الآية الكريمة إلى أن هذا الأمر لما كان عن اجتهاد ومشاورة من الرسول ﷺ لأصحابه وأن الله عز وجل سبقت حكمته الأزلية ألا يؤاخذ المؤمنين على ما وقع منهم خطأً بطريق الاجتهاد، لذلك أعقبها تعالى بقوله:

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

العتاب في الإذن للمنافقين:

أما الآية الكريمة الثانية وهي قوله تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام، وغاية ما في الأمر أن الله عز وجل عاتبه لكونه أذن لبعض المنافقين في ترك الخروج للجهاد، لما اعتذروا إليه من عدم الاستطاعة، فنزل العتاب من الله عز وجل له.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يعيّره بالذنب.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

(٢) سورة التوبة: الآية (٤٣).

Marfat.com

وقال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما، إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

ويرى بعض المفسرين أن الآية الكريمة لا تشير حتى للعتاب فضلاً عن وقوع الذنب، وذلك أن الله عز وجل وقّره، ورفع منزلته بافتتاح الكلام بالدعاء له كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريما عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألَا زُرتَني؟ وهذا ما ذهب إليه الإمام الرازي والبغوي وغيرهما.

وقد أساء (الزمخشري) الأدب في تفسيره عند قول الله تعالى لنبيه: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم. . . ؟﴾ الآية، حيث قال ما نصه:

(﴿عفا الله عنك﴾ كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها معناه: أخطأت وبئس ما فعلت و ﴿لم أذنت لهم﴾؟ بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإذن ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه).

وقد ذكر صاحب (تفسير المنار) كلاماً لطيفاً في منتهى الإبداع والإتقان ننقل طرفاً منه حيث قال رحمه الله:

(هذا وإن بعض المفسرين ـ ولا سيما الزمخشري ـ قد أساءوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية، وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه، إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب، وهو منتهى التكريم واللطف، وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر، فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب، وغايته أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى. . . ثم قال: والذنب في اللغة ليس مرادفاً للمعصية وإنما هو كل عمل يستتبع ضرراً، أو فوت مصلحة أو منفعة، مأخوذ من ذنب الدابة، وإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تَبيُّنِ الصادقين، والعلم بالكاذبين.

Marfat.com

وقد كان الإذن المعاتَب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل، وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، وقالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه، وغاية ما فيه هنا أنه مخالف لما يقتضيه الحزم، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير، برسوله البشير النذير، أن أخبره بالعفو عنه، قبل بيانه له. . .)[1].

النص الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

فقد تمسك بظاهر هذه الآية من زعم أن المعصية تقع من الأنبياء، وأنّ العصمة غير واجبة لهم، وهذا خطأ في الفهم، وعدم إدراك للمعنى الصحيح ومن سبب نزول الآية يتّضح أن الرسول ﷺ لم يرتكب معصية وإنما خالف الأَوْلى فنبّهه الله تعالى إلى الأكمل والأفضل.

روى ابن جرير: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: «عبد الله بن أم مكتوم» يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه رسول الله، وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين فأنزل الله: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى. . .﴾ الآيات، فلمّا نزل فيه ما نزل كرّمه رسول الله وكلّمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٠/٥٤١.

Marfat.com

قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن جرير: والتعرض بذكر عماه، لزيادة الإنكار كأنه قيل تولّى لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيده تعطّفاً وترؤفاً، وتقريباً وترحيباً)(١).

فأنت ترى من سبب النزول أن الرسول ﷺ كان مشغولاً مع رؤساء قريش، وكان يحرِصُ على دعوتهم، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان ﷺ مشغولاً فيه فترك إجابته لما هو ــ في نظره ــ أهمّ وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن.

قال الرازي: (القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء تمسّكوا بهذه الآية وقالوا: لمّا عاتبه الله في ذلك الفعل دلّ على أن ذلك الفعل كان معصية، وهذا بعيد، فإنّا قد بينا أنّ ذلك كان هو الواجب المتعيّن، إلاّ بحسب هذا الاعتبار الواحد وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول، وإذا كان كذلك كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل فلم يكن ذلك ذنباً البتّة)(٢).

وأجاب ابن حزم بقوله: وأمّا قوله: ﴿عبس وتولى. . .﴾ الآيات، فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه بعض عظماء قريش، ورجا إسلامهم، وعلم أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثيرون وأظهر الدين، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه، فاشتغل عنه ــ عليه السلام ــ بما خاف فوته من عظيم الخير، عمّا لا يخاف فوته، وهذا غاية في النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى الله، الذي لو فعله اليوم منّا فاعل لأجر، فعاتبه الله تعالى إذ كان الأولى عند الله أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البرّ التقي، ويترك أولئك المعاندين).

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٥١/٣٠.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٥٥/٣١.

Marfat.com

النص الرابع: وهو قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا . . .﴾[1] الآيات.

فهذه الآيات الكريمة يدل ظاهرها على أن الرسول ﷺ قارب مسايرة المشركين والركون إليهم، وهذا ذنب عظيم وخاصة في أمر تبليغ الوحي، وهذا الأمر غير وارد أصلاً، فقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قبيلة (ثقيف) وكانت تسكن الطائف قالوا للنبي ﷺ: لا ندخل في دينك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، فلا يكون علينا زكاة ولا جهاد ولا صلاة، وأن كل ربا علينا فهو موضوع وكل ربا لنا فهو محفوظ لنا، فإن قالت العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني.. وطمع القوم أن يعطيهم الرسول ما طلبوا فأنزل الله هذه الآية: ﴿وإن كادوا لَيَفْتِنونَك. . .﴾ الآية، فأنت ترى أن الرسول ﷺ لم يُجبهم وإنما عرضوا عليه عروضاً وطمعوا في أن يوافقهم الرسول على ذلك، وحاشاه ﷺ عن أن يستجيب لدعوتهم الباطلة، وأن يسايرهم على أهوائهم الفاسدة.

قال (ابن كثير) رحمه الله: (يخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومُظْهِر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها.

النص الخامس: وهو قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٧٣ ــ ٧٤).
(٢) سورة الأحزاب: الآيتان (١ ــ ٢).

Marfat.com

فإن هذا النص الكريم ليس فيه ما يدل على وقوع الذنب من الرسول ﷺ وإنما هو خطاب للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صورة الخطاب له ﷺ والمراد به أمته كما يقول الملك لقائد جيشه: لا تتسامح مع العدو، وقاتلهم حتى يخضعوا لحكمك وينقادوا لأمرك، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا تظهر أمام عدوك الخوف والفزع. . إلى آخر ما يأمر به فهو يخاطب القائد والمراد به الجند، وينبّه الزعيم والمراد به الأمة. والدليل أن المقصود بالخطاب هو الأمة لا شخص الرسول أن الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصيغة الجمع: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ولم يقل: بما تعمل، فهو مثل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] الآية.

فهي خطاب للأمة في شخص الرسول ﷺ وإذا حملنا الخطاب على الرسول ﷺ فليس فيه ما يدل على أن الرسول همّ بطاعة الكافرين والمنافقين، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى حذّره من مكر الكافرين، وخداع المنافقين، وأطلعه على خبيئة نفوسهم ليكون الرسول منهم على حذر، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم، وقد رُوي أنّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي ﷺ في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، فقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندعك وربَّك فشقّ ذلك على النبي وعلى المؤمنين، وهمَّ عمر ــ وكان حاضراً ــ بقتلهم فنزلت الآية[2].

وروي أن أهل مكة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة فأنزل الله ﴿يا أيها النبي اتق الله. . .﴾ الآية.

---

(١) سورة الطلاق: الآية (١).

(٢) ذكره في اللباب، وانظر: إرشاد العقل السليم تفسير أبي السعود ٧/٨٩.

Marfat.com

النص السادس: وهو قوله تعالى:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(١).

فهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على شكّ الرسول ﷺ في الوحي الذي نزل عليه، وإنما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادة العرب في تقدير الشكّ ليبنى عليه ما ينفي احتمال وقوعه كما تقول لابنك (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إن وقع منك يا محمد شكّ ــ فرضاً وتقديراً ــ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك، فإنهم على علمٍ من ذلك، فالغرض وصف الأحبار بالعلم، لا وصف النبي ﷺ بالشك والريب، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا والله ما شكّ رسول الله طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم» وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول الكريم: «لا أشك ولا أسأل»(٢).

جاء في محاسن التأويل ما نصّه:

«لا يُفهم من هذه الآية ثبوت شكٍ له صلوات الله عليه، فإنّ صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها كقولك: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين.. والسرّ في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها لتزداد قوة اليقين، وطمأنينة القلب، وسكون الصدر، أو السرّ هو الاستدلال على تحقيق ما قصّ، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم، وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلوات الله عليه تعريضاً بالمشركين.. وقيل: الخطاب له ﷺ والمراد غيره على حدّ قولهم: (إياك أعني واسمعي يا جارة) والمعنى إن كنت

---

(١) سورة يونس: الآية (٩٤).

(٢) جامع البيان للطبري ١١/١٦٨.

Marfat.com

أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك . . . ويؤيده: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني . . . ﴾[1].

النص السابع: قوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2].

فهذه الآية ليس فيها ما يدل على أن الرسول ﷺ اقترف ذنباً حتى عاتبه الله تعالى بهذا العتاب، وإنما غاية ما في الأمر أن الله تعالى أراد أن يخفّف عن رسوله عناء تكذيب المشركين له، وأن يطلعه على حقيقة نفوسهم، فلو جاءهم محمد رسول الله بكل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن لدعائك إلاّ من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول)[3] ولهذا قال الله تعالى عقب هذه الآية:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾[4].

والمراد بالموتى: الكفّار الذين لا يؤمنون ولا يستجيبون لدعوة الحق.

ففي هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه، بحيث لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقةً عليهم صلوات الله وسلامه عليه وصدق الله حيث يقول:

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٣٩٦/٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٥).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٤١/٢.
(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٦).

Marfat.com

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

النص الثامن: قوله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

ففي هذه الآية تحذير له ﷺ من إجابة كفار قريش في طرد المؤمنين المستضعفين، وليس فيها ما يدل على أنه طردهم فعلاً، وإنما هو عرض عرضه المشركون على رسول الله فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله، روى ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب، وبلال، وعمّار، وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلّك إن طردتهم نتبعك فنزلت هذه الآية:

﴿ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربهم بالغداةِ والعشي﴾[3].

إذا علمتَ ذلك تبيّن لك أن الرسول ﷺ لم يطرد هؤلاء الضعفاء، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه حين قدوم أولئك المشركين، ليتألف قلوبهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان، فنهاه الله تعالى عن تنفيذ ذلك الهمّ وأمره أن يجعل هؤلاء الفقراء المستضعفين جلساءه وأخصاءه كما قال تعالى في سورة الكهف:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٨).
(٢) سورة الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي صفحة ٢٣٢٣.

Marfat.com

عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[1].

النص التاسع: قوله تعالى:

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ۝١ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . . . ﴾[2] الآية.

قال الحافظ ابن كثير: المراد بقوله تعالى: ﴿إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ هو صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض وتكلّم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان).

وقال (ابن القيم): (كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناسُ به، وكلَّم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشرٌ كثير في الإسلام، ولهذا سمّاه الله فتحاً)[3].

وأمّا الذنب المذكور في الآية فالمراد منه ترك الأفضل والأَوْلى قال أبو السعود: قوله تعالى: ﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخّر﴾ في جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ. وجاء في التفسير الواضح: والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ ــ وهو المعصوم عن معصية ربه ــ من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه فهو من قبيل «حسنات الأبرار سيئاتُ المقرّبين» وقيل: المراد ما هو ذنب في نظره العالي، وإن لم يكن في الواقع كذلك، ولعلّ الإضافة في قوله (ذنبك) تشير إلى هذا المعنى[4].

---

(١) سورة الكهف: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفتح: الآيتان (١ ــ٢).

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم في الكلام على غزوة الحديبية.

(٤) انظر: التفسير الواضح للحجازي ٢٦/ ٣٩.

Marfat.com

النص العاشر: قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . . ﴾[1] الآية.

وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض أن يثيروا بعض الشبهات حول زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها التي كانت عند مولاه ومتبنّاه (زيد بن حارثة) وأن يقيموا زوبعة من الزوابع الهوج حول (عصمته) ﷺ، فقد زعموا أن محمداً رأى زينب فأحبها ثم كتم هذا الحب، ثم بعد ذلك أظهره، ورغب في زينب فطلّقها زوجها زيد وتزوجها رسول الله، وزعموا أن العتاب في الآية كان لكتمان حب الرسول لزينب.

وافتروا بعض الفرى الأثيمة فزعموا أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال: سبحان مقلّب القلوب! فسمعت زينب التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقّها حتى يتزوج بها الرسول. إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة التي تلقفها (المستشرقون) ومن على شاكلتهم من المسلمين المزيفين، وخبّوا فيها ووضعوا، وأباحوا لأنفسهم الخوض في الأعراض، والتكلم في حق النبي الكريم، وتصويره بصورة يترفع عنها كثير من الناس، وكان سندهم في ذلك بعض الروايات الإسرائيلية التي دُسّت في كتب التفسير، وهي روايات باطلة لم يصحّ فيها شيء كما قال (أبو بكر بن العربي) رحمه الله.

وتفصيل الموضوع كما رواه ابن أبي حاتم من طريق السُّدي، قال: (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة رسول الله، وكان رسول الله قد أراد أن يزوجها «زيد بن حارثة» مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله فزوجها إياه، ثمّ أعلم الله عزّ وجل نبيّه ﷺ بعد

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٧).

Marfat.com

أنها من أزواجه، فكان يستحيي أن يأمره بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوّج امرأة ابنه[1]، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

وروي عن (علي بن الحسين) أنه قال: أعلمَ اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ أنّ زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، عاتبه الله وقال له: أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه[3].

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو (الحب) كما زعم المفترون، وإنما أخفى ما أوحى الله إليه من أمر (الزواج) بها لحكمة عظيمة وهي إبطال (حكم التبني) وقد خشي الرسول من كلام المنافقين أن يقولوا: إن محمداً تزوج بامرأة ابنه من التبني حيث كان (زيد) رضي الله عنه يدعى (زيد بن محمد).

يقول الشيخ الحجازي في التفسير الواضح:

«ومن المؤسف أن يندسّ في كتب التفسير أقوال تنسب إلى أكابر العلماء والله يعلم أنهم منها براء، أو هي في الواقع سموم إسرائيلية، وضعها من أسلم من اليهود عن حسن قصد أو سوء نيّة، ومنها ما قيل في تفسير هذه الآيات من نسبة أمور لا تليق بأيّ رجل عادي، فضلاً عن أشرف الخلق المشهود له من كافة الناس أنه رجل صادق ذو خلق حميد.

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٢/١٣؛ ومختصر تفسير ابن كثير ٣/٩٨.
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).
(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣/٩٨.

Marfat.com

ونظرة بسيطة إلى تاريخ (زينب) وظروفها في زواج (زيد) تجعلنا نؤمن بأنّ سوء العشرة التي كانت بين زينب وزيد إنما هو من اختلافهما اختلافاً بيّناً في الحالة الاجتماعية، فزينب شريفة، وزيد كان بالأمس عبداً، وقد أراد الله امتحانها بزواج زيد لتحطيم مبدأ العصبية القبليّة، والشرف الجاهلي، وجعل الشرف في (الإسلام والتقوى) فخضعت زينب مكرهة، وأسلمت لزيد جسدها دون روحها فكان الألم والضيق.

والنبي عليه السلام كان يعرف زينب من الصغر لأنها ابنة عمته فمن كان يمنعها منه؟ وكيف يقدّم إنسان امرأة لشخص وهي (بكر) حتى إذا تزوجها وصارت (ثيباً) رغب فيها؟!.

لا يا قوم: تعقلوا ما تقولون، وتفهّموا الحق لوجه الحق، تدركوه بلا تلبيس ولا تشويش، وانظر إليهم وهم يقولون: إن الذي أخفاه محمد هو حبه لزينب ولهذا عوتب وهل يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لامرأة جاره؟!

ولكنّ الحق هو أنَّ هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها حيث أكرها على قبول زيد، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ حيث يؤمر به ويعلم نهايته، وزينب تحت مولاه زيد، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحريمها إذا كان الابن من النسب: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا. . .﴾.

فالذي كان يكتمه النبي ﷺ في نفسه تَأَذِّيه من هذا الزواج، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به، وخوفه من لغط الناس وبخاصة المنافقين عندما يجدون نظام التبني قد انهار بعدما ألفوه، ولهذا فقط عوتب عليه الصلاة والسلام[1].

---

(١) التفسير الواضح للحجازي ٢٢/١٢.

Marfat.com

أقول: إن الآية صريحة في هذا الشأن، فقد ذكرت الآية أنّ الله سيُظهر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فماذا أظهر الله تعالى؟ هل أظهر حبّ الرسول لزينب؟ كلا، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول الزواج بها لأن الله قد أوحى إليه بأنها ستكون زوجته، ولهذا صرّح الباري جل وعلا بهذا الشيء الذي أخفاه الرسول في نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾.

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة التي تدل على عصمة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

• • •

Marfat.com

الفصل الرابع

قصص الأنبياء

١- الحكمة من قصص الأنبياء .

٢- أغراض القصة في القرآن .

٣- السر في تكرار القصص في القرآن .

٤- نموذج من تكرار القصة في القرآن .

Marfat.com

قصص الأنبياء والمرسلين

تـاريـخ الأنبياء تـاريـخ العظمـة والجلال، وحيـاتهم حياة الكفـاح والنضـال، وما يستطيـع البشر ـ مهما أُوتوا من قوة ـ أن يدركوا شأنهم، أو يصلوا إلى ما وصلوا إليه من سموٍّ في النفس، وكمال في الخُلُق، وزهدٍ في الـدنيا، وتضحيـة في سبيل الله، من أجل إعلاء كلمة الله، وتبليـغ دعوته، ونشر رسـالة الحق ـ رسـالة الهـدى والخير والدين ـ إنَّ تـاريخهم سلسلة من حياة طـويلة مريـرة، وكفاح دائم مستمـر، ضدّ أعداء الحق وأعداء الله، وأعداء الإنسانية، في كل زمانٍ وحين!.

إنه تاريخ مشـرّف، مليء بأنـواع البطولات، وألـوان الصبر والشجـاعة الفـذّة التي قلّ أن نجد مثلها في تاريـخ زعيم أو عـظيم، أو قائـد أو مصلـح، لأنهم صُنِعُوا على عين الله، فقد كانت حياتهم مليئة بالجهاد ضد الباطـل، والصمود وراء الحق، والصبر عند الشدائد، وتحمل الأذى في سبيل الله، فقد منحهم الله تبارك وتعالى من العـزائم والهمم، ما يعجـز عنـه الأقـويـاء من الـرجـال، ولا تتحمله الـراسيـات من الجبال، فكانوا ـ بحقٍ ـ مفخرة الأزمان، وأهلاً لقيادة الأمم والشعوب. لقـد ضلت البشرية طـريق الخير والسعـادة، وخيّم عليها ظـلام الجهل والشقـاوة، فتداركهـا الله العلي القدير ببعثة الرسل الكرام وفي ذلك يقول تقدّست أسماؤه:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(1)!!

* * *

---

(1) سورة النساء: الآية (١٦٥).

Marfat.com

الحكمة من قصص الأنبياء

ـ ١ ـ

ليست الغاية من ذكر قصص الأنبياء إلا أن يتخذ الدعاة والمصلحون من سيرتهم العطرة نبراساً يستضيئون بضيائه، ويهتدون بهديه، وأن يسيروا على نهجهم فيجعلوهم قدوتهم في جميع التصرفات والأعمال، وأن يكون أمامهم (المثل الأعلى) من حياة هؤلاء الرسل الكرام، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. . وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن «التسلية» أو «الترفيه» عن النفس. وإنما الغرض «العظة» و «العبرة» وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١) الآية.

كما أشارت الآية إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن، بالتفكر والتدبر، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿فاقصص القَصَصَ لعلهم يتفكرون﴾. وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة فإن الغرض من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتهم على الدعوة، وتقوية عزائمهم، بإطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار وما تحملوه من أذى في سبيل الله، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد ﷺ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة يوسف: الآية (١١١).

(٢) سورة هود: الآية (١٢٠).

Marfat.com

أغراض القصة في القرآن

ـ ٢ ـ

للقرآن الكريم في ذكر القصة أغراض عديدة وجليلة نوجزها فيما يلي :

أولاً : إثبات الوحي والرسالة .

ثانياً : الإشارة إلى وحدة الأديان السماوية .

ثالثاً : بيان الغرض من دعوة الرسل .

رابعاً : موقف الأمم من الأنبياء الكرام .

خامساً : الترابط الوثيق بين الشرائع والأديان .

سادساً : النصر للرسل والهلاك للمكذبين .

سابعاً : بيان قدرة الله تعالى على الخوارق .

ثامناً : عاقبة الخير والصلاح وعاقبة الشر والفساد .

هذه أهم أغراض (القصة في القرآن) وهناك أغراض أخرى غير هذه الأغراض لا يمكن استقصاؤها . . ويجدر بنا هٰهنا أن ننقل طرفاً مما كتبه شهيد الإسلام (سيد قطب) في كتابه : التصوير الفني في القرآن ، حيث قال رحمه الله تحت عنوان (القصة في القرآن) : (سيقت القصة في القرآن ، لتحقيق أغراض دينية بحتة ، وقد تناولت هذه الأغراض عدداً وفيراً ، يصعب استقصاؤه لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية . . فإثبات الوحي ، وإثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في أساسها ، ومظاهر القدرة الإلٰهية ، وعاقبة الخير والشر ، والصبر والجزع ، والشكر

Marfat.com

والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلُقية، قد تناولته القصة وكانت أداة إليه، فإذا نحن استعرضنا أغراض القصة القرآنية فإنما نثبت أهمّ هذه الأغراض وأوضحها ونترك استقصاءها وتتبعها(١).

ولنبدأ بتفصيل ما أجملناه من أغراض القصة في القرآن:

أولاً ـ إثبات الوحي والرسالة:

لقد كان من أغراض القصة في القرآن (إثبات الوحي والرسالة) أي إن هذا الدين الذي جاء به الرسل الكرام إنما هو بوحي من الله تبارك وتعالى، وإنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز الحكيم، وخاصة بالنسبة إلى أمر محمد ﷺ فقد بيّن القرآن الكريم أن هذا القصص إنما هو بوحي الله، فمحمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

ولم ينقل عن الرسول، أنه كان يجلس إلى أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، فحين جاء بهذا القصص الرائع، عن الأنبياء قبله، وعن الأمم والخلائق، وما وقع لهم وما حل بهم، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى ـ فمجيء القصص بهذه الدقة المتناهية، وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم، أعظم دليل على أنه وحيٌ يوحى من عند الحكيم الخبير، وقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض، إشارةً واضحة جلية، في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها، مثل قوله تعالى:

---

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

Marfat.com

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(١).

وقوله تعالى :

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

ثانياً ــ الإشارة إلى وحدة الأديان السماوية :

ومن أغراض القصة بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام، إلى عهد محمد ﷺ . . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد الأحد هو رب الجميع . . فكثيراً ما وردت قصص الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة الواضحة، نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(٤).

وقوله تعالى :

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾(٥).

---

(١) سورة يوسف : الآية (٣).

(٢) سورة هود: الآية (٤٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان (٤٨ ــ ٤٩).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٥١).

(٥) سورة الأنبياء: الآية (٧٤).

Marfat.com

ثم بعد ذكر الأنبياء (نوح، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وزكريا) وبعد ذكر رسالتهم ودعوتهم تأتي تلك الحقيقة الناصعة التي أكدّها القرآن الكريم ألا وهِّي وحدة الإله، ووحدة الأمة فيقول جل ثناؤه:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(١).

وذلك هو الغرض الأصيل من الاستعراض الطويل.

ثالثاً ـ بيان الغرض من دعوة الرسل:

وكان من أغراض القصة كذلك، بيان أن الدين كله واحد الهدف والأساس وتبعاً لهذا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، يركّزون على هدف واحد، وغاية واحدة، ألا وهي الاعتقاد (بوحدانية الله) وكانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك مكررة فيها العقيدة الأساسية (الإيمان بالله الواحد) الذي هو الغرض الأساسي من دعوة الرسل على نحو ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . .﴾(٢).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . . .﴾(٣) الآية.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . .﴾(٤) الآية.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . .﴾(٥) الآية.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٥).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

Marfat.com

فهذا التوحيد لأصول العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

رابعاً ــ موقف الأمم من الأنبياء الكرام:

ومن الأغراض أيضاً في قصص القرآن الإشارة إلى موقف الأمم من الأنبياء الكرام فقد كان موقفاً متشابهاً.. فما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وقف في وجهه المجرمون موقف العناد والاستكبار، وموقف التكذيب والجحود كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(1).

فقد اتحدت في قصص الأنبياء صيغة الدعوة كما اتحدت من أقوامهم صيغة التكذيب.. استمع إلى قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(2).

وفي قصة (هود) عليه السلام يحكي القرآن لنا موقف قومه:

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ...﴾(3) الآية.

وفي قصة (صالح) مع قومه (ثمود) يقول القرآن حكاية عن قومه:

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(4).

---

(1) سورة الفرقان: الآية (31).
(2) سورة هود: الآية (32).
(3) سورة هود: الآيتان (53 ــ 54).
(4) سورة هود: الآية (62).

Marfat.com

وهكـذا بقية الأنبيـاء الكرام، نجدُ أن مـوقف أقـوامهم لا يختلف عن مـوقف الأمم السابقين، في الجحود والتكذيب، والاستهزاء بدعوة الـرسل الكـرام، وصدق الله حيث يقول:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[1].

خامساً ـ الترابط الوثيق بين الشرائع والأديان:

ومن الأغـراض في القصة القـرآنية بيـان الترابط الـوثيق بين الأديان السمـاوية فليس بينها تعارض أو تصادم، بل إنها جميعاً تستقي من نبـع واحد، وكل نبـي إنما يأتي برسالة متممّة ومكمّلة لرسالة النبـي الذي سبقه، ويدعو إلى الإيمـان برسـالته، والاعتقاد بصدق ما جاء به من عند الله تعـالى، ذلك لأنّ مصـدر التشريـع واحـد هو (الله رب العالمين) فليس هناك ما يدعو إلى النزاع والخصام كما قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ . . .﴾[2] الآية.

ثم التـرابط بوجـه خاص بين دين أبـي الأنبيـاء (إبراهيم) ودين خـاتم الرسـل (محمد) وكذلك بين دين محمد، وأديان بني إسرائيل. . . استمـع إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[3].

وإلى قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا . . .﴾[4] الآية.

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٢).

(٢) سورة الشورى: الآية (١٣).

(٣) سورة الأعلى: الآيتان (١٨ ـ ١٩).

(٤) سورة الحج: الآية (٧٨).

Marfat.com

وتمعَّنْ إلى الترابط التام، بين إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

وقد أخذ الباري جل وعلا العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه ويكونوا من أنصاره، إن أدركوا عهده وحياته، وهذا يدلّ على الترابط بين جميع الأديان السماوية، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ(2) قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾(3).

سادساً ـ النصر للرسل والهلاك للمكذبين:

ومن أغراض القصة أيضاً بيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام، وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين، وفي ذلك تقوية للأنبياء، وتطييب لخاطرهم، حيث يقرّ الله أعينهم في الدنيا بإهلاك أقوامهم المكذبين، وبانتصار مبدئهم واعتزاز دعوتهم، وتغلّبهم على أعداء الدين.

سابعاً ـ بيان قدرة الله تعالى على الخوارق:

ومن أغراض القصة في القرآن الكريم (بيان قدرة الله على الخوارق) فقد ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام، وقصة ولادة عيسى بن مريم، وذلك للدلالة على قدرة الله الباهرة التي تقول للشيء كن فيكون. فآدم عليه السلام ولد بدون أب وبدون أم، وعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب، وحواء ولدت من ضلع آدم،

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٨).

(٢) الإصر: العهد الموثق المؤكد بالقسم ونحوه، فهو أبلغ وآكد من العهد.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٨١).

Marfat.com

وكل ذلك دليل القدرة الباهرة على الخوارق العجيبة، استمع إلى قوله تعالى في شأن عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

وكذلك قصة (إبراهيم عليه السلام) والطير الذي ذبحه ثم عادت له الحياة، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وقد أماته الله مئة عام ثم أحياه، كل هذه القصص وأمثالها مما يدل على قدرة الله تعالى العجيبة في خرق العادات، وإظهار الخوارق العجيبة في هذا الكون البديع.

ثامناً ــ عاقبة الخير والصلاح، وعاقبة الشر والفساد:

ومن أغراض القصة في القرآن الكريم (بيان عاقبة الخير، وعاقبة الشر) كقصة ابنَيْ آدم (قابيل وهابيل) المذكورة في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿واتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأ ابْنَيْ آدَمَ بالحَقّ إذْ قَرّبَا قُرْباناً فَتُقبِّلَ مِنْ أَحَدِهما ولَمْ يُتَقبَّل مِنَ الآخرِ، قالَ: لأقْتُلَنّكَ، قالَ: إنما يَتقبّلُ اللّهُ مِنَ المتّقينَ﴾.

وكيف اعتدى (قابيل) على أخيه فأقدم على قتله، إلى آخر ما في القصة من مغزى دقيق حول العدل الإلهي المطلق. ومثل قصة سدّ مأرب، وقصة صاحب الجنتين، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة أهل القرية الآمنة التي كفرت بأنعم الله، وكل هذه القصص وردت لبيان عاقبة الخير، وعاقبة الشر.. إلى آخر هذه الأغراض الوعظية التي كانت تساق لها القصص بأروع أسلوب لتؤدي غايتها، وتفي بمغزاها[٢]. استمع إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٥٩).

(٢) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

(٣) سورة غافر: الآيتان (٥١ ــ ٥٢).

Marfat.com

وتدبر ذلك الجزاء العادل، الذي أخذ الله به القوم المجرمين:

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١).

* * *

(١) سورة العنكبوت: الآيتان (٣٩ ــ ٤٠).

Marfat.com

السر في تكرار القصص في القرآن

ـ ٣ ـ

قصَّ اللَّهُ علينا من قصص الأنبياء والمرسلين ما فيه عظة وذكرى، وأرشدنا إلى مواطن العظة والعبرة في حياة كل رسول، لنقتدي بهم في سيرتهم العطرة، وأخلاقهم الطاهرة، وليكونوا مصابيح تضيء للناس طرق السعادة والفلاح:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[1].

وقد ذكرت قصص الأنبياء في سور عديدة، فجاءت مكرّرة ـ حسب الظاهر ـ ولكنّ هذا التكرار له حكمته البليغة، وإشارته الدقيقة، فإنه يدل على (إعجاز القرآن الكريم) وعلى أنه حقاً كتاب منزل من عند الله.. فإنّ أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء يستحيل عليه إذا كتب قصة مرة واحدة، أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على متانة الأسلوب، وفصاحة الألفاظ، وبلاغة التعبير، ولا بدّ أن يُرى الفرق بين الأسلوبين واضحاً كل الوضوح.. أما القرآن الكريم فقد تفنّن في سَرْد القصص بنفس تلك الفصاحة والبيان، والروعة والإتقان، فجاءت القصة فيه مكرَّرة معبِّرة عن معنى واحد، ولكنْ بألفاظ أخرى وعبارات مختلفة، فسبحان القادر على كل شيء، الذي أنزل كتابه المعجز تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

---

(١) سورة يوسف: الآية (١١١).

Marfat.com

نموذج من تكرار القصة في القرآن

ـ ٤ ـ

ولنأخذ نموذجاً على تكرار القصة في القرآن الكريم (بمعنى واحد) و (أسلوب مختلف) مع بقاء الروعة في التعبير، ومتانة الأسلوب وذلك في قصة «آدم» عليه السلام فقد ذكرت قصته في مواطن شتى، وبأساليب متنوعة، نختار منها موضعين فقط لنرى الأسلوب الرائع في كلٍ من السورتين الكريمتين:

أولاً ـ قال الله تعالى في سورة «الأعراف»:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

ثانياً ـ وقال تعالى في سورة «طه»:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ

(١) سورة الأعراف: الآيات (١٩ ـ ٢٣).

Marfat.com

إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَهَدَىٰ﴾(١).

وعلى هذا النموذج من الروعة والإتقان ذكرت قصص الأنبياء وحوادث الأمم مكررة في القرآن لتدل على قدرة الإله العليّ الحكيم.

• • •

---

(١) سورة طه: الآيات (١١٦ ـ ١٢٢).

Marfat.com

الفصل الخامس

آدم عليه السلام كما صوره القرآن

١ - قصة آدم عليه الصلاة والسلام .
٢ - العبرة من خلق آدم عليه السلام .
٣ - آدم عليه السلام أول البشر .
٤ - الأدلة على أن آدم أول الخلائق من الإنس .
٥ - نظرية "دارون" وتعارضها مع القرآن والواقع .
٦ - الرد على « نظرية دارون » وإثبات بطلانها .
٧ - المراحل التي مر بها خلق آدم عليه السلام .
٨ - قصة « قابيل وهابيل » ابني آدم عليه السلام .

Marfat.com

قصة آدم عليه السلام

ــ ١ ــ

قصة آدم عليه السلام هي قصة البشرية بأسرها، وحياته حياة هذا الوجود بأكمله، منذ أن أراد الله ــ جلت عظمته ــ لهذه الدنيا أن تُعْمَر، ولهذا الوجود أن يَظْهر، ولهذه الحياة أن تكتمل وتزْدان بظهور هذا الإنسان. . !

إنها قصة الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتها، قصة الوجود بأجمعه منذ أن ظهرت هذه الكتل البشرية على ظهر هذا الكوكب الأرضي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. قصة الأحقاب الطويلة، والأجيال الكثيرة التي مرّت على هذا العالم فعاشت فيه ثمّ رحلت عنه، مخلّفةً وراءها هذه المظاهر والآثار البشرية. . ولسان حالها يقول:

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الآثَارِ

* * *

Marfat.com

العبرة من خلق آدم عليه السلام

ـ ٢ ـ

لم يكن خلق آدم من تراب، ثم تناسل ذريته من بعده أمراً عادياً طبيعياً.. إنما هو أمر هام، وخلق عظيم، فيه تجلّت مظاهر القدرة الربانية، والعظمة الإلّهية التي تقول للشيء: «كن فيكون».. إنه منتهى الإبداع والإعجاز، فإن أهل الأرض جميعاً لو اجتمعوا على خلق «ذُبابة» أو «بعوضة» لما استطاعوا فكيف بإنسان له عقل وسمع وبصر وإدراك!! ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾! إنها «القدرة الإلّهية» الفائقة التي تخلق من العدم وجوداً، وتجعل من الضعف قوة ومن السكون حركة، ومن الجماد حياة وروحاً، فإذا التراب يتحرك، وإذا الطين يتكلّم، وإذا الجماد بشر سوي، في أجمل صورة وأحسن تقويم:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[١].

هذا هو «آدم» وهذه هي ذريته، بل هذه قصته وقصة الخليقة أجمعين.. مخلوق يخلقه الله من طين، ثم يخلق ذريته من نطفةٍ من ماءٍ مهين، ويستخلف هذه الذرية في الأرض، ويملّكها الوجود، ويجعل هذا الإنسان خليفةً ليقيم العدل، فإذا بهذا المخلوق الضعيف يستعلي على ربه، ويريد أن ينازعه في ملكه، ويتجرأ على عصيان أوامر الله!!

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٠).

Marfat.com

أليس عجيباً أن ينكر وجود الله من لم يكن بالأمس شيئاً مذكوراً!! أليس عجيباً أن يكفر بنعم الله مَنْ وجوده برهان على وجود الله!! وصدق الله حيث يقول:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[1].

يا عجباً ممن ينكر وجود الله، وكلّ ذرة في الكون ناطقة بوجوده!!.

يا عجباً ممن يكذّب بآيات الله، وكل حركة في الوجود شاهدة بوحدانيته وعظيم قدرته!

يا عجباً ممن يُغمض عينيه حتى لا يرى نور الشمس الساطع، ويصمّ أذنيه حتى لا يسمع صوت الكون الرائع!

وحقاً كما قال الله:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

ولله در القائل حيث يقول:

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى ٱلإِلَـهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ ٱلْجَاحِدُ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَداً شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

أفليست قصة «آدم» قصة عجيبة؟.. أفليس وجود هذا الإنسان في هذا الكون يستدعي منه التبصّر والانتباه؟ أفليس خلقه من تراب وطين يستلزم منه الإيمان واليقين ﴿فلينظر الإنسان ممَّ خلق؟ خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر﴾[3]!.

---

(١) سورة عبس: الآيات (١٧ ــ ٢٣).
(٢) سورة الحج: الآية (٤٦).
(٣) سورة الطارق: الآيات (٥ ــ ٨).

Marfat.com

آدم عليه السلام أول البشر

ـ ٣ ـ

حدَّثنا القرآن الكريم على خلق «آدم» عليه السلام، وأخبرنا أنه أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود، فهو إذاً أبو الخلائق، وأصل هذا العالم، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق، أما من غير البشر فقد كان هناك ملائكة قبله، وكذلك من الجن مخلوقات قبله، ولهذا لما اقتضت حكمة الله الأزلية خلق هذا الإنسان، أخبر الباري جلّ وعلا الملائكة بذلك وأخبرهم بأنه سيكون من ذريته أشخاص يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، فتعجبوا وسألوا عن «الحكمة الإلّهية» في خلق هذا الإنسان، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

قال العلامة (القرطبي) في تفسيره الجامع لأحكام القرآن:

(قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله، ولا تسبق بالقول، لأن قوله تعالى: ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا ﴿أتجعل

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

Marfat.com

فيها من يفسد فيها؟﴾ والجواب: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأنّ الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جبريل في جندٍ من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال فجاء قولهم: «أتجعل فيها»؟ على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا؟ وقيل: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو التعجب من عصيان من يستخلفه الله في أرضه. انتهى كلام القرطبي بتصرف[1]..

وعلى هذا ينبغي أن نفهم أن سؤال الملائكة لم يكن اعتراضاً على خلق الله أو على مشيئته وإرادته وإنما كان بغرض الاستفسار عن الحكمة لأن الملائكة لا يعصون أمر الله ولا يمكن أن يتصور منهم المخالفة والإباء.

* * *

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١/ ٢٧٤.

Marfat.com

الأدلة على أن آدم أول الخلائق من الإنس

ـ ٤ ـ

لقد جاءت النصوص القرآنية مؤيدة أن «آدم» عليه السلام هو أول المخلوقات، وأنه لم يكن قبله أحد من هذا النوع البشري.. وكذلك الكتب السماوية كلها قد أجمعت على هذا، وبذلك تضافرت الأخبار عن جميع أهل الملل والأديان بأنّ «آدم» أبو الخليقة، وأنه أول مخلوق من البشر على الإطلاق أما الأدلة في القرآن الكريم فكثيرة نكتفي بذكر بعضها وهي كما يلي:

أولاً: تكرّر النداء للبشر بنسبتهم إلى أبيهم «آدم» عليه السلام مثل قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ...﴾[1] الآية.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴾[2] الآية.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٧).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

Marfat.com

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ . . .﴾[1] الآية.

ثانياً: أخبر الله سبحانه وتعالى بأنّ البشر جميعاً هم من «أصل» واحد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ . . .﴾ الآية[2].

وقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ . . .﴾ الآية[3].

وليس المراد من النفس الواحدة إلا «آدم» كما أن المراد من قوله (زوجها) ليس إلا (حواء) لأنهما أصل الخليقة، وقد بينت الآية الكريمة أن الله قد بثّ أي نشر وخلق منهما الرجال والنساء. الكثيرين فمنهما توالد البشر وتناسلوا وكثروا، ثم تفرقوا في الأرض..

ثالثاً: ذكر الله تعالى أن كل مخلوق خلق من «أبوين» بطريق التزاوج إلا (آدم) فقد خلقه الله بيده من طين، ثم نفخ فيه من روحه، فآدم لم يخلق من أبوين إنما جاء نموذجاً فرداً كما قال تعالى:

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣١).
(٢) سورة النساء: الآية (١).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٩).
(٤) سورة صٓ: الآيتان (٧١ ـ ٧٢).

Marfat.com

وقال تعالى في قصة امتناع إبليس عن السجود:

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾(٢).

السُلالة: من السّل وهو استخراج الشيء من الشيء؛ يقال: سللت الشعر من العجين، فالنطفة سلالة لأنها تستل من الظهر «أفاده القرطبي».

رابعاً: التصريح بذكر «آدم» وأنه أبو البشر وذلك كما في حديث (الشفاعة) المروي في الصحيحين وفيه أن الناس يلتمسون من يشفع لهم من هول يوم الزحام فيذهبون إلى آدم يسألونه الشفاعة فيقولون له: (يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟ فيقول: نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري...) الحديث.(٣)

* * *

---

(١) سورة صۤ: الآية (٧٥).

(٢) سورة السجدة: الآيتان (٧ ــ ٨).

(٣) انظر: حديث الشفاعة بكامله في فتح الباري على البخاري لابن حجر ٦/٣٧١.

Marfat.com

نظرية "داروين" وتعارضها مع القرآن والواقع

ـ ٥ ـ

ومن هذه النصوص الكريمة التي ذكرناها ـ من الكتاب والسنة ـ يتبين لنا بجلاء ووضوح بطلان نظرية (داروين) التي تجعل أصل البشر ليس هو «آدم» وإنما تفرّع الناس على زعمه. . من سلالات أخرى، وانحدروا من أصل آخر يختلف عن أصل آدم. . إنه يعتقد بأنّ الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة، ظهرت على سطح الماء ثم تحولت إلى حيوان صغير، ثم تدرّج هذا الحيوان فأصبح ضفدعاً، فسمكة، فقرداً، ثم ترقّى هذا القرد وتمدّن فصار إنساناً. فالإنسان في نظره قرد متمدّن، وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطوّر ويتغير فيصبح إنساناً ذكياً بعد أن كان قرداً غبياً. . وهكذا جعل (داروين) نسبنا متصلاً بالحيوان وعشيرتنا منحدرة من الضفادع والفئران، وجدنا هو (الشمبانزي) لأنه أقرب القردة شبهاً بالإنسان. . هذه هي خلاصة نظرية (داروين) التي تسمى (نظرية النشوء والتطوّر) وهي تناقض صريح القرآن، وتعارض جميع ما جاءت به الكتب السماوية من أنّ آدم عليه السلام هو أبو البشر، ومنه تناسل جميع الخلق، وأنه هو الأب الأكبر. ولعلّ هذه النظرية الخرقاء تنطبق على (داروين) نفسه، وأتباعه المقتنعين بفكرته المؤمنين بنظريته، المتحمسين لها، فهم ـ وحدهم ـ القردة، أما بقية البشر فمن آدم انحدروا، وإليه ينتسبون. . وهل هناك إنسان عاقل يرضى أن يكون من فصيلة (الغوريلا) و (الشمبانزي) وسائر أنواع القردة، ويتبرأ من نسبه إلى آدم عليه السلام؟! اللهم إلا أن يكون (داروني) أحمق سفيه الرأي والعقل، فاقد الإدراك

Marfat.com

والشعور ثم كيف يكون الأصل البشري منحدراً من القردة والله تبارك وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري فقال وهو أصدق القائلين:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

ويقول جلّ ثناؤه:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2].

فهل من تكريم الله لبني آدم أن يجعلهم من صنف القردة؟ وهل من تفضيله إيّاهم أن يلحق نسبهم بالقردة أو يجعلهم من فصيلة الشمبانزي والغوريلا؟ وإذا قلنا لأتباع داروين: يا بني القردة والخنازير، فهل سيرضون عنا أم سيغضبون؟؟

رَبِّ إِنَّ ٱلْهُدَى هُدَاكَ وَآيَاتُكَ حَقٌّ تَهْدِيْ بِهَا مَنْ تَشَاءُ

وإذا كانت نظرية (التطوّر) صحيحة، فلماذا لم يتطور سائر القردة ويتمدنوا ونحن نعيش في عصر التطور والتمدن؟!

— ٦ —

خطأ نظرية داروين من الناحية العلمية:

لقد نسف الدكتور (حليم عطية) مذهب (داروين) وأبطل نظرية (النشوء والتطور) في كتابه الرائع الذي ألّفه تحت عنوان (تصدّع مذهب داروين، والإثبات العلمي لعقيدة الخلق) ونحن ننقل بعض فقرات منه، تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال في كتابه المذكور: (كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم، وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل، والدب والنمر، وغيرها من الحيوانات

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٠). (٢) سورة التين: الآية (٤).

Marfat.com

المفترسة؟ ولو حدث شيء من التطور والارتقاء ـ حسب ما يدّعي داروين ـ للزم أن تتطوّر القردة الموجودة في زماننا، وتترقّى كما ترقّى أسلافها من قبل، وكما تمدّنوا فأصبحوا بشراً بعد أن كانوا قردة؟ وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصير البرغوث (فيلاً) وأن تنقلب النملة (نعجة) ويصبح الهر (أسداً) بمرّ القرون وكرّ الدهور؟!.

الغرض الحقيقي من نظرية داروين:

بقي أن نعرف أن هذه النظرية «الخرقاء» عميقة الجذور، فهي تهدف إلى غرض معيّن هو (إنكار وجود الخالق جل وعلا) فإن (داروين) اليهودي الخبيث يعتقد بألّا خالق لهذا الوجود، ولا صانع لهذا العالم، وأن (الطبيعة) هي التي أوجدت هذا العالم، وخلقت هذا الإنسان، فهو إذاً دهري ملحد، متنكرٌ للأديان السماوية، ولليهودية التي ينتمي إليها، كافر بكل القيم الروحية التي جاءت بها الشرائع السماوية. . ولا عجب أن يأتينا بمثل هذا الهراء والافتراء، فتلك هي طبيعة اليهود في القديم والحديث، فكل دعوة للإلحاد أو للإفساد نجد وراءها يداً يهودية خبيثة، كما أن (كارل ماركس) مؤسس المبدأ الشيوعي يهودي الأصل، وكذلك (فرويد) الإباحي الفاجر يهودي العرق والدم. . وكل هؤلاء الخبثاء هم من تلامذة «إبليس» ومن أعوان «الدجّال» يتعاونون لهدم الشرائع والأديان، ويعملون ليل نهار لبذر بذور الإباحية والإلحاد وصدق الله حيث قال:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(١).

انخداع بعض المثقفين بهذه النظرية:

ولعل بعض المثقفين، ممن لم يتمكنوا من العلم، ولم يحصلوا منه إلا على قشور لا تُسمن ولا تغني من جوع، يعتقدون بصحة هذه النظرية العجفاء، وينخدعون ببريقها الفلسفي ويعتبرونها نظرية مسلّمة لا تحتاج إلى نقاش أو جدال لأنها نظرية مشهورة!!

(١) سورة المائدة: الآية (٦٤).

Marfat.com

ونحن نسارع القول إلى هؤلاء بأن هذه النظرية هي مجرد (افتراضيات) و (أوهام) وأنها لم تصل إلى الدرجة العلمية المقطوع بصحتها، وشهرة هذه النظرية لا تجعلها نظرية صحيحة مقبولة في منطق العلم والعقل، و «إبليس» اللعين له شهرة عظيمة، فهل معنى هذا أنه على سداد وصواب. ونقول لهؤلاء «المفتونين» بالآراء الغربية: إن كثيرين من علماء الغرب أنفسهم قد استسخفوا هذه النظرية، وأبطلوها بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، ومن أظهر ما أُلّف للرد على هذه النظرية السفسطائية كتاب «العلم يدعو للإيمان» لمؤلفه الكبير (كريسي موريسون) رئيس المجمع العلمي في أمريكا، وكتاب «الله يتجلّى في عصر العلم» المترجم إلى اللغة العربية، وهو بأقلام مجموعة من كبار علماء الطبيعة من الأساتذة المختصين، وكلا الكتابين يهدف إلى إثبات وجود المدبّر الصانع الحكيم، ويردُّ على القائلين بنظرية التطور أو القائلين بأنّ «الطبيعة» هي التي أوجدت هذا الكون، وهذه الحياة. كما ظهر كتاب جديد تحت عنوان «الإسلام ونظرية داروين» لمؤلفه الأستاذ الفاضل والكاتب البارع السيد (محمد أحمد باشميل) يُستحسن الرجوع إليه في هذا الموضوع، فإنه قد جمع فأوعى، وأتى بآراء كثيرة لكبار العلماء الغربيين في نقض هذه النظرية الفاسدة.

ونقول من جهة أخرى: إننا نحن المسلمين نعتقد بأنّ كل ما خالف القرآن الكريم، المقطوع بصحته وصدقه. فإنه باطلٌ مردود على قائله، لا يمكن أن يقبله مسلم مهما كان حال قائله، ومهما بلغ من الرقي والعلم، فكيف بهذه النظرية الخرقاء التي لا تستند على دليل أو برهان؟!.

رأي وجيه للأستاذ النجار:

ويستحسن أن ننقل هنا رأياً وجيهاً للأستاذ عبد الوهاب النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» فقد نقل فيه عن بعض علماء الألمان رأياً على نقيض رأي (داروين) تماماً خلاصته: أن القرد إنسان متقهقر، وليس الإنسان قرداً مترقياً ثم قال:

Marfat.com

وعلى الجملة فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب فإنها لا تكون حجة لأحد أبداً.

ثم قال: (هَبوا أن الطبيعة قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزاً عنيفاً بغير شفقة وزلزلتها زلزالاً شديداً، فدكّت فيها كل بناء شامخ، وانهارَ فيها كل صرح باذخ، وألحقت القصور بالأكواخ، وأزالت معالم الدنيا ودورها ومصانعها وقصورها، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل من بني الإنسان، فهل يتصور أن الغوريلا، والشمبانزي وسائر الفصيلة القردية تهبّ لعمران الأرض كما عمرها الإنسان، ويكون فيها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون، ويقوم فيها أمثال «سقراط» و«أفلاطون» ويقوم بينهم العلماء فيرسمون الكرة الأرضية، ويخترعون الآلات الهندسية، ويأتون بالعجائب فيوجدون الراديو والتفلزيون، والطائرات والغواصات. إنني كلما فكرت في ذلك جزمت بأن ذلك محال، وقطعت بأن (القرد) سيبقى قرداً على مدى الدهر، وأن القردة لا تلد إلا قردة[1].

* * *

(١) انظر: قصص القرآن للنجار، ص ٢٩؛ ففيه بحث نفيس.

Marfat.com

المراحل التي مر بها خلق آدم عليه السلام

ـ ٧ ـ

أولاً ـ (المرحلة الترابية):

لقد كان أساس تكوين آدم عليه السلام، ومصدر نشأته إنما هو التراب، فحين تعلّقت إرادة الله جل جلاله في خلق آدم أمر الملائكة أن يجمعوا تراباً من أنحاء الأرض، ومن ألوان التربة العديدة، فجمعوا فكان هذا التراب هو الأساس في تكوين آدم عليه السلام، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾. وجاء في الحديث الصحيح:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر، والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»[١].

ثانياً ـ (المرحلة الطينية):

أخذ هذا التراب ثم جبل بالماء فأصبح طيناً لازباً (أي متماسكاً) يلتصق بعضه ببعض، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[٢].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي برقم ٢٩٤٨؛ وأبو داود برقم ٤٦٩٣؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وانظر: جامع الأصول ٤/٣١.

(٢) سورة الصافات: الآية (١١).

Marfat.com

ثم بقي آدم مدة طويلة من الزمن في الصورة الطينية تقدّر بـ ٤٠ أربعين عاماً حتى جفّ ويبس فأصبح له صوت يشبه الفخّار إذا نقر باليد وهو المراد من لفظ (الصلصال) كما قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1].

ثالثاً ــ (المرحلة التكوينية):

ثم توجهت إرادة العلي الكبير لجعل هذا الطين بشراً سوياً، وإنساناً سميعاً بصيراً، فنفخ فيه من روحه، فإذا هو إنسان كريم وخلق عظيم في أحسن صورة وأكمل تقويم، وهذه المرحلة هي آخر المراحل في خلق آدم عليه السلام، وهي التي تسمى المرحلة التكوينية، وقد وردت بعض الآثار تدل على أن آدم بقي في المرحلة التكوينية أي قبل نفخ الروح مدة طويلة تقدر بأربعين ٤٠ سنة، ولعل الآية الكريمة في سورة الدهر تشير إلى هذه المدة التي بقي فيها آدم وهي قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[2].

والمراد بالإنسان هنا إنما هو «آدم» عليه السلام.

ذرية آدم:

أما ذرية آدم وبقية البشر فقد كان خلقهم عن طريق التناسل والتزاوج، وقد مروا بأدوار في الخلق تختلف عن الأدوار التي مرّ بها آدم، وهي: النطفة، العلقة، المضغة، ثم مرحلة نفخ الروح:

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان (١٤ ــ ١٥).

(٢) سورة الدهر: الآية (١).

Marfat.com

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾(١).

سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

بعد أن نفخ الله تبارك وتعالى الروح في آدم، أمر الملائكة بالسجود له، وكان ذلك السجود سجود (تحية وتكريم) لا سجود (عبادة) لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر أحداً بالتوجه بالعبادة إلى سواه، ويرى بعض المفسّرين أن السجود إنما كان في حقيقته لله عز وجل ولم يكن لآدم، وإنما كان آدم (كالقبلة) بالنسبة للمصلي، فالمصلي يتوجه إلى القبلة وصلاته وسجوده لله رب العالمين، وكذلك كان الأمر بالنسبة لآدم حيث جعله الله (قبلة) للملائكة الأطهار.

ولقد كان ذلك الأمر الإلٓهي احتفالاً بتمام (تكوين آدم) وفي هذا إظهار لعلو شأنه، كما أن فيه تكريماً لهذا النوع البشري حيث أسجد الملائكة لأبيهم آدم عليه السلام وقد خصّ الله آدم بأربعة مزايا، هي آية الفضل وعنوان الشرف الرفيع وهي:

أولاً: خلقه الله بيده.

ثانياً: نفخ فيه من روحه.

ثالثاً: أمر الملائكة بالسجود له.

رابعاً: علّمه أسماء كل الأشياء.

قال تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الحج: الآية (٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣١).

Marfat.com

وجاء في الحديث الشريف ما يؤيد هذه المزايا والأوصاف الجليلة في قصة (موسى مع آدم) حين قال له:

«يا آدم أنت أبو البشر، الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، ما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنّة...» الحديث[1].

ولمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم سجدوا جميعاً امتثالاً لأمر الله إلا (إبليس) فقد امتنع عن السجود واستكبر وكان من الكافرين، وادعى أنه أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ وقال قولته الخبيثة: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

هل إبليس من الملائكة:

ظاهر النصوص الكريمة يشير إلى أن (إبليس) كان من الملائكة بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وإلى هذا الرأي ذهب بعض العلماء وقالوا: إنه لو لم يكن (إبليس) من الملائكة لما كلف بالسجود لآدم، وحجتهم في ذلك «الاستثناء» المذكور في الآية الكريمة. وذهب المحققون من العلماء إلى أن (إبليس) لم يكن من الملائكة، واستدلوا ببضعة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لو كان (إبليس) من الملائكة لما عصى أمر الله، لأن الملائكة لا يعصون أمر الله كما ورد في القرآن:

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير، وفي القدر، وفي التوحيد، وانظر: فتح الباري بشرح البخاري ٨/٤٣٤.

(٢) سورة صٓ: الآيتان (٧٣ ــ ٧٤).

Marfat.com

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

ثانياً: الملائكة من نور، وإبليس من نار، وهو يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فلو كان من الملائكة لقال خلقتني من نور وخلقته من طين. وفي الحديث الصحيح: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارج من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وصف لكم»[2].

ثالثاً: الملائكة ليس فيهم ذكر ولا أنثى، وليس لهم ذرّية ولا نسل، وإنَّما هم خلقٌ بديع من خلق الله جلّ وعلا، خلقهم ابتداءً من غير أن يكون وجودهم بطريق التناكح والتناسل، والجنُّ كالإنس يتناكحون ويتناسلون ولهم ذرية كما قال سبحانه عن إبليس ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء. . .﴾ الآية.

رابعاً: ورد نص صريح في سورة الكهف يدل على أن (إبليس) كان من الجنّ. وأنه امتنع عن السجود لآدم لفسقه وضلاله:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ. . .﴾ الآية[3].

وكفى بهذا النصّ الواضح الصريح دليلاً وبرهاناً!!.

وتأويل بعض المفسّرين أن لفظ (الجنّ) هنا يراد به طائفة من الملائكة يسمون الجن تأويل بعيد، والذي تطمئن إليه النفس، ويرتاح له الوجدان، أن إبليس اللعين لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن والشياطين، وذلك لأن الملائكة لا تتناكح ولا تتناسل، والله تعالى قد أخبر عن إبليس بأنّ له ذرية فقال: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ولو كان من الملائكة لما كان له ذرية ونسل، وقد قال (الحسن البصري) رحمه الله:

---

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد، برقم ٢٩٩٦، من رواية عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وانظر: جامع الأصول ٤/٣٣.

(٣) سورة الكهف: الآية (٥٠).

Marfat.com

(لم يكن إبليس من الملائكة طرف عين، وإنما هو من الجن). وقد ذكر (ابن كثير) في كتابه «البداية والنهاية» عن بعض العلماء أنه قال: (كان إبليس من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أُسر فأخذته الملائكة إلى السماء فكان هناك، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه فطرده الله من رحمته)[1].

وليس هناك دليل لمن ادَّعى أنه من الملائكة، لأنه أُمر بالسجود لآدم، وبدليل الاستثناء ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس...﴾ فإن الاستثناء هنا منقطع، ولم يؤمر إبليس بالسجود لآدم لأنه من الملائكة، بل توجَّه له أمر خاص من رب العزة والجلال بالسجود لآدم. بقوله سبحانه ﴿قال ما منعك ألاَّ تسجد إذْ أمرتُك...﴾ فدلَّ على أن إبليس مأمور بالسجود استقلالاً.

خلق حــواء:

بعد أن خلق الله تعالى آدم أسكنه الجنة فكان يمشي فيها وحيداً فريداً ليس معه زوج ولا أنيس، فنام نومة ثم استيقظ فإذا عند رأسه امرأة خلقها الله له لتسكن إليها نفسه تسمّى (حواء) وسميت بهذا الاسم لأنها خلقت من حيّ، ويروى عن ابن عباس أنها خلقت من أحد أضلاع آدم وهو نائم دون أن يحس بألم، واستدل بقوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها...﴾ الآية. والله تعالى أعلم هل كان خلقها استقلالاً أم بواسطة آدم؟ وتدل ظواهر الآيات الكريمة على أن الجنة التي أسكن فيها (آدم وحواء) عليهما السلام هي جنة الخلد التي في السماء، وهذا رأي الجمهور من علماء أهل السُنَّة، وذهب المعتزلة والقدرية إلى أن الجنة ليست جنة الخلد وإنما هي جنّة في الأرض وهي (أرض عدن) وشبهتهم أنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس، ولما وقعت فيها معصية آدم لأنها جنة القدس.

---

(١) انظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/٦٧.

Marfat.com

أدلة الجمهور على أن الجنة هي جنة الخلد:

استدل الجمهور على أن الجنة التي كان فيها آدم وحواء عليهما السلام هي جنة الخلد ببضعة أدلة أهمها:

(أ) أن الله سبحانه قد عرّف الجنة فقال:

﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1].

وأل التعريف للمعهود في الذهن وهي جنة الخلد.

(ب) أمره تعالى بهبوط آدم يدل على أنها في السماء لأن الهبوط يدل على العلو والارتفاع:

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ . . .﴾[2].

(ج) وصف الله تعالى الجنة بأوصاف تدل على أنها جنة الخلد:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾[3].

(د) ما ورد في حديث الشفاعة أن الناس يأتون آدم فيقولون:

(يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم . . .) الحديث[4].

وباختصار فقد حكى (القرطبي) في تفسيره أن أهل السُّنَّة مجمعون على أنّ جنة الخلد هي التي أُهبط منها آدم عليه السلام.

تغرير إبليس بآدم عليه السلام:

وبعد أن سكن آدم وحواء الجنة أباح الله تبارك وتعالى لهما جميع أشجارها وثمارها إلا شجرة واحدة نهاهما عنها ابتلاءً منه جلّ وعلا، ولم يذكر القرآن الكريم

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٥).
(٢) سورة البقرة: الآية (٣٦).
(٣) سورة طه: الآيتان (١١٨ ــ ١١٩).
(٤) انظر فتح الباري على شرح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/٣٧١.

Marfat.com

هذه الشجرة ما هي؟ أو ما اسمها؟ فلا حاجة إلى الخوض فيها بغير بيّنة ولا برهان.

قال الحافظ ابن كثير:

(وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعيّنها لنا)[1].

وقد حذّر الله تعالى آدم وحواء من كيد إبليس اللعين، ولكنهما نسيا ذلك وخُدعا بما أغراهما به إبليس، من الخلود في الجنة إن أكلا منها، لا سيّما بعد أن أقسم لهما إبليس الأيمان المغلّظة بأنه ناصح لهما، وأنّهما إذا أكلا من هذه الشجرة فسيخلّدان في الجنة، وقال:

﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[2].

فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما (عوراتهما) ثمّ أُهبطا إلى الأرض بسبب المخالفة وقد قال بعض المفسّرين: إن آدم أكل من الشجرة متأولاً، اعتقاداً منه أن الله تعالى نهاه عن شجرة بعينها فأكل من جنسها غير تلك الشجرة، والصحيح أنه أكل من الشجرة ناسياً الوعيد الإلّهي ويدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[3].

انظر جامع الأحكام للقرطبي ١١/٢٥١.

* * *

(١) انظر: كتاب البداية والنهاية لابن كثير ١/٦٩.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٢٠ ــ ٢١).

(٣) سورة طه: الآية (١١٥)، وانظر: جامع الأحكام للقرطبي ١١/٢٥١.

Marfat.com

قصة «قابيل وهابيل» ابْنَي آدم عليه السلام

ـ ٨ ـ

ذكر المؤرخون وأهل العلم أن آدم عليه السلام رزق من حواء أولاداً كثيرين وأنها وضعت له عشرين بطناً في كل بطن (ذكر وأنثى) فكان آدم يزوج كل ذكر من بطن بالأنثى من البطن الأخرى، ولا يزوج الذكر بالأنثى من بطن واحدة، فأراد (هابيل) أن يتزوج بأخت (قابيل) وكانت أخت قابيل أحسن فأراد (قابيل) أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إيّاها فأبى وقال: أنا أحق بأختي، فأمرهما أن يقرّبا قرباناً فمن تقبّل قربانه أخذ تلك الأخت، فقرّب (هابيل) جذعة سمينة ـ وكان صاحب غنم ـ فقدّم أجود ما عنده، وقدّم (قابيل) حزمة من زرع رديء ـ وكان صاحب زرع ـ فقدّم أسوأ ما عنده، فنزلت نار فأكلت قربان (هابيل) وتركت قربان (قابيل) فغضب عند ذلك قابيل وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال له (هابيل): إنما يتقبل الله من المتقين. . وكانت نهاية القصة أن أقدم قابيل على قتل هابيل فقتله فأصبح من الخاسرين، قال تعالى:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

---

(١) الآيات من سورة المائدة (٢٧ ـ ٢٩) وانظر تاريخ الطبري ١ /١٦٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١ /٨٦.

Marfat.com

وجاء في الحديث الشريف: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل»[1].

الحكمة من استخلاف آدم في الأرض:

ولاستخلاف آدم في الأرض حكمة جليلة أشارت إليها الآيات الكريمة في قصة خلق آدم عليه السلام.. هذه الحكمة ترمز إلى علم الله الواسع، وإرادته الأزلية الحكيمة، في عمارة الأرض بذرية آدم وبنيه، فلو لم يخلق الله تعالى هذه المخلوقات لما عمرت الأرض، ولما كانت هناك شعوب وأمم، وخلائق وأجيال، وهذا ما غاب عن علم الملائكة الأطهار، ولم يُدركوا حكمته الدقيقة حتى كشف الله تعالى لهم الأمر وأطلعهم على الأسرار في استخلاف هذا المخلوق الجديد، ذي الشأن العجيب، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء:

(ولا يخفى أن استخلاف آدم في الأرض، يشتمل على معنى سامٍ من الحكمة الإلّهية، التي خفيت عن الملائكة.. فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض، لما عرفت أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة، فإن الملائكة ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على وصف يخالف وصف الإنسان، فما كانت السفن لتصنع، ولا الأرض لتزرع، ولا تعرف

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٦٤ من فتح الباري؛ ومسلم في القسامة ٣/١٣٠٤؛ وأحمد في المسند ١/٣٨٣.

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٠).

Marfat.com

خـواص الأشيـاء والمـركبـات الكيمـاويـة، ولا الفـوائـد الـطبيعيـة ولا الفلكيـة ولا المستحدثات الطبيّة، ولا الطبائـع النفسية، ولا شيء من هذه العلوم الكثيرة التي تفنى السنـون ولا يدرك الإنسـان لعلمٍ منها نهـايـة. . فسبحـانـه وتعـالى من عـزيـز حكيم[1].

هل آدم من الأنبياء؟ :

من المقطوع به أنّ «آدم» عليـه السلام من الأنبيـاء، وهو رأي جمهـور العلماء لم يخالف فيه أحد، وإنما الخـلاف هل هو رسول أم لا؟ ولمن أرسل؟.

أمـا الأدلة على نبـوته فقـد وردت في الكتـاب والسنّـة. . ولكنهـا في القـرآن الكريم لم تكن صريحةً، فلم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بـإزاء غيره من الأنبياء الكرام كإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة، وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه، وأحلَّ له وحرّم عليه، بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو معنى النبوة كما أسلفنا.

وأمّا رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، فيرى بعض العلماء أنه رسول وأنه أرسـل إلى ذريته، ويرى الآخرون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان نبياً، ويستدل هؤلاء بحديث الشفاعة الوارد في صحيـح مسلم: «إنَّ الناس يـذهبون إلى نـوح ويقولـون له: أنت أول رسل الله إلى الأرض»، فلو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول، والقائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بـأنه أول رسـولٍ بعد الـطوفان، والله أعلم بحقيقـة الأمر، والـرأيُ الأرجـح الذي عليه الجمهور أنه من الأنبياء، أما الأدلة على نبوته فهي:

أولاً: قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وظاهر من الآية أن المراد الاصطفاء بالنبوة والرسالة.

---

(١) انظر: كتاب قصص الأنبياء للنجار ص ٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

Marfat.com

ثانياً: قوله تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

ففي هذه الآية وعد من الله تعالى بالهدى، وإشعار بالرسالة.

ثالثاً: قوله تعالى:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٢).

والظاهر أن اجتباء الله له وتوبة الله عليه، إنما هو اصطفاء الله إياه بالنبوة والرسالة. وقد ورد في السنَّة النبوية ما يدل على نبوته صراحة وذلك في حديثين:

الأول: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»(٣).

الثاني: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: «قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت يا رسول الله ونبيّ كان؟ قال: نعم نبي مكلّم، قلت يا رسول الله: كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً» رواه أحمد(٤).

لهذه الأدلة نرى علماء المسلمين متفقين على نبوته لم يخالف في ذلك أحد، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٨).

(٢) سورة طه: الآية (١٢٢).

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم ٣٦١٨ وقال: حديث حسن.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد ١٧٨/٥.

Marfat.com

شبهة حول نبوّة آدم:

وقد يقال: إذا كان آدم من الأنبياء فكيف عصى أمر الله، والأنبياء معصومون عن المعصية؟ والجواب أنّ هذا البحث قد تقدّم معنا مفصلاً في باب (عصمة الأنبياء) ونحن نوجزه الآن في كلمات:

أولاً: إن ذلك حصل نسياناً منه، لا قصداً وعمداً بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١).

وهذا ما اختاره القرطبي.

ثانياً: إن آدم عليه السلام قد تأول في أكله من الشجرة، لأنه ظنّ أن المراد من قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عين تلك الشجرة فأكل من شجرة أخرى من جنسها فوقع في المخالفة.

ثالثاً: إن أكله من الشجرة كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية، فلم يكن نبياً حين أكل منها بدليل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٢).

ما الفرق بين الملائكة والجن؟:

يعرف علماء التوحيد الملائكة بما يلي:

الملائكة: أجسام نورانية لطيفة، قادرة على التمثل والتشكل بأية صورة أرادوا، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، وأنهم مجبولون على العبادة والطاعة:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة طه: الآية (١١٥).
(٢) سورة طه: الآية (١٢٢).
(٣) سورة التحريم: الآية (٦).

Marfat.com

وأنهم لا يتناسلون ولا يتناكحون ولهم قدرة خارقة، ولا تحكم عليهم الصورة.

وأما الجن: فهم أجسام نارية سفلية، مخلوقون من مارج من نار (أي من أخلاط نار صافية) وأنهم قادرون على التشكل بأية صورة أرادوا، وأنهم يتناسلون ولهم ذريَّة، وفيهم الذكر والأنثى، وهم مكلفون كالبشر، وفيهم المؤمن والكافر، وأنّ الصورة تحكم عليهم.

ومن هذا التعريف يتضح لنا بجلاء أن بين خلق الملائكة وبين خلق الجنّ تفاوتاً واضحاً، وتبايناً ظاهراً في أصل الجبلّة والخلقة.

فالملائكة مخلوقون من نور، والجنّ مخلوقون من نار، يدل لذلك قول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وصف لكم»[1]. وقوله تعالى:

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[2].

والملائكة ليس لهم نسل ولا ذرية، بخلاف الجن فإنه يتناسلون ويتناكحون ولهم ذرية، كما قال تعالى عن إبليس:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[3].

فالملائكة يخلقهم الله تعالى خلقاً جديداً مبتدءاً لأنه ليس فيهم ذكر أو أنثى حتى يحصل التناسل، أمّا الجن ففيهم الذكر والأنثى ويقع بينهم التناكح والتناسل كما هو الحال بين البشر.

والملائكة قادرون على (التمثل) بأمثال الأشياء، و(التشكل) بالأشكال

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد برقم ٢٩٩٦، وقد تقدم الحديث.

(٢) سورة الحجر: الآية (٢٧).

(٣) سورة الكهف: الآية (٥٠).

Marfat.com

الجسمانية المحسوسة، فقد ثبت ذلك في النصوص العديدة من الكتاب والسنّة، قال تعالى عن جبريل عليه السلام:

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١).

وقال تعالى عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الأبرار:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾(٢).

فقد دخلوا عليه في صورة رجال، وحين قدّم لهم الطعام امتنعوا عن الأكل، فأوجس منهم خيفة فأخبروه أنهم ليسوا بشراً، إنما هم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط.

وحين قدم الملائكة على نبي الله (لوط) عليه السلام جاءوه على صورة شباب مُردٍ حِسان، ممّا جعل السفهاء يطمعون بفعل الفاحشة بهم، حيث جاءوا يتسابقون إلى لوط عليه السلام، كما قال تعالى:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾(٣).

فالملائكة إذاً قادرون على التصور والتشكل بأي صورةٍ شاءوا، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فسأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعن

---

(١) سورة مريم: الآية (١٧).
(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٢٤ ــ ٢٥).
(٣) سورة هود: الآية (٧٨).

Marfat.com

الساعة فأجابه الرسول عنها بالتفصيل، وأخيراً سأل الرسول أصحابه: أتدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

والجن أيضاً قادرون على التمثل والتشكل بأي صورة شاءوا، فقد اجتمعوا برسول الله ﷺ في صورة نفر من الرجال، وسمعوا القرآن، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ . . .﴾[2] الآية.

فهم يشبهون الملائكة من هذه الناحية، وهي قدرة (التمثل والتشكل) بأي صورة شاءوا. ولكنهم يختلفون عن الملائكة في أنهم تحكم عليهم الصورة بينما الملائكة لا تحكم عليهم الصورة، بمعنى أن الجنيّ لو تصور وتشكّل في صورة إنسان أو طير، وصوّب إنسان سهماً نحوه فإن الجنيّ يموت كما لو قتله إنسان بسيف أو رمح، فيجري عليه حكم الصورة، بخلاف الملك فإنه لو تصوّر بصورة ما فإن هذه الصورة لا تحكم عليه، فلا يقتل الملك إذا ما سدّد إنسان سهماً نحوه أو جُني عليه بجناية، فلا يناله شيء من الأذى فيما لو تشكل بصورة إنسان أو غيره. ثمّ إنّ الملائكة يختلفون عن الجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم نزوع إلى البشر، وليس عندهم استعداد للمعصية، بل خلقوا على الاستقامة، وجبلوا على العبادة والطاعة كما قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3].

وكما قال تعالى:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) سورة الأحقاف: الآية (٢٩).
(٣) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).
(٤) سورة التحريم: الآية (٦).

Marfat.com

وأما الجن ففيهم المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، فهم كالبشر في هذه الناحية كما قال تعالى عن إبليس ﴿كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم في سورة الجن:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1].

وهم مكلفون كسائر البشر بالتكاليف الشرعية قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

ولهم رسل وأنبياء يبلغونهم أوامر الله ونواهيه كما قال تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ...﴾[3].

فقوله تعالى: ﴿منكم﴾ يدل على أنّ هناك رسلاً من الإنس، ورسلاً من الجن، وأمّا رسالة محمد ﷺ فهي لجميع الخلق إنسهم وجنّهم كما قال تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[4].

والجن مخلوقون قبل الإنس يدل لذلك قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[5].

---

(١) سورة الجن: الآيتان (١٤ ـ ١٥).
(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).
(٣) سورة الأنعام: الآية (١٣٠).
(٤) سورة الفرقان: الآية (١).
(٥) سورة الحجر: الآيتان (٢٦ ـ ٢٧).

Marfat.com

الحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر. والسموم: الريح الحارة القاتلة. والجن يرون البشر بينما البشر لا يرونهم يدل لذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ثمّ إن (الملائكة) يختلفون عن الجنّ في أنّ لهم قدرة عجيبة خارقة، فهم يستطيعون أن يقتلعوا الجبال، ويغوصوا البحار، ويقلبوا الأرض بأهلها، كما فعل الملائكة بقوم لوط ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ وكما اقتلع جبريل عليه السلام جبل الطور ورفعه فوق بني إسرائيل كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ . . .﴾ الآية(٢).

وللملائكة أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة أو أكثر كما قال تعالى:

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

وفي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ رأى جبريل في صورته الحقيقية له ستمائة جناح قد سدّ الأفق.

الفرق بين الشياطين والجن:

والشياطين فرقة من الجن، وهم المردة العصاة، ورئيسهم إبليس اللعين عليه لعنة الله، فكل متمرد من الجن يسمّى (شيطاناً).. كما أنّ كل عاصٍ من الإنس

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٧).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧١).
(٣) سورة فاطر: الآية (١).

Marfat.com

يسمى (فاسقاً) وكل جاحد يسمّى (كافراً) فكل شيطان جني، وليس كل جني شيطاناً، قال تعالى: ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾. والله الموفق.

العبرة من قصة آدم عليه السلام:

ونستخلص من قصة آدم أبي البشر بعض العظات والعِبر وأهمها ما يلي:

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى قد كرّم هذا النوع البشري حين خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعله خليفة في الأرض وهذا تكريم لآدم وذريته.

ثانياً: إن الله تعالى قادر على كل شيء فقد يجعل من الأمر الحقير أمراً هاماً وعظيماً فقد خلق آدم من تراب ثم جعله بشراً سوياً، وأفاض عليه من أسرار قدرته وبدائع حكمته ما جعله أهلاً للاستخلاف في الأرض، كما علّمه أسماء كل الأشياء مما عجزت عنه الملائكة الأطهار.

ثالثاً: إنّ على الإنسان أن يحذر مكائد الشيطان فقد كان السبب في خروج أبينا آدم من الجنة، وعداوته قديمة لنا منذ ظهور آدم:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(١).

فلا ينبغي أن ننخدع بوساوس إبليس اللعين فهو حرب علينا إلى يوم الدين.

رابعاً: إن الإنسان مجبول على الخطأ معرّض للنسيان، لأنه خلق من ضعف وما وقعت مخالفة آدم لأمر الله إلا بسبب ذلك الضعف البشري حيث استجاب لنداء اللعين إبليس ونسي أمر الله.

خامساً: على الإنسان ألاّ يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من عفوه فيما إذا وقع في خطيئة وحصلت منه سقطة، أو ألمّ بذنب، فقد علّمنا الله كيف نتوب إليه،

---

(١) سورة فاطر: الآية (٦).

Marfat.com

وكيف نتخلص من الذنوب والآثام ﴿فتلقَّى آدمُ من ربّه كلماتٍ فَتَابَ عليهِ إنَّه هو التَّوّابُ الرَّحيم﴾.

سادساً: الحياة قائمة على الابتلاء والامتحان، فكما ابتلي آدم بالنهي عن الأكل من الشجرة، لتظهر طاعته وخضوعه، كذلك ابتليت ذريته بالأوامر والنواهي، لتتحقَّق العبودية لله رب العالمين.

وفاة آدم عليه السلام:

وفاة آدم عليه السلام: وقد عاش آدم على ما ورد في بعض الآثار قرابة (١٠٠٠) ألف عام، وذكر الطبري في تاريخه أنه عمَّر تسعمائة سنة وستاً وثلاثين سنة، ثم مات بعد ذلك ودفن على المشهور في الهند عند الجبل الذي أهبط فيه، وقيل: بجبل (أبي قبيس) بمكة المكرمة، ولما حضرته الوفاة جاءته الملائكة من السماء بكفنٍ وحنوط من الجنة وبعد أن غسلوه وكفنوه حفروا له وألحدوه، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه فيه ثم حثوا التراب وقالوا: يا بني آدم هذه سنتكم(١).

رحم الله أبانا آدم وأسكنه فسيح جنته، وجمعنا معه في دار الخلد آمين، والحمد لله رب العالمين.

• • •

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/١٥٨؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/٩١.

Marfat.com

الفصل السادس

الرسل من أولي العزم

١ - نوح عليه السلام.

٢ - إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣ - موسى الكليم عليه السلام.

٤ - عيسى بن مريم عليه السلام.

٥ - محمد خاتم النبيين عليه السلام.

Marfat.com

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام

ـ ١ ـ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾. من سورة العنكبوت: الآية (١٤)

نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ أي «إدريس». فإدريس جده الأكبر. وينتهي نسبه إلى «شيث» عليه السلام ابن آدم أبي البشر، وبينه وبين آدم ما يزيد على ألف عام، ورواية التوراة تذكر أن بينهما (١٠٥٦) عاماً.

رواية البخاري: روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام).

قال ابن كثير في (البداية والنهاية) ما نصه: فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتباره ما قيّد به ابن عباس من الإسلام. إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث (أبي أمامة) يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبي أمامة رواه (ابن حبان) في صحيحه وهو: «أن رجلاً قال يا رسول الله: أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم مكلَّم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون». قال (ابن كثير): وحديث ابن عباس يردُّ على من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب، أنَّ قابيل وبنيه عبدوا النار.

Marfat.com

ذكر نوح في القرآن:

ذُكرَ (نوح) عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم.. وذكرت قصته مفصلة في القرآن في كثير من السور الكريمة، منها: الأعراف: وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، وذكرت له سورة خاصة تسمى (سورة نوح) وكلها تشير إلى بعثته ورسالته وطريق دعوته، وإلى ما لاقاه من قومه من جحود وعصيان، وإلى صبره الطويل على الإيذاء، وإلى العذاب الذي حلّ بالمكذبين وهو (الغرق) وإلى نجاة من آمن به على ما يأتي بيانه عند تفصيلِ قصته عليه الصلاة والسلام.

نوح أول رسول إلى الأرض:

يذكر المؤرخون أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلى أهل الأرض، وقد أمره ربه أن ينذر قومه ويحذّرهم عذاب الله، فكان نوح أوّل نذير وأوّل رسول كما قال سبحانه:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1].

ويستدلّون على ذلك بالحديث المروي في الصحيحين وهو حديث الشفاعة، وفيه أن النبي ﷺ قال:

«يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناسَ من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم عليه، ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد

(١) سورة نوح: الآية (١).

Marfat.com

غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَه مثلَه ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري إلى نوح فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزّ وجل فيقول: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي، نفسي[1]...) إلخ الحديث.

وهذا الذي ذكروا من أن نوحاً عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض هو الصحيح الذي عليه الأكثرون ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله، فشيث وإدريس، وآدم، أنبياء وكلهم قد بُعثوا قبله، ولكنهم لم يكونوا رسلاً، فهو بهذا الاعتبار أوّل رسول وليس أوّل نبي، ومعلوم أن هناك فرقاً بين النبوة والرسالة، فالرسول هو الذي أُوحيَ إليه بشرعٍ وأُمر بتبليغه، وأما النبيُّ فهو الذي أُوحي إليه بشرعٍ ولكن لم يُؤمر بتبليغه، والله أعلم.

المدة التي عاشها نوح:

عاش نوح عليه السلام طويلاً وعمّر كثيراً، وكان أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم جهاداً فقد تحمّل من الأذى ما لم يتحمله أحد من الرسل، فدعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وأقام فيهم (٩٥٠) تسعمائة وخمسين عاماً يذكّرهم ويعظهم، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنه لم يلْقَ من قومه إلا كل تكذيب واضطهاد، وصدود وإعراض، فقد كانت قلوبهم أشدّ من الحجارة، وعقولهم أصلب من الحديد. ومع طول المدة التي أقامها بينهم لم يؤمن برسالته إلا قليل كما قال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن عدد الذين آمنوا معه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٢٦٤/٦؛ ومسلم في الإيمان برقم ١٩٤؛ والترمذي في القيامة برقم ٢٤٣٦؛ وانظر: تمام الحديث في جامع الأصول ٤٨٢/١٠.

Marfat.com

كانوا عشرة وهم الذين ركبوا معه في السفينة، وذكر آخرون أنهم كانوا أربعين، والرواية الصحيحة التي وردت عن ابن عباس أنهم كانوا (٨٠) ثمانين نفساً معهم نساؤهم، وهذا أكثر أقوال المفسرين في الذين آمنوا معه، وهم الذين نجوا من الغرق، ومنه يظهر مدى المشقة التي نالها نوح عليه السلام في هذا الكفاح المرير، والأهوال التي نالها في هذه الفترة الطويلة التي عاشها من عمره، وهي سلسلة من حياة قاسية مليئة بالكفاح والنضال، والعذاب والبلاء لا يقدر على تحملها البشر إلا أولو الصبر من الأنبياء ولهذا كان (نوح) عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الذين ذكرهم الله في قوله لسيد الخلق ﷺ: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وأمره بالسير على نهجهم وهم خمسة (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن نوحاً عليه السلام لما بعثه الله إلى قومه كان عمره (٥٠) خمسين سنة ومكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة ثم عاش بعد هلاك قومه (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون عمره على ذلك ألفاً وثلثمائة وخمسين سنة (١٣٥٠)، وهذا الرأي قد يكون منقولاً عن التوراة، كما هو عادة مبالغ فيه كبقية الأخبار التي تذكرها التوراة، مما لا يمكن الاطمئنان التام إليه، والذي نقطع به ما ذكره القرآن الكريم ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ فهذا قطعي الدلالة، ثابت ثبوت اليقين، ولسنا بحاجة إلى غيره من الأخبار.

قوم نوح يعبدون الأصنام:

تشير الآيات الكريمة في قصة نوح عليه السلام أنه بُعث إلى قوم قد أشركوا بالله وعبدوا الأوثان والأصنام واتخذوا آلهة من دون الله، اعتقدوا أنها تضر وتنفع وتبصر وتسمع وأنها تستطيع أن تجلب لهم الخير وتدفع عنهم السوء وتغني عنهم من دون الله. وهم أول قوم عبدوا الأصنام وأشركوا بالله ولهذا بعث الله سبحانه إليهم نوحاً عليه السلام بالإنذار والتخويف كما قال تعالى:

Marfat.com

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . . . ﴾ الآية[1].

وقد كان الناس قبل قوم نوح على دين الفطرة يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ولا يعرفون أوثاناً أو أصناماً وكانوا مؤمنين مقرين بوحدانية الله فلهذا لم يبعث لهم رسولاً ينذرهم ويحذّرهم، وأول رسول بعث بالإنذار والتخويف هو نوح عليه السلام أرسل إلى قوم يُدعون (بني راسب) كانوا قد راسخوا في الضلال، وازدادوا في الغيِّ والعناد، وعتوا عتواً كبيراً، فجاءهم بالدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، فما لقي منهم إلا كل صدود وإعراض، وتسفيه وتضليل، وسخرية واستهزاء، اقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمة من سورة نوح:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا . . . ﴾ الآيات[2].

ومما يدل على أن الناس كانوا مؤمنين قبل قوم نوح لا يعرفون الوثنية والإشراك قوله تعالى في بيان أسباب بعثة الرسل:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ . . . ﴾ الآية[3].

روي عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة أنه قال: كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿كانَ الناسُ أمّـة واحدة فـاختلفوا﴾.

---

(١) سورة نوح: الآيات (١ ـ ٣).

(٢) سورة نوح: الآيات (٥ ـ ٩).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

Marfat.com

وروي عن قتادة قال: كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبي بعث نوحٌ عليه السلام.

كيف انتشرت الوثنية وسبب عبادة الأصنام:

قلنا فيما سبق: إن قوم نوح هم أول من عبد الأصنام وأن الناس قبلهم كانوا على التوحيد والإيمان لا يعرفون وثنية ولا يعبدون أصناماً، والدليل على أن قوم نوح كانوا يعبدون الأوثان هو ما ذكره الله جل ثناؤه في كتابه العزيز مخبراً عن نوح:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [1].

وهذه الأصنام كانت أسماء لأناس صالحين، أو أسماء لملائكة مقرّبين أراد قوم نوح أن يتذكروا أعمالهم الصالحة فاتخذوا لهم تماثيل زعماً منهم أنهم بذلك لا ينسون ذكراهم ويتأسون بهم في صالح الأعمال ومع مضي الأزمان عبدت هذه الأوثان.

روي في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأم سلمة وأم حبيبة لما رأتا الكنيسة التي بأرض الحبشة وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها جميلة قال: «أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوَّروا فيه تلك الصورة، أولئك شرارُ الخلق عند الله عزّ وجل» [2].

وروى البخاري عن ابن عباس عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وداً ولا سُواعاً...﴾ قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنِ انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون

---

(١) سورة نوح: الآيات (٢١ ــ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، وانظر: فتح الباري ٣/٢٠٨.

Marfat.com

فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعْبَدْ، حتى إذاهلك أولئك وتنسّخ ـ أي تقادم ـ العلم عُبدت)[1]. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

أقول: ومن أجل ذلك جاءت الشريعة الإسلامية الغرّاء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح وتحرم اتخاذ التماثيل أياً كان الغرض منها. فقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[2]. وورد أيضاً فيه: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلبٌ، ولا صورة، ولا تماثيل، ولا جُنُب»[3]. وجاء أيضاً قوله ﷺ: «من صوّر صورة عذبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»[4].

وكل ذلك سداً للذرائع وصيانة للعقيدة حتى لا يقع الناس في الوثنية كما وقع قوم نوح ثم انتقل الشر والفساد إلى غيرهم.

صبر نوح على تكذيب قومه له:

لقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقة لأحد على تحمله ولا قدرة له عليه. فقد كان جهاده جهاد الأبطال، وصبره صبر الجبال، أوذي، وعذّب، واضطهد وهو ثابتٌ لم يكفّ عن تبليغ دعوة الله لمدة تقارب ألف عام، ولم يضعف عن إبداء النصح والتذكير ابتغاء مرضاة الله، وقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ليصدوه عن دعوته فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات. اتهموه بأنواع الاتهامات! وافتروا عليه أنواع الافتراءات فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصبراً وجهاداً، فكان من الأنبياء المقربين ومن أولي العزم الصابرين.

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب التفسير «تفسير سورة نوح» وانظر: جامع الأصول.

(٢) الحديث أخرجه البخاري؛ ومسلم في كتاب اللباس؛ وأحمد في المسند ١/٣٧٥.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق؛ ومسلم في اللباس؛ وأحمد في المسند ١/٨٣.

(٤) الحديث أخرجه البخاري؛ وأبو داود، وانظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١١/٧١٩.

Marfat.com

أنواع الاتهامات لنوح عليه السلام:

١ ـ اتهم عليه السلام بالسفه والضلال. قال تعالى:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

٢ ـ واتهم أيضاً بالجنون وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[٢].

وأخبر القرآن عن لسانهم:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ . . .﴾[٣] الآية.

٣ ـ واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٤].

٤ ـ وهُدِّد عليه السلام بالرجم قال تعالى:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[٥].

٥ ـ وقابلوه بالسخرية والتهكّم قال تعالى:

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٦٠ ـ ٦١).
(٢) سورة القمر: الآية (٩).
(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٥).
(٤) سورة هود: الآية (٣٢).
(٥) سورة الشعراء: الآية (١١٦).
(٦) سورة هود: الآية (٣٨).

Marfat.com

وهكذا تفننوا في إيذائه واتهامه ليفلّوا من عزمه، وهذه الافتراءات والاتهامات سلاح يستعمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعية مصلح، وهو ليس خاصاً بقوم نوح فقد قال المشركون لسيد الخلق محمد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

وقالوا أيضاً: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾. وقالوا كذلك: ﴿إِنَّ هذا لساحِرٌ كذّابٌ﴾ وهكذا يستعمل الأشرار والفجار هذا السلاح في وجه كل نبي وداعية. فينبغي أن يتنبّه الدعاة والمصلحون إلى هذا النوع من الحرب الباردة.

دعوة نوح عليه السلام لقومه:

حياة نوح عليه السلام حياة شاقة مريرة، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة فقد أقام بينهم قروناً ودهوراً فلم ير إلا آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجرة. لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحاً ازدادوا له عناداً، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالاً وفساداً، وظلوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره، وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاماً داعياً، مذكّراً، ناصحاً، وسلك جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان فلم يفلح معهم أبداً، وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع كل ذلك لم تَلِن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يفتأ يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرّح ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه

---

(١) سورة الحجر: الآية (٦).

Marfat.com

في حصير ويرمون به في الطريق ويقولـون: إنه سيمـوت بعد هـذا اليوم، فيعيـد الله سبحانه إليه قوته فيرجـع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلـك، وهكذا بقي يؤذى ويعذّب وهو مـع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعـذاب وإنما كـان يؤمّل فيهم أو في أبنـائهم الخير والصـلاح، ويقول لعـل الله يخـرج من أصـلابهم من يستجيب لـدعوتي ويؤمن بـالله ولكن مـع هذه المـدة الطويلة لم يؤمن معـه إلا القليـل منهم، وكان كلما انقرض جيل جاء مَنْ بَعدَه أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به، وكان الوالد يقول لولده إذا بلـغ وعقل: يا بُنيَّ احذرْ هذا لا يغـرنّك عن دينك وآلهتك، ولهذا دعا عليهم نوح بعد أن يئس من إيمانهم فقال:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١].

فكان بعد ذلك الطوفان.

روي عن ابن مسعـود أنـه قـال: «كـأني أنـظر إلى النبـي ﷺ يحكي نبيـاً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسـح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢].

نوح يصنـع الفُلْك:

لما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمـان، وأوحى الله سبحـانه إليـه بأنـه لن يؤمن من قومـه بعد هؤلاء المؤمنين أحـد كما قـال تعالى:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة نوح: الآيتان (٢٦ ـ ٢٧).
(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) سورة هود: الآية (٣٦).

Marfat.com

عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء على قومه بالهلاك والدمار فاستجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان فلا يُبقي منهم أحداً، وأوحى إليه أن يصنع الفلك (السفينة) ليركب فيها هو وجماعته المؤمنين، ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع الفلك ولذلك أوحى الله إليه صنعها وعلّمه كيف ينبغي أن تكون، كما قال تعالى:

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾(1).

وإنما أمره بعدم مراجعته في شأنهم لأن عذاب الله إذا جاء فلا يرد عن القوم المجرمين ولعلّه قد تدركه رقة عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالعيان.

وأخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة تحت أمر الله ووحيه، وجعل قومه يمرّون عليه فيهزأون عليه ويسخرون ويقولون له: يا نوح قد كنت بالأمس نبياً واليوم قد صرت نجاراً، ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو جادٌّ عليه السلام في عمله فكان يجيبهم بقوله:

﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾(2).

ولما انتهى من صنعها أمره الله سبحانه أن يحمل معه أهله وجماعته المؤمنين وأن يحمل فيها من الحيوانات من كل صنف زوجين (ذكروأنثى) اثنين، ومن سائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، ثم جعل له علامة وهو (فوران التنور)، والمراد به على رأي جمهور المفسرين وجه الأرض أي أن تنبع الأرض من سائر أرجائها فذلك وقت ركوب السفينة مع المؤمنين بعد ذلك سيكون الطوفان والغرق لجميع سكان الأرض ولا ينجو من الغرق إلا ركاب السفينة. فلما ظهرت

---

(1) سورة هود: الآية (٣٧).
(2) سورة هود: الآيتان (٣٨ ــ ٣٩).

Marfat.com

العلامة ركبوا في السفينة وأرسل الله من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القُرَب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، كما قال تعالى في سورة القمر:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾(١).

وارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً، وعمّ جميع الأرض طولها وعرضها، سهلها وحَزْنها، جبالها وقفارها، ولم يبق على وجه الأرض ممّن كان بها من الأحياء عين تَطْرِف. فقد غمرهم الماء، وجرفهم الطوفان، ولم ينج إلا ركاب السفينة، ولهذا يسمى نوح عليه السلام (أبا البشر) الثاني لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح، حتى ابن نوح الذي لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه في السفينة كان من الهالكين، اقرأ هذا النص الكريم:

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة القمر: الآيات (٩ ـ ١٤).

(٢) سورة هود: الآيات (٤١ ـ ٤٤).

Marfat.com

أولاد نوح عليه السلام:

كان لنوح عليه السلام أربعة أولاد هم (سام، وحام، ويافث، وكنعان) أما كنعان فقد هلك مع الهالكين لأنه كان من الكافرين وأبى أن يركب مع أبيه في السفينة، وقال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فلم ينج من الغرق مع أنه صعد إلى أعلى جبل هناك، ولم يكتب الله له السعادة حتى يستجيب لنداء والده حين ناداه بقوله: يا بني اركب معنا بل ظن أنه سينجو بصعوده الجبل فباء بالخيبة والفشل، وحين دعا نوح ربه أن ينجي ولده هذا وقال: ﴿رَبِّ إنّ ابني مِنْ أهلْي وإنّ وَعْدَكَ الحقُ وأنتَ أحكمُ الحاكمين﴾ عاتبه الله سبحانه بقوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وأما أولاده الثلاثة فنجوا وجاء من نسلهم أهل الأرض، فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنا ذُرّيَتَهُ هُمُ الباقين﴾، فسام هو أبو العرب، وحام هو أبو الحبش، ويافث هو أبو الروم، وقد ورد في ذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة منها ما رواه أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[2]، وروى البزار في مسنده أن النبي ﷺ قال: «ولِدَ لنوحٍ سامٌ، وحامٌ، ويافث، فَوُلِدَ لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج» إلخ.

انتهاء الطوفان بعد هلاك الكافرين:

وبعد أن غرق أهل الأرض ولم يبق على وجهها من الكافرين أحد أمر الله السماء أن تكف عن المطر، وأمر الأرض أن تبتلع المياه التي غمرتها وأن تعود

---

(١) سورة هود: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦). (٢) انظر مسند الإمام أحمد.

Marfat.com

الحياة كما كانت على ظهر الأرض، وكانت السفينة قد وصلت إلى جبل يسمى (الجودي) وهو جبل عظيم إلى جانب دجلة (عند الموصل) في العراق وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض:

وحين استقرت السفينة بجبل (الجودي) أمر الله نوحاً ومن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات من العزيز الرحمن:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾[2].

وكان نزولهم من السفينة (يوم عاشوراء) من المحرَّم بعد أن بقوا فيها (١٥٠) يوماً فصام نوح ذلك اليوم شكراً لله وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه، وقد توارث بنو إسرائيل صيام ذلك اليوم، وجاء الإسلام فأقر صيامه.

روي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة المنورة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نجّى الله تعالى فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال ﷺ أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»[3].

وأخرج الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله»[4].

---

(١) سورة هود: الآية (٤٤).

(٢) سورة هود: الآية (٤٨).

(٣) الحديث أخرجه البخاري.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في سننه.

Marfat.com

المدة التي أقاموها في السفينة :

ذكرنا فيما سبق أن مدة بقائهم في السفينة كانت مائة وخمسين يوماً وهذه الرواية منقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنه قال كما ذكره (ابن كثير) في البداية والنهاية: (كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى الجوديّ فاستقرت عليه)[1].

وقد توفي نوح عليه السلام بعد أن مكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة قبل الطوفان وعاش بعده مدة الله أعلم بها، وروي عن ابن عبّاس أنه عمَّر أكثر من ألف سنة، وهي أطول حياة عاشها إنسان ولكنَّ الصحيح المقطوع بصحته ما ذكرناه وهو ما قصه القرآن الكريم أنه عاش مع قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين عاماً. وقد دفن بقرب المسجد الحرام بمكة المكرمة على الراجح من الأقوال رحمه الله رحمة واسعة. ومن خصائصه أنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأطول الأنبياء عمراً، وشيخ المرسلين، وأنه أول نذير عن الشرك، وأول داع إلى الله، وقد سمّاه الله عبداً شكوراً، وجعله بعد محمد في الميثاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/٩٨.

Marfat.com

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام

ـ ٢ ـ

حياته عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

من سورة مريم: الآية (٤١)

إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو الجد الأكبر لرسول الله ﷺ إذ هو من ولد إسماعيل، وإسماعيلُ هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله ﷺ، وقد خصّ الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للمرسلين، واختاره من بين الرسل والأنبياء بالخُلّة والاصطفاء، فهو (خليل الرحمن) ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا عقب الأجيال، فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله لأنهم من أولاد (يعقوب بن إسحٰق) وإسحٰق هو ابن إبراهيم، فمن إبراهيم تتفرّع شجرةُ النبوة، حتى خاتم الرسل صلوات الله عليه من نسله لأنه من ولد إسماعيل قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

وقد ابتلي الخليل عليه السلام بأنواع من الابتلاء، وامتُحن بضروب من الامتحان فصبر، وكان في إيمانه مثل الجبال الرواسخ، لم يتزعزع ولم يضطرب

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٧).

Marfat.com

ولم يدخل إليـه وهنٌ أو ضعف، وكان أشـدّ هذه المحن عليـه حين أُمِر بـذبـح ولده (إسماعيل)، ولكنه كان مثالاً للعبوديـة والطاعـة، والإذعان لأوامـر الله، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء، بل جعله أمةً بمفرده، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ولا عجب أن نـرى الثناء العـظيم من الله تعالى عليـه فهو أبو الأنبيـاء، وإمام الأتقياء، ورمز الإيمان، ابتُليَ فصبر، وانتصر فشكر، فكان عبداً وفياً، ولذلك اختاره الله خليلاً:

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2].

نسب إبراهيم عليه السلام:

هو إبراهيم بن تـارح، بن ناحـور، بن ساروغ. . . ينتهي نسبـه إلى (سام بن نوح) وبينه وبين نوح عليه السلام مدة تـزيد على ألف عـام، وهذا النسب هـو الذي ذكره المؤرخون نقلاً عن التوراة وأنّ اسم أبيه هو (تـارح)، وأما القـرآن الكريم فقـد ذكـر أن اسم أبيه هـو (آزر) وهذا هـو الصحيـح الـذي يُعـوّلُ عليـه. وأمـا مـا ذكـره المؤرخون بناءً على مـا في التوراة، فـإنّ من المقطوع بـه عند المسلمين أن التـوراة والإنجيـل قـد دخـل إليهمـا تحـريف كبير فلم يعـد مجـال للوثـوق بمـا فيهمـا من النصوص، ومن العجب أن بعض المفسرين سـاروا في ركاب المؤرخين فـادعوا أن اسم أبي إبراهيم هو تارح وزعموا أن آزر هو عمّه، ولعل الذي دفعهم إلى هذا تنزيه ساحة إبراهيم عليه السلام أن يكون ـ وهو أبو الأنبياء ـ من والد مشرك واستعظموا الأمر، مـع أنّ الأمر ليس فيه ما يخلّ بمقام إبراهيم أو ينقص من قدره، فإنّ الهدايـة بيد الله، يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وهو أعلم بـالمهتدين، فزوجـة (فـرعون) مؤمنة، وولد (نوح) كافر، ولم ينقص ذلك من قدر أحدٍ من الأنبياء شيئاً.

---

(١) سورة النحل: الآية (١٢٠).
(٢) سورة النساء: الآية (١٢٥).

Marfat.com

وقد أخبرنا المعصوم ﷺ أن والد إبراهيم هو (آزر) وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «يَلْقى إبراهيم أباه (آزر) يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرة (أي سواد وغبار) فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك.. فيقول إبراهيم: يا ربِّ إنك وعدتني ألاّ تُخْزني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذبح متلطّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار...»[1]. فهذا الحديث نصّ على أن اسمه آزر وهو الحق الذي لا محيد عنه.

قال (ابن كثير) رحمه الله ما نصه:

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذُ أصنْاماً آلهة؟...﴾ الآية. وهذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم (آزر) وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل: إنه لُقّبَ بصنم كان يعبده اسمه آزر، وقال (ابن جرير): والصواب أن اسمه آزر كما ذكر القرآن، ولعلّ له اسمان علمان أو أحدهما لَقَبٌ، والآخر علمٌ، وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم[2].

كنية إبراهيم عليه السلام:

روى ابن عساكر عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى (أبا الضيفان) أقول: ولعل هذه التكنية إنما جاءته من كثرة ضيوفه فقد كان إبراهيم عليه السلام كريماً مضيافاً، لا ينزل به أحد إلاّ أحسن ضيافته وأكرم نُزله، وكان سخي النفس يذبح لضيوفه الشاء والنعم، وقد ذكر ابن جرير عن السّدي أنه قال: (كانَ إبراهيم كثيرَ الطعام يطعم الناس

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٨٧؛ ومسند أحمد ٤/٥٣.
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٤٢.

Marfat.com

ويضيفهم. . .) إلخ . وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع ضيوفه (الملائكة) حين جاءوا لإهلاك قوم (لوط) فمرّوا على إبراهيم في طريقهم ليبشّروه بغلام، فلما رآهم ظنهم من البشر فأسرع إلى أهله فذبح لهم عجلاً ثم شواه وقدّمه لهم فلم يأكلوا، فوقع في نفسه الريبة منهم، وأخذ ينظر إليهم بغرابةٍ وحذرٍ، حتى أخبروه أنهم من الملائكة، قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة صورة ناطقة عن كرم (إبراهيم) الخليل حين كان يذبح لضيوفه الإبل والبقر مع أنه لايعرفهم، ولكنها أخلاق العظماء وصفات الكرماء، ولقد اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة من (إسماعيل) بن إبراهيم الذي عرف بالجود والكرم، (ومن يشابه أبه فما ظلم).

ولادة إبراهيم عليه السلام:

يذكر بعض المؤرخين أن إبراهيم عليه السلام ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها: (برزة) في جبل (قاسيون) والصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ أنه ولد (ببابل) وهي أرض الكلدانيين في العراق. قال (ابن كثير) بعد أن ذكر الرواية الأولى: والصحيح أنه ولد بـ (بابل) وإنما نسب إليه هذا المقام (يعني ولادته بغوطة دمشق) لأنه صلّى فيه إذ جاء معيناً لابن أخيه (لوط) عليه السلام[2].

ولد إبراهيم عليه السلام بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة، وكان هو الولد الأكبر لآزر، وقد جاء من بعده أخواه (ناحور) و (هاران) وولد (لهاران) (لوط) عليه

---

(١) سورة الذاريات: الآيات (٢٤ ــ ٢٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٤٣.

Marfat.com

السلام فهو ابن أخ إبراهيم، وأهل الكتاب يقولون إن إبراهيم هو الولد الأوسط، وإنّ (هاران) مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل، والصحيح الأول.

وقد تزوج إبراهيم عليه السلام حين شبّ وكبر بامرأة تدعى (سارة) وكانت سارة عاقراً لا تلد، وهاجر إبراهيم عليه السلام مع والده وزوجته فخرجوا من أرض الكلدانيين (أرض العراق) إلى أرض الكنعانيين وهي (بلاد المقدس) فأقاموا (بحرّان) وهي بلدة قريبة من الشام، وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة وكان أهل الشام وأهل الجزيرة ـ كما يروي ابن كثير ـ على هذه العقيدة الضالّة يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة، ولهذا كان على كلّ باب من أبواب دمشق السبعة القديمة (هيكل) لكوكب فيها، وكانوا يعملون لها أعياداً وقرابين، وهكذا كان أهل (حرّان) يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض ـ في ذلك الزمان ـ كانوا كفاراً سوى إبراهيم عليه السلام وامرأته (سارة) وابن أخيه (لوط) عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل ذلك الضلال، حيث بعثه الله بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، وآتاه رشده منذ الصغر؛ فكان قويّ العزيمة، ثاقب النظر، يجادل قومه ويناظرهم فيقيم عليهم الحجّة ويدمغهم بالبرهان الذي أيده الله تعالى به فلا يستطيعون له رداً.

دعوة إبراهيم لأبيه آزر:

قصّ علينا القرآن الكريم دعوة (إبراهيم) عليه السلام لأبيه، فقد كان أبوه مشركاً ممن يعبد الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له إنما هو أبوه، ولهذا لم يألُ الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه، وتحذيره من عذاب الله، وقد كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البارّ الذي لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ عليه في الكلام، ولم يعنّفه أو يزعجه، بل إنه خاطبه بكل أدبٍ ووقار وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة، فبيّن له في محاورته ومجادلته بطلان ما هو عليه

Marfat.com

من عبادة أوثان وأصنام، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً، وذكّره بأنّ هذه الأصنام إذا لم تستطع أن تدفع الضُّرَّ عن نفسها ولا أن تجلب الخير والنفع إليها فكيف تستطيع أن تدفعه عن غيرها، أو كيف تستطيع أن تحقّق لعابدها ما يرجوه منها مع أنها تفقد القدرة والقوة على عمل شيء من الأشياء؟ وهكذا مضى إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه بالحكمة والموعظة الحسنة في أدب ووقار، ولكن أباه لم يستجب لهذا النصح، ولم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان بل أصرّ على الضلال والعناد، وهدّد ولده بالقتل والضرب فيما إذا عاد إلى ذكر آلهته المزعومة بالسوء أو الشرّ اقرأ قوله تعالى في سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[1].

وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه، كما وعده فطلب له من ربه المغفرة والرضوان، ﴿واغفِرْ لأبي إنهُ كانَ منَ الضَالين﴾ وكان هذا الاستغفار طمعاً من إبراهيم في إيمان أبيه، ولكنّه حين ظهر له إصرار أبيه على الشرك والوثنية، وعداوته المتأصلة لدين الله، عند ذلك تبرأ إبراهيم من أبيه وقطع صلته به، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[2].

---

(١) سورة مريم: الآيات (٤١ ـ ٤٧).
(٢) سورة التوبة: الآية (١١٤).

Marfat.com

وفي هذا درس بليغ لأهل العقيدة والإيمان، ليقتدوا بالرسل الكرام، ويسيروا على نهجهم الكامل وسيرتهم العطرة، فإبراهيم يتبرأ من أبيه ونوح يتبرأ من ابنه، وهذا هو كمال الإيمان، فليس هناك صلة أقدس أو أعظم من أخوّة الدين لأن رابطة الدين فوق رابطة النسب، وهذه هي المُثُل الكاملة في دعوة أنبياء الله، استمع إلى قوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١).

أفليس في هذا برهاناً واضحاً على صدق إيمان الخليل عليه السلام؟ أوليس في تبرّئه من أبيه ومجاهرته بالعداء، ما يثبت انقطاع الصلة بين الوالد وولده حينما تنعدم روابط الإيمان؟ ولكن لا عجب فإنه إبراهيم الخليل أبو الأنبياء الذي ضرب أروع الأمثلة في صدق العقيدة وصدق الإيمان، ولذلك استحق أن يكون خليل الرحمن.

نشأته بين قومه:

نشأ (إبراهيم): عليه السلام وسط بيئةٍ فاسدة يحكمها ملك طاغية، مستبد برأيه اسمه (النمروذ بن كنعان) قبض على زمام الملك في (بابل) وكان أهلها ينعمون برغد العيش، وظلال الأمن، غير أنهم كانوا يتخبطون في ظلام دامس من الشرك والوثنية، ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يجعلونها أرباباً من دون الله.

ولما رأى (النمروذ) نفسه حاكماً مطلقاً، تحيط به قوة الملك والسلطان، والقوم حوله يتخبطون في الجهالات، أقام نفسه (إلٓهاً) ودعا الناس إلى عبادته، لأن عبادتهم للأصنام وجهلهم بصفات الإلٓه سوّغت له هذه الدعوى الباطلة. فالأصنام

---

(١) سورة الممتحنة: الآية (٤).

Marfat.com

لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، وهو ينطق، ويفكر ويدرك ويحس ويشعر، ويفيض عليهم الخير، ويدفع عنهم الشر، فلم لا يكون إلهاً؟ فهو أحق بالعبادة من هذه الأحجار التي عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله.

نشأ إبراهيم عليه السلام في هذا المحيط، وآتاه الله الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره، أنّ الله تعالى واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وأنه مهيمن على الكون، مسيطر على العالم، وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم من الله شيئاً، لذلك عزم على تخليص قومه من هذا الشرك وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء.

كان إبراهيم مفعمَ القلب بالإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بوعد الله بالنصر له، موقناً بما أوحى الله تعالى إليه من أمر الغيب، وأمر الإيمان، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وثقة ويقيناً بقدرة الله عز وجل، فطلب من ربه أن يريه الآية البيّنة على البعث، وأن يطلعه على النشور، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم، فخاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(1).

لقد آمن إبراهيم وصدّق، ولكن تاقت نفسه للعيان، وامتدت عينه للمشاهدة ليرى عجائب قدرة الله، ويبصر دقائق خلقه وتصويره، وليطمئن قلبه ويزداد يقينه، فأجاب الله سؤاله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويضمّها إليه، ليتعرف أجزاءها، ويتأمل خلقها، ثم يذبحها فيجعلها أجزاءً، ويفرّقها أشلاء، ويجعل على كل جبلٍ منها جزءاً مختلطاً بغيره من الأجزاء، ثمّ يدعوهنّ إليه فيأتينه سعياً بإذن الله. فلما فعل صار كل جزءٍ ينضمّ إلى مثله، وعادت الأشلاء كلٌ في مكانه، وسرعان ما سرت فيها الحياة، وسعت إليه بقدرة الله وهو يرى آياته البينة في الخلق والإبداع، سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، اقرأ قوله تعالى:

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

Marfat.com

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

مناظرة إبراهيم لقومه:

كان إبراهيم عليه السلام دائباً في الدعوة إلى الله، لا يفتأ يذكّر قومه وعشيرته بالرجوع إلى الله، دعا أباه إلى الإيمان فأبى عليه، ثم دعا قومه فتنكّروا لدعوته وسخروا من رسالته، ولكنّه كان رحيماً رفيقاً، وبرّاً تقياً، فلم يشأ أن يتركهم في ضلالهم يعمهون، بل عزم أن يمحو منهم تلك العقائد الباطلة، ويردّهم إلى رشدهم ولو ناله منهم أذى كثير، أو تعرضت حياته للخطر.

لقد كان إبراهيم ذكياً صائب الرأي، وقد علم أن (الحجة) و(البرهان) اللّفظيان وإن وضحا وضوح الصبح لا ينبتان نباتاً حسناً في هذه الأرض الجُرُز، ما لم يقارنهما الحسّ والبصر، لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وأن يقرن حواسهم مع أفئدتهم، لعلهم يرجعون عن غيّهم، ويدركون بأنفسهم تفاهة ما هم عليه من عبادة حجارة لا تنفع ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً.

كان لقومه يوم عيد كبير، يخرجون فيه خارج المدينة، يقضون الأيام في التسلية والترويح عن النفس، فلما خرجوا لعيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، فأبى أن يصحبهم، وعزم على أن يهدم صرح آلهتهم، فتظاهر بالسّقم ـ ولم يكن به علة، ولكنه كان سقيم النفس من عبادتهم ـ ولمّا خلا له الجوّ مع أصنامهم، صار يلطمها بيده، ويركلها برجله، ثمّ تناول فأساً وهوى عليها يكسّرها، حتى جعلها (جُذاذاً) قطعاً صغيرة محطّمة، متناثرة هنا وهناك، وترك صنماً كبيراً لم يكسره ليقيم الحجة به عليهم، فعلّق في عنقه الفأس الذي كان قد حطّم به تلك الأصنام.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

Marfat.com

عودة قومه من عيدهم:

رجع قومه من عيدهم وسرعان ما هرعوا نحو المعبد ـ كعادتهم ـ ليقدّموا فروض الولاء والطاعة لأصنامهم، ولكنهم ذُهِلوا وبهتوا من هول ما رأوا. . لقد رأوا آلهتهم ركاماً وهشيماً، متناثرة في أطراف المعبد، يعلوها الذلّ والصغار فنادوا بصوت واحدٍ، اهتزت له جنبات الأرض: ﴿من فعلَ هذا بآلهتنا إنّهُ لمنَ الظالمين﴾.

وسكت الجميع هنيهة وهم في غمرة الذهول والخشوع، أمام هذه الآلهة المحطّمة، ثمّ انطلق صوت من بين أظهرهم يذكّرهم بتوعد إبراهيم لأصنامهم: ﴿قَالُوا سَمْعنا فتىً يذكُرُهُم يُقالُ لَهُ إبراهيم﴾، فلا بدّ أن يكون هو إذاً المحطّم للأصنام. اعتزموا على أن يوقعوا به أشدّ العذاب، وأن يجعلوه عبرةً لمن يعتبر، جزاء ما صنعت يداه، فنادوا بأن يأتوا به على أعين الناس، ليشهدوا عليه بمقالته، ويروا ما يحل به من شديد العقاب.

ولا شكّ أن اجتماع القوم في صعيدٍ واحد، كانت (أمنية) لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ليقيم لهم الحجة على بطلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان، على فساد ما هم عليه عاكفون. تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجموع، كلّ يرغب في القصاص منه، ويود رؤية عقابه وعذابه، إرضاءً لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر، وابتدأوا محاكمته على رؤوس الأشهاد.

المحاكمة:

تقدّم إبراهيم للمحاكمة، وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب والنقاش وعرضت عليه تلك الأسئلة: ﴿أأنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟﴾.

لقد كان إبراهيم حكيماً داهية، سار بهم في الجدال إلى ناحية أخرى، ليبلغ مقصده ويبلّغ رسالته، مهما كانت النتائج. . وجرّهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا، فاسألوهُم إن كانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

Marfat.com

صفعهم بهـذه الحجة الـدامغـة، التي نبّهتهم من غفلتهم، وأيقـظتهم من غفوتهم، فأقبـل بعضهم على بعض يتلاومـون وقالـوا: ﴿إنّكم أَنْتُمُ الظالمـون﴾ لقد تـركتموهـا لا حافظ لها ولا رقيب عندهـا فحـطّمهـا من لا يؤمن بهـا. ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا مفكرين، ثم توجّهوا بالكلام مـع إبراهيم:

﴿لقَدْ عَلمتَ ما هَؤلاء يَنْطِقُون!!﴾ لقـد عرفت يـا إبراهيم أنّ هـذه الأصنام لا تردّ سؤالاً، ولا تسمـع كلاماً، فكيف تأمرنا بسؤالهـا وهي حجارة صمـاء جامـدة. فلما أقرّوا بعجز الآلهة، وقصورها عن معرفة ما يجري حولها، وجـرّدوها من القـدرة على دفـع العدوان، وصـدّ كيد المعتـدين.. حينئذٍ ظهـرت حجة إبـراهيم واضحة، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السويّ السليم، فأخذ يبكّتهم على جهلهم، ويوبّخهم على ثباتهم على باطلهم بعد وضوح الحق وسطوعه كالشمس في رابعـة النهار:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

فلما غلبوا على أمرهم، وخافـوا افتضاح حـالهم، ولم تبق لهم حجة أو شبهـة يكابرون بهـا، عمدوا إلى القـوة يسترون بهـا هزيمتهم، ويخفـون باطلهم فقـالـوا: ﴿حرّقوه وانصروا آلهتكُم إنْ كُنتُم فاعِلين﴾.

إبراهيم يلقى في النار:

أرادوا أن يحرّقوه عقاباً له، ولكن كيف يحرّقـونه؟ لا بـدّ أن يصلوه ناراً حـامية تعادل لظى الحقد المتأجّـج في صدورهم من جراء انتهاك حرمة آلهتهم المزعـومة، وتحطيمها دون مبالاة.

شرعوا يجمعون الحطب من هنـا وهناك، وجعلوا ذلـك قربـاناً لآلهتهم، وبـراً بمعبوداتهم حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعنّ حطباً لحـرق

---

(١) الآيات هنا كلها من سورة الأنبياء في قصة إبراهيم مـع قومـه، انظر: بـداية الآيـات من قولـه سبحانه: ﴿ولقـد آتينا إبـراهيم رشده من قبـلُ وكنا بـه عالمـين﴾ من (٥١ ــ ٧٠) في الصفحة التالية.

Marfat.com

إبراهيم. مكثوا مدة يجمعون الحطب حتى تراكمت أعواده، وضاق المكان بما جمعوا، فأشعلوا النار فيها فاضطرمت وتأجّجت، وعلا لهبها وسطع ضوءها ثمّ قيّدوه ورموا به فيها، ولكنّه كان في رعاية الله وكلأه، فلم تحرق منه النار إلا الوثاق، وجاءه النداء الرباني: ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم﴾.

وهكذا ظهرت آية الله الكبرى في حفظ عبده ورسوله (إبراهيم) الخليل عليه صلوات الله وردّ الله كيدهم في نحورهم ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

اقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ
﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1].

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات (٥١ ـ ٧٠).

Marfat.com

زواج إبراهيم عليه السلام:

لمّا شب إبراهيم وكبر تزوج بامرأة تسمى (سارة) وكانت سارة امرأة عقيماً لا تلد، ولذلك تزوج معها (هاجر) أم إسماعيل عليه السلام ثم رزقه الله على الكبر ولداً من (سارة) يسمى (إسحٰق) وذلك بعد أن بشرتها الملائكة به فصكّت وجهها وقالت ﴿يا ويْلتى أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ؟؟﴾ فأجابتها الملائكة:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(1).

وهكذا رزق الله إبراهيم الخليل ولداً من سارة على الكبر، فكان ذلك آية على قدرة الله تبارك وتعالى واستجابة لدعوة الخليل عليه السلام:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(2).

وقد هاجر إبراهيم مع والده وزوجته فخرجوا من أرض (الكلدانيين) إلى أرض (الكنعانيين) وهي بلاد المقدس، فأقاموا قريباً منها في منطقة تسمى (حرّان) وفيها توفي والد إبراهيم وعمره حين الوفاة ٢٥٠ عاماً، وكان أهل (حرّان) يعبدون الكواكب السبعة فكانوا من الصابئة وقد انتشرت بينهم الوثنية وعبادة الأفلاك. قال (ابن كثير) في تاريخه:

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين وهكذا

---

(1) سورة هود: الآيتان (٧٢ ــ ٧٣).

(2) سورة إبراهيم: الآية (٣٩).

Marfat.com

كان كلّ أهل حرّان يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته، وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

مناظرة إبراهيم الخليل للنمروذ:

عاش إبراهيم الخليل في زمنٍ عصيب، كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال، وقد ظهر في زمانه الملك الجبّار المتمرد، الذي ادّعى لنفسه الربوبية، ونازع الله في عظمته وسلطانه، فادّعى أنه الإلّه من دون الله، وهذا الجبّار يسمى (النمروذُ بن كنعان) وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة، فإنه قد ملك الدنيا ـ فيما ذكروا ـ أربعة: مؤمنان، وكافران. . أما المؤمنان فهما (ذو القرنين) الذي ذكره القرآن في سورة الكهف، و (سليمان بن داود) عليهما السلام. وأمّا الكافران فهما (النمروذُ) و (بختنصر) وأمّا غيرهم فلم يملك الدنيا وإنما ملك بلداً أو بلاداً منها مثل (فرعون) فقد كان يملك أرض مصر. . .[2].

وقد ذكر المؤرخون أن (النمروذ) هذا قد استمرّ في ملكه ٤٠٠ سنة وكان قد طغى وبغى، وتكبّر وتجبّر، وادّعى لنفسه الربوبية فناظره الخليل عليه السلام، فسفّه عقله وأبطل حجتّه وألقمه الحجر، وكانت أول مناظرة معه أنه حينما دخل عليه الخليل سأله (النمروذ): من ربّك يا إبراهيم؟ وهل لك ربٌ غيري؟ فأجابه الخليل بكلام العقل والإيمان قال: ﴿ربي الذي يُحيي ويُميتُ﴾ أي إنه الإلّه العظيم القادر، الذي يحيي الإنسان من العدم ثم يميته ثم يبعثه فهو على كل شيء قدير،

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٢٤٠، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/١٤٠.

Marfat.com

فالإحياء والإماتة مظهر من مظاهر قدرة الله، ولكنّ النمروذ السفيه الأحمق ضحك منه ساخراً وعارضه بقوله: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أي إنني أستطيع أن أفعل ما يفعله إلٰهك، قال له: وكيف؟ قال انتظر فدعى حاجبه فقال له: اذهب فائتني برجلين من السجن قد استوجبا القتل (أي حكم عليهما بالإعدام) فذهب الحاجب فأتى له برجلين فوقفا بين يديه فأمر الجلّاد أن يضرب عنق أحدهما فضربه فمات، فقال النمروذ هذا أمتّه وأمر بإطلاق سراح الثاني فأطلق فقال: وهذا أحييته.. وهكذا بمنتهى السخف والحماقة أراد أن يظهر قدرته على (الإحياء والإماتة) اللتان هما من خصائص قدرة الله ومن صفاته الأزلية، بهذه الطريقة السخيفة الهزلية، أعدم إنساناً فأماته، وعفى عن آخر فأحياه، وذلك هو منتهى الجهل والغباء.. فلما رأى الخليل عليه السلام حقارته وقلة عقله، وغباء تفكيره انتقل معه إلى أمر لا يمكنه اللجاج فيه والجدل لأنه أمر قاطع، يقصم ظهر المكابر، ويلجم كل معاند فقال له الخليل: ﴿إن الله يَأتي بالشمسِ منَ المشرقِ، فَأْتِ بها مِنَ المغربِ﴾ وهنا الحجة الدامغة التي لا تنفع معها المجادلة والمكابرة، لأنها أمر بيِّن: إن كنت حقاً إلٰهاً تستطيع أن تفعل كل شيء فغيِّر نظام الكون، وغيِّر نظام الحياة، أطلع الشمس من المغرب وهنا انقطع الجدل وبهت الذي كفر. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(١).

وهكذا جلجل صوت الحق وخفت صوت الباطل (فالحق أبلج والباطل لجلج).

وقد ذكر (السدّي) أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم والنمروذ يوم خروجه من النار ولم يكن اجتمع به قبل ذاك، فجرت يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

Marfat.com

رحلة إبراهيم إلى مصر:

عمَّ القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر، تصحبه زوجه (سارة) وكانت سارة ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وكان رجلاً جباراً، وهو أحد ملوك العرب العماليق واسمه (سنان بن علوان) وكان من عادة هذه الطاغية الجبّار أنه لا يسمع برجلٍ عنده امرأة جميلة إلا وأخذها منه اغتصاباً، فلمّا نزل إبراهيم أرض مصر أراد هذا الفاجر أن يعتدي على (سارة) زوج إبراهيم ويستأثر بها لنفسه، فدعاه وسأله عمّا يربطها به من قرابة، فقال له إبراهيم هي (أختي) وقصد بذلك أخوّة الدين ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فأمر به فأخرج، فأتى (سارة) فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنّك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنّك أختي ـ فإنّك أختي في الإسلام ـ ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها الملك الجبار فأتي بها فلمّا دخلت عليه فتن بجمالها فسألها عن إبراهيم فأخبرته أنها أخته، ولكنّ الفاجر أراد بها السوء فمدّ يده إليها يريد أن يجذبها نحوه فيبست يده فلم يعد يستطع حراكها، واضطرب حتى كاد يصعق من شدة الهول والفزع، فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرّك، فدعت الله فأطلق، فلما عاد إلى حالته الأولى حدثته نفسه الغدر بها مرة ثانية، فَأُخِذَ مثل الأولى أو أشدّ، فطلب منها أن تدعو الله له على أن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء، فدعت الله فعاد كما كان، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنّما أتيتني بشيطان، فأمر بها أن تطلق، وأخدمها جارية من جواريه تسمّى (هاجر) وكان إبراهيم من وقت ذهابها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله السوء، فلما أقبلت أومأ إليها إبراهيم بيده يسألها فقالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدمني هاجر[1] قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء، فعصمها الله وصانها إكراماً لخليله عليه السلام[2].

---

(١) أي أعطاني هذه الجارية «هاجر» ومنحني إيّاها كخادمة تخدمني.

(١) القصة رواها البخاري ومسلم وهي في كتب الصحاح، وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٨٨/٦.

Marfat.com

ولادة إسماعيل عليه السلام:

هاجر سيدنا إبراهيم من مصر إلى فلسطين ومعه زوجه (سارة) وأمتها (هاجر) وكانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى زوجها وحيداً ليس له ولد، وقد أصبحت هي على حال لا يرجى أن تأتي بعده بوليد، لأنها قد جاوزت سنّ السبعين، وبلغت من الكبر عتياً، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها بعد أن وهبتها له، لعلّ الله يرزقه منها غلاماً زكياً تشرق به حياتهما ويكون عوناً لأبيه على تحمّل مشاق الحياة، فاستجاب إبراهيم لرأيها وخضع لإشارتها فلما تزوج (هاجر) أنجبت له غلاماً زكياً هو سيدنا (إسماعيل) عليه السلام الذي كان من نسله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهناك انتعشت نفس إبراهيم بعد أن رزقه الله هذا الغلام على كبر من السن حيث كان قد بلغ من العمر ٨٦ سنة.. ولعلّ (سارة) قد شاركت إبراهيم في سروره، ولكنّ الغيرة لم تلبث أن دبّت إلى قلبها، بل عصفت بها أعاصير كثيرة من الحزن والألم، فحرمت الهدوء والهجوع، وأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر، فلم تجد دواء لقلبها العليل إلا أن تطلب من إبراهيم أن يقصيها هي وولدها عن دارها، وأن يبعدها عن عينها ـ وذلك لحكمة يريدها الله ـ وكان الله قد أوحى إليه أن يطيع أمرها، ويستجيب إلى رجائها.. فأخذهما إبراهيم وسار بهما يقطع الصحارى والقفار، حتى بلغ جبال مكة الجرداء، فوضعهما في ذلك المكان القفر، الذي ليس به ساكن ولا سمير، ولم يكن بمكة في ذلك الوقت أحد، ولم يكن بها دار أو بنيان، تركهما في ذلك المكان المقفر عند دوحة قرب زمزم، وترك لهما جراباً (أي كيساً) فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم أراد العودة إلى بلاد فلسطين، فلحقته أم إسماعيل وهي تقول: يا إبراهيم أين تتركنا في هذا المكان الذي ليس فيه سمير ولا أنيس؟ فجعل لا يلتفت إليها مخافة أن تصدّه عن تنفيذ أمر الله، وجعلت تكرّر القول وهو لا يلتفت فقالت له عند ذلك: «آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لن يضيّعنا الله».

Marfat.com

الله أكبر. إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب، ويأتي بالغرائب التي تكاد لا تصدّق، فكيف تطمئن نفس إبراهيم إلى أن يترك وليده الرضيع مع أمه في مكانٍ موحش قفر، ليس به ساكن ولا سمير ولا أنيس!!

وكيف رضيت (هاجر) أن تبقى وحيدة فريدة في بقعة جرداء، ليس فيها طعام ولا ماء، وتتعرّض للجوع القاتل، والعطش المميت، والذئاب الموحشة الضارية؟!

إنه الإيمان الذي عَمر قلبَ إبراهيم وزوجه «هاجر» عليهما السلام حتى ضحّيا براحتهما في سبيل تنفيذ أمر الله. ولمّا ابتعد إبراهيم عن زوجه وولده قليلاً التفت جهة البيت ووقف يدعو بهذه الدعوات:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (١).

نبع زمزم وبناء البيت العتيق:

بقيت هاجر ترضع ولدها إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى نفد ما في السقاء، فعطشت وعطش ابنها وجعل ولدها يبكي يتلوّى من شدة العطش فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت (الصفا) أقرب جبلٍ يليها فصعدت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي، وسعت سعيَ المجهود حتى وصلت إلى جبل (المروة) فصعدت عليه ونظرت فلم تجد أحداً، فأخذت تذهب وتجيء بين (الصفا والمروة) سبع مرات، وبينما هي على المروة سمعت صوتاً فقالت: أغثنا إنْ كان عندك غواث، فرأت ملكاً ـ وهو جبريل ـ يضرب بعقبه ـ وقيل بجناحه ـ الأرض حتى ظهر الماء فنبعت زمزم، فجعلت أم إسماعيل تحوّط الماء وتغرف منه بسقائها وهو يفور بعدما تغرف،

(١) انظر: نصّ الرواية في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٩٦، فقد رويناها هنا بالمعنى، وهذه القصة من عجائب القصص، وفيها من نفائس الأخبار ما فيه برهان على الإيمان والوفاء.

Marfat.com

ثمّ قال لها ذلك الملك: لا تخافي الضيعة (الضياع) فإنّ للّه ههنا بيتاً ــ وأشار إلى أكمة مرتفعة من الأرض ــ يبنيه هذا الغلام وأبوه.. ثم غاب الملك عنها، وبدأت الطير ترد إلى الماء وتحوم حوله ومرت قبيلة (جرهم) فرأوا الطير فاستدلوا على وجود الماء فوصلوا إلى (زمزم) واستأذنوا من أم إسماعيل أن يضربوا خيامهم قريباً منها فأذنت لهم واستأنست بوجودهم، ثم تكاثرت البيوت، وشبّ إسماعيل وتزوج من القبيلة وتعلّم العربية منهم وأصبحت مكة مأهولة بالسكان منذ ذلك الحين بعد أن كانت قفراً موحشاً. وتوفيت (هاجر) وإبراهيم عليه السلام لا يزال بعيداً عنها في أرض فلسطين، ثمّ بعد مرور سنين عديدة حنّ قلب إبراهيم إلى رؤية زوجه وولده فأخذ يقطع الصحارى والقفار حتى وصل إلى مكة فلم يجد زوجه، ووجد ولده يبري نبلاً، فلما رآه عرفه إبراهيم فعانقه وصنع به كما يصنع الوالد بولده ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك.. قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإنّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى التل المرتفع قرب زمزم، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل (إسماعيل) يأتي بالحجارة و (إبراهيم) يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السميعُ العليمُ﴾ حتى انتهيا من بناء الكعبة المشرفة[1] ومنذ ذلك الحين عمرت مكة المكرمة حرسها الله.

قصة الذبيح إسماعيل:

رأى إبراهيم عليه السلام في منامه رؤيا ــ ورؤيا الأنبياء حق[2] ــ رأى أنّ الله تعالى يأمره بذبح ولده البكر (إسماعيل) عليه السلام الذي لم يكن له ولد غيره، وقد رُزِقَهُ على كبَرٍ وشيخوخة، فما كان من إبراهيم عليه السلام بعد أن استيقظ من النوم إلاّ أن سارع لتنفيذ أمر الله، دون تلكؤ أو تردّد، ولكنه أراد أن يختبر ولده،

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٦/٣٩٦ من فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

(٢) في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «رؤيا الأنبياء وحي».

Marfat.com

ويرى مقدار استجابته وطاعته لله فقال له:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾.

عرض عليه ذلك الأمر ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من الأخذ بالقوة فبادر الغلام الحليم، سرّ والده الخليل إلى الطاعة، وأسرع إلى الإجابة، فقال:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

برّ عظيم، وتوفيق من الله كبير، وإيمان يزعزع الجبال ـ من الوالد وولده ـ تظهر فيه «العبودية» لله على أكمل صورها، من الأب وابنه، الأب يؤمر فيسارع إلى تنفيذ أمر الله، والولد يستشار فيلبي طائعاً مستسلماً لحكم الله كأن الأمر جرعة من ماء. أراد الولد أن يخفّف عن أبيه لوعة الثُكل، ويرشده إلى أقرب السُبل، ليصل إلى قصده فقال: يا أبتِ اجعل لي وثاقاً، واحكم رباطي حتى لا أضطرب، واشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي، ليكون أهون عليّ، فإنّ الموت شديد، ووقعه أليم. فقال له إبراهيم: «نِعم العون أنت يا بنيّ على تنفيذ أمر الله» ثمّ ضمه إلى صدره، وأخذ يقبّله ويودّعه الوداع الأخير.

ثم أسلم إبراهيم ابنه فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، ووضع السكين على حلقه، وأمرّها فوق عنقه، ولكنها لم تقطع فقد انقلبت في يده وكأنها قطعة من الخشب، فقال له إسماعيل: يا أبتِ كبّني على وجهي، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله. ففعل ثم وضع السكّين على قفاه فلم تمض الشفرة لأن الله تعالى قد سلبها خاصيّة القطع، عند ذلك جاء النداء الإلهي:

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾[1].

---

(١) سورة الصافات: الآيات (١٠٤ ـ ١٠٧).

Marfat.com

من هو الذبيـح؟

تقدّم معنا أن الولد الذي أمر بذبحه إبراهيم هو (إسماعيل) الذي هو من نسـل (هاجر) وهذا هو الرأي الصحيـح المعتمد الذي عليه أكثر العلماء، ذلك لأن هذه القصة وقعت في مكة، و (إسماعيل) هو الذي كان مقيماً بمكة، وإسحـٰق لا يُعْلم أنـه قدم مكـة في حال صغـره. ويعتقـد أهـل الكتـاب أن الـذبيـح (إسحـٰق) لا إسمـاعيـل وهو مردودٌ باطل لمخالفته لظاهر النصوص القرآنية.

يقول ابن كثير رحمه الله: والظاهـر من القرآن بـل كأنـه نص صريـح على أنّ الذبيـح هو (إسماعيل) لأن الله تعالى ذكر قصَّـة الذبيـح ثم قال: ﴿وبشرناه بإسحـٰق نبياً من الصالحين﴾ فالبشارة كـانت بعد تلك الحـادثة التي ظهـر فيها إيمـان إبراهيم وطاعته لله فأكرمه الله بولدٍ آخر وبشرّه بإسحـٰق. ومن ادّعى أنه (إسحـٰق) فقد اعتمد على روايـاتٍ إسرائيليـة، وكتابهم فيـه تحريف، فـإن عندهم في التـوراة أن الله أمر إبـراهيم أن يذبـح ابنـه بكره وإسمـاعيل هـو البكر، وإنمـا حملهم على هـذا حسـدُ العرب، فإنّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجـاز الذين منهم رسـول الله ﷺ وإسحـٰق والـد (يعقوب) وهـو إسرائيـل الذين ينتسبـون إليه فـأرادوا أن يجـرّوا هـذا الشرف إليهم فحرّفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بُهْتٌ، ولم يقرّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ومن قـال من السلف بـأنّ الـذبيـح هـو (إسحـٰق) فـإنمـا أخـذوه من (كعب الأحبار) أو صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيـح عن المعصوم حتى نتـرك لأجله ظاهـر الكتـاب العـزيـز، ولا يفهم هـذا من القـرآن، بـل المفهـوم بـل المنـطوق، بل النص عنـد التأمـل على أنـه (إسمـاعيـل) ومـا أحسن مـا استـدل بـه (القـرظي) على أنه إسمـاعيل وليس إسحـاق، وذلك من قـوله تعـالى: ﴿فبشّرنـاهـا بإسحـٰق ومن وراء إسحـٰق يعقوب﴾ قال: فكيف تقـع البشارة بـإسحـٰق وأنه سيـولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبـح إسحـٰق وهـو صغير قبـل أن يولـد له، هـذا لا يكـون لأنـه

Marfat.com

يناقض البشارة المتقدمة[١].

«ويروى أن (عمر بن عبد العزيز) سأل يهودياً كان قد أسلم عن الذبيح الذي أمر إبراهيم بذبحه فقال: هو (إسماعيل) ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم بذلك، ولكنّهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله له، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحٰق لأن إسحٰق أبوهم[٢].

وقد اشتهر أنّ النبي ﷺ يدعى ابن الذبيحين والمراد بهما (إسماعيل، وعبد الله).

وفاة سيدنا إبراهيم:

وقد عاش سيدنا إبراهيم ١٧٥ مائة وخمساً وسبعين سنة على أصح الروايات، بعد حياة حافلة بالكفاح والجهاد والصبر والابتلاء، ولذلك جعله الله أباً للأنبياء، واختاره لخلّته واصطفاه، لأنه كان مثالاً للعبد المنيب الأوّاه، المطيع لأوامر الله، ولهذا امتدحه الله وجعله قدوة للناس، بقوله تقدّست أسماؤه:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[٣].

ولمّا انتقل إلى جوار الله دفنه ولداه في مغارة (المكفيلة) التي دفنت فيه «سارة» من قبل وهو في البلدة التي تسمى (الخليل) الآن وكانت تسمى من قبل (قرية أربع). أمّا إسماعيل فقد عاش ١٣٧ سنة ودفن بمكة قريباً من الحِجْر الذي بجوار البيت العتيق قرب أمه هاجر، صلوات الله عليهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/١٥٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٠.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

Marfat.com

مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام

ـ ٣ ـ

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ ﴾.

من سورة مريم: الآية (٥١)

ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كثير من سور القرآن الكريم بوجوه عديدة وأساليب متنوعة، كما ذكرت قصة (بني إسرائيل) مع موسى موضَّحَة، مفصَّلة، مبيَّنة على أجمل بيان، وأوضح تفصيل، وخاصةً في سورَتَيْ (الأعراف والقَصَص).

وقصةُ (موسى) عليه السلام مع (فرعون) ليست قصة فرد مع مَلِك وليست قصة نبيّ كريم مع جبّارٍ عظيم، إنما هي قصة تتكرّر في كل زمان ومكان، وتبرز في كل وقتٍ وحين، وهي تصوّر حقيقة واقعية أليمة.. تصوّر الصراع بين الحق والباطل، وتصوّر المعركة الضارية بين جند الرحمن، وجند الشيطان.. تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء الله، منذ فجر هذا الوجود، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الدعاة والمصلحون، والأنبياء والمرسلون!.

لقد وقف «الطغيان» بجانب الكثرة الكثيرة من دعاة الباطل، ومن جند «إبليس» يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى الرسالات السماوية.. ووقف «الحق» بجانب القلة القليلة، من الصفوة الأخيار، من الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين. واحتدمت المعركة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والطغيان وكانت

Marfat.com

النتيجة أن انتصر الإيمان على الكفر وعلا الحق على الباطل، بعد صراع عنيف، وعِرَاك شديد وكان النصر بجانب أهل الإيمان وصدق الله حيث يقول:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾[1].

وهذه هي سنّة الله في الحياة ولن تجد لسنّة الله تبديلاً. لقد وقف الشرّ مجسّماً في صورة خصم عنيد، لا يلين، ولا يسالم.. بل يريد أن يقضي على دعوة ربانية تهدف إلى الخير، وتدعو إلى المحبة، والأخوة، والإنسانية، وتسعى لتحقيق العدل والسلام بين أهل الأرض قاطبة!.

وقف الشرّ مكشراً عن أنيابه، عابساً، مزمجراً، يتميّز غيظاً، يريد أن يبطش بتلك الصفوة الكريمة، الطاهرة، من أنبياء الله وأوليائه المقربين.. ويتمثل هذا بجلاء ووضوح فيما قصه علينا القرآن الكريم من إنذار وتهديد تعرّض له الرسل الكرام من جانب الطغاة والمجرمين، استمع إلى قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2].

هذا هو منطق «الطغيان» في كل وقت وزمان، لا يفهم حجة ولا برهاناً ولا يقيم وزناً لمنطق أو عقل، إنما طريقه «البطش» و«الإرهاب»، والتعذيب والتنكيل، قال الله تعالى حكاية عن فرعون:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

هذا هو منطق «فرعون» في زمن موسى.. وهو منطق «الفراعنة» في كل زمان ومكان. أمّا منطق الرسل فهو منطق العقل، ومنطق الحكمة، يتجلى في قول موسى عليه السلام لقومه بعد أن ذاقوا أنواع الأذى، وصنوف البلاء:

---

(١) سورة المؤمن: الآية (٥١). (٢) سورة إبراهيم: الآيات (١٣ ـ ١٥).

Marfat.com

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

ومن هنا يتبين لنا وحدة الاتجاه، ووحدة الهدف في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، كما يظهر لنا اتفاق دعاة الباطل وأهل الضلال على غاية واحدة، وهدف واحد، فهي إذاً صور تتكرر في كل وقت وحين للصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ونتيجتها أيضاً واحدة وهي انتصار أصحاب العقيدة وأهل الإيمان، وانهزام فئة البغي والعدوان، وتتمثل هذه النتيجة في قول الله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٢).

وهذه هي العبرة من قصة موسى مع فرعون، بل ومن قصص جميع الأنبياء والمرسلين.

نسب موسى عليه السلام:

نسبه: هو (موسى بن عمران) بن يصهر بن قاهث، وينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام ابن إسحٰق بن إبراهيم عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وأخوه هو «هٰرون» عليه السلام الذي بعثه الله عضداً ومعيناً لموسى حين أراد أن يبعثه إلى «فرعون» لتبليغه رسالة الله، وكان ذلك بدعوةٍ دعا بها موسى: ﴿واجعلْ لي وَزيراً مِنْ أهلي هٰرونَ أخي﴾.

ولادته: ولد موسى عليه السلام في عهد الطاغية الأكبر «فرعون» عدوّ الله، الذي اشتهر بالطغيان والجبروت، فنازع الله في ملكه، وادّعى الربوبية، وأعلن التمرد والعصيان وزعم أنه هو الإلٰه المعبود من دون الله، واسم ذلك الطاغية (الوليد بن مصعب) ولقبه «فرعون» وفرعون لقب لكل من ملك أرض مصر من

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٨). (٢) سورة القصص: الآيتان (٥ ــ ٦).

Marfat.com

الجبابرة، كما أن (كسرى) لقب لكل من ملك بلاد الفرس، و(قيصر) لقب لكل من ملك بلاد الروم.

تولى (فرعون) الملك بعد هلاك أخيه (قابوس) الذي دعاه (يوسف) عليه السلام إلى الإسلام فأبى وكان جباراً عنيداً، وقد التحق يوسف بجوار ربه في عهد (قابوس) وطال ملكه، واشتد أمره ثم هلك، فلما تولى الملك أخوه وهو (فرعون) شدَّد القبضة على بني إسرائيل، وأذاقهم أنواع العذاب وصنوف البلاء، حتى كاد يفني بني إسرائيل، وكان هذا الجبار أعتى من أخيه (قابوس) وأكفرَ وأفجر، وامتدت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة (يوسف) عليه السلام وهم على بقايا من دين آبائهم وهو دين إبراهيم دين الحنيفية السمحة حتى تولى المُلكَ عليهم فرعون الذي ذاقوا من أذاه وشره ما لم يذوقوه من قبل ولا من بعد، لأنه لم يكن أشقى ولا أطغى منه ولنستمع إلى الآيات الكريمة في سورة القصص[1] في قوله تقدَّست أسماؤه:

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[2].

مدّةُ مُلْك فرعون:

عمّر فرعون مدة تزيد عن ٤٠٠ سنة في بني إسرائيل وهو يسومهم سوء العذاب فيسخرهم ويستخدمهم في أخسّ الأعمال وأحقرها، وقد صنّفهم أصنافاً،

---

(١) سورة القصص: الآيات (٣ ـ ٦).

(٢) نبأ: خبر، علا: طغى وتجبّر، شيعاً: أحزاباً وفِرَقاً، نمُنّ: أي نعظم عليهم المِنّة والفضل، يستحيي نساءهم، أي: يتركهن على قيد الحياة فلا يقتلهن وذلك للخدمة وللأعمال المهينة.

Marfat.com

فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يتولون الأعمال القـذرة، ومن لم يكن أهلاً للعمل فعليه الجزية، كما قال تعالى: ﴿وإذْ نَجَّيْنَاكُمْ من آلِ فرعونَ يسومونَكُمْ سـوءَ العذاب. . .﴾ الآية. فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُفَـرِّجَ عن بني إسرائيـل بعث إليهم (موسى) عليه السلام لينقذهم من شر هذا الطاغية الجبار ويخلصهم من ظلمه وطغيانه، فكانت بعثة (موسى) عليه السلام رحمة لبني إسرائيل، وإنقاذاً لهم من ظلم ذلك الجبار العنيد.

الرؤيا المنامية:

ذكر (الثعلبي) في كتابه قصص الأنبياء عن (السّدي) أن فرعون رأى في منامه رؤيـا أفزعتـه فاهتم لهـا واغتمّ. . رأى كـأنّ نـاراً قـد أقبلـت من بيت المقـدس حتى وصلت إلى بلاد مصر، وأحاطت بدورها وبيوتها فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل دون أذى. فدعا فرعون الكهنـة، والسحرة، والمنجمين، وسـألهم عن هذه الرؤيا التي رآها في منامه فأوّلـوها لـه وقالـوا: سيولـد في بني إسرائيـل غلام يكـون سبب هلاك أهل مصر على يديه ويكون ذهاب ملكك على يـديه أيضـاً، ويخرجـك وقومك من بلدك، ويبدّل دينك، وقد أظلّك زمانـه الذي يـولد فيـه. . فأمـر فرعـون الطاغية أن يقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل وجمـع القابلات وقال لهن: لا يولد على أيديكنّ غلام من بني إسرائيل إلا قتلتنـه ووكّل بهن وكلاء، فكانت القابلة تنفّذ أمر فرعون فتقتل كل مولود ذكر من أطفال بني إسرائيـل خوفـاً من فرعـون وبطشـه، وأمـا الإناث فكنّ لا يُقتلن بـل يبقين على قيد الحيـاة من أجل الخـدمة والتسخيـر، وذلك معنى قولـه تعالى: ﴿يـذَبّحون أبنـاءَكم ويَسْتَحْيُـونَ نساءكم﴾، وأمر فـرعون كذلك بقتل الغلمان الـذين هم في وقته، وبقتـل مَنْ بعدهم، وأخـذ جنوده يعـذّبون (الحبالى) من نساء بني إسرائيل حتى كانت المرأة تسقط حملها، وأسرع الموت في الشيوخ الكبار من بني إسرائيل، فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له: إنّ الموت قد وقـع في مشيخة بني إسرائيل (أي الكبار منهم) وأنت تقتل صغارهم فيوشـك أن

Marfat.com

يقع العمل علينا، ولا يبقى أحد للخدمة غيرنا، فأمر أن يقتل الغلمان سنة، ويتركوا سنة حتى لا يهلك جميع أبناء بني إسرائيل.

متى ولد هٰرون ومتى ولد موسى؟:

بعد شدة العذاب على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم أمر فرعون ـ بإشارة رؤساء القبط ـ أن يُقتل الذكور عاماً ويتركوا عاماً، فولد (هٰرون) في السنة التي لا يذبح فيها أحد فتُرِك وولد (موسى) في السنة التي يذبحون فيها، فأمّا هٰرون فقد ولدته أمه علانية آمنة مطمئنة، وأما موسى فقد صادفت ولادته العام الذي يذبح فيه الأطفال، فلما قرب وقت الوضع حزنت أمه واشتد غمّها فأوحى الله إليها ـ بواسطة الإلهام ـ ألّا تخاف ولا تحزن لأن هذا المولود سيكون له شأن عظيم، وسيحفظه الله تعالى من كيد فرعون ثم يجعله من المرسلين وقذف في قلبها السكينة، وأمرها أن ترضعه حتى إذا خافت عليه تصنع له تابوتاً من خشب ثم تضعه فيه وتلقيه في البحر، وألا تخاف عليه الهلاك لأنه في حفظ الله ورعايته وكفى بالله حافظاً، وكفى به ناصراً. اقرأ الآيات الكريمة في سورة «القصص»:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[1].

حفظ الله لموسى وتربيته في بيت فرعون:

وقد ولدته أمه خفيةً، وجعلت ترضعه وهي واثقة من حفظ الله تعالى له، فلمّا خشيت عليه من السفّاحين من زبانية فرعون اتخذت صندوقاً وجعلت فيه قطناً ثمّ وضعت فيه وليدها، وأقفلت الصندوق، وألقته في النيل، وأمرت أخته أن تتبّع أثره

---

(١) سورة القصص: الآيتان (٧ ـ ٨).

Marfat.com

وقد فعلت ذلك كلّه بوحي من الله سبحانـه (أي بإلهـام منه وإرشـاد) وهي على يقين من أن الله سبحانه سيحفظ لها هذا المولود، ويرده إليها، ولن يستطيـع فرعـون قتله حتى ولو أصبح بين يديه. فلما ألقته في النيل انـطلق الماء بـه يرفعـه الموج مـرة، ويخفضه أخرى حتى وصل إلى بيت فرعون وبينما كـانت الجواري يغتسلن ويستقين أبصرن هذا (التابوت) فأخذنه وظنَنّ أن فيه مالاً، فحملنه على حالته حتى وصلن بـه إلى سيـدتهن (آسية) زوجـة فرعـون فلما فتحتـه رأت فيه الغـلام، فألقى الله تعـالى محبته في قلبها، فلما جاء زوجهـا (فرعـون) ورأى الغلام أراد قتله وطلب الـذبّاحين ليذبحوه فالتمست منه أن يتركه لها لأنها لم تكن تلد وقالت كما قصّ القرآن الكريم:

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ الآية[٢].

فقال لها فرعون قرة عين لك أمّا لي فلا حاجة لي فيـه، قال بعضهم: لـو قال «قـرة عين لي» لهـداه الله بـه إلى الإسـلام كمـا هـدى (آسيـة) ولكن رفض ذلـك فلم يسعد ولم يهتد بل بقي شقياً.

تحريم المراضع على موسى:

وعاش (موسى) في بيت فرعون عند (آسية) التي استوهبته من فـرعون فـوهبه لها، وقد ألقى الله محبته في قلبها، كمـا أحبّه فـرعون وعـطف عليه، وهـذا تصديق لقول الله تعالى:

﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[١].

وأخذت (آسية) تبحث لـه عن مرضـع لتكـون له ظِئـراً ترضعـه وتربيّـه، فكان يمتنـع عن قبول ثديها، واشتد به الجوع واشتد به البكاء وهو لا يقبـل ثدي أحـد من المرضعات حتى خشيت عليه امرأة فرعون من الهلاك فأخـذت بنفسها تفتش لـه عن

---

(٢) سورة القصص: الآية (٩).

(١) سورة طه: الآية (٣٩).

Marfat.com

مرضع، ورأت أخت موسى ذلك وهي ترقبه من بُعْد فجاءت إلى آسية امرأة فرعون وعرضت عليها أن تأتي لها بامرأة مرضعة، أمينةٍ ناصحة، تتعهد هذا الرضيع مقابل أجرٍ لها فقالت لها امرأة فرعون: ائتيني بها فإن أخذ ثديها أكرمتها بأنواع من الإكرام فانطلقت حتى جاءت إلى أمه فأخبرتها الخبرَ، فأتت أمه فلما رأته كادت تقول هذا ابني لولا أن ثبّتها الله حتى لا يشعر آل فرعون بأن هذه هي أمه، فلما وضعته في حجرها التقم ثديها وأخذ يرضعه بنهم ولَذّة حتى ارتوى وملأ جنبيه، ففرحت (آسية) فرحاً عظيماً وطلبت منها أن تمكث في القصر عندها لترضع لها هذا الغلام، ووعدتها بأن تعطيها أنواع الهدايا وتكرمها بأنواع الإكرام، فأظهرت (أمّ موسى) العِفّة وقالت لها: إن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي وأتعهده بالعطف والرعاية كما أتعهد ولدي وأنا لا أستطيع أن أدع بيتي وأولادي من أجل هذا الغلام فرضيت (آسية) أن تدفعه لها على أن تأتي به في كل فترة لتراه ثم تعيده لها، لأنه قد ملك حبُّه قلبها، وهكذا حقّق الله وعده فردّ موسى إلى أمه لترضعه وهي آمنة مطمئنة تحت كنف فرعون ورعايته، واقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قتل موسى للقبطي وهربه إلى أرض مدين:

شبَّ موسى في بيت فرعون، وعاش فيه معزّزاً مكرماً، وكان يعيش عيشة أبناء الملوك فيركب مراكب فرعون، ويلبس ما يلبس فرعون، وكان الناس يدعونه

(١) سورة القصص: الآيات (١٠ ـ ١٣).

Marfat.com

(موسى بن فرعون) فيحترمونه ويعظمونه من أجل أنـه ابن المـلـك. وترعـرع موسى حتى إذا بلـغ أشده دخل ذات يوم من الأيام المدينة، وبينمـا هو يتجـول في طرقهـا ـ وكـان الوقت وقت ظهيـرة والأسواق قـد أغلقت والنـاس في بيـوتهم قـائلون ـ إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهمـا من بني إسرائيـل والآخر قبـطي من آل فرعـون، وهما يتضاربان ويتهاوشان، وقد اعتدى القبـطي على الإسرائيلي فلمّـا مرّ مـوسى استغاثـه الإسـرائيلي ليخلّصه من شـر ذلك القبـطي فأقبـل نحوه مـوسى يريـد أن يمنعـه عن الاعتداء ويدفـع الأذى عن الإسـرائيلي فوكـزه (أي ضربـه بجُمْـع يده) فقضى عليـه وخـرّ القبطي على الأرض ميتـاً لا حراك بـه، ولم يرد مـوسى قتله إنمـا أراد إبعـاده فكانت القاضية، فحزن موسى على قتله، وندم على مـا حدث، وتنحّى يستغفـر الله ويطلب منه الرحمة والغفران، ولم يكن أحد قـد رآه حين قتل القبـطي إلا الله تعالى والإسـرائيلي، فلما قتله أصبـح في المـدينة خـائفاً يتـرقب الأخبـار، فـأتى الأقبـاط فرعون وقالوا له إن بني إسرائيـل قد قتلوا رجـلاً منا، فخـذ لنا بحقّنـا، ولا تتساهـل معهم فيجـرءوا علينـا فقـال لهم: ائتـوني بقـاتله وبمن يشهـد على قتله، فبينمـا هم يطوفون يبحثـون عن قاتله ويتلمسـون الأخبار إذ مـرّ موسى عليـه السلام فـرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فـاستغاثـه الإسرائيلي على خصمـه الفرعـوني فجاء مـوسى مغضباً وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، ولكنّ الإسرائيلي ظنّ أنه يريده لأنـه رأى في وجهه آثار الغضب وسمعه يقول: ﴿إنّك لَغويّ مُبينٌ﴾ فظنّ أنه يريده ليبطش به فقال له: ﴿يا موسى أتريـدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفسـاً بالأمس؟﴾ فسمـع ذلـك الفرعـوني كلامه فتركه وذهب فوراً فأخبر جماعتـه بأن مـوسى هو الـذي قتل القبـطيّ بالأمس، وخبّرهم بما سمـع من الإسرائيلي، فذهبوا إلى فرعون وأخبروه بالخبر، فـأمر جنده أن يبحثـوا عن موسى ويـأتوه بـه ليقتله حتى لا يتجرأ بنـو إسرائيـل على قتل أحـد، فذهبوا يفتشون في طرقات المدينة عنه، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه وهـو (حزقيـل) فأخبـر موسى بـالخبر وأمـره أن يخرج من أرض مصـر لأن الجماعـة يبحثون عنه يريدون قتله، فتوجّه موسى إلى أرض (مدين) ودعا ربّه أن يهديه الطريق

Marfat.com

وينجّيه من شرّ فرعون، ويأخذ العيون عنه حتى لا يبصره أحد من أعدائه اقرأ الآيات الكريمة في سورة القصص.

قال الله تعالى حكاية عن موسى:

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[١].

تزوج موسى بابنة شعيب ورعيه الغنم:

وخرج كليم الله من أرض مصر فارّاً يريد النجاة، وتوجه نحو أرض مدين ماشياً على قدميه يتلفت خشية أن يدركه أحد من آل فرعون، ولم يكن معه زاد فكان يأكل ورق الشجر وبقي يمشي مسيرة ثماني ليالٍ حتى وصل إلى أرض مدين، فجلس تحت شجرة وقد أنهكه الجوع والتعب قال (ابن عباس): (خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثماني ليالٍ، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإنّ بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل تلمع من داخل جوفه، وإنَّه لمحتاج إلى شِق تمرة). وبينما هو جالس للاستراحة أبصر ابنتين ترعيان الأغنام تريدان سقي

---

(١) سورة القصص: الآيات (١٥ ـ ٢١).

Marfat.com

أغنامهما من تلك البئر الكبيرة التي يسقي منها الرعاة، ولكنهما كانتا تحبسان الغنم لئلا يختلط بغنم الآخرين فأشفق عليهما وسألهما عن سبب تعهدهما لرعاية الغنم بأنفسهما فأخبرتاه بأن أباهما شيخ كبير وليس عنده من الأولاد من يرعى له هذه الأغنام ولذلك فإنهما يتعهدان رعايتها وسقايتها، فسقى لهما ثم جلس بجانب الظل يدعو ربه، اقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١).

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من السقي وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيُشربان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم ردّ الحجر، وكان لا يرفعه إلا عشرة فرفعه موسى عليه السلام وحده وردّه وحده، فلما رجعت الفتاتان إلى أبيهما أخبرتاه بخبر موسى وبقوته وطلبتا منه أن يكرمه على هذا الصنيع الجميل وأن يستأجره لرعاية الغنم فأرسل واحدة منهن لتدعوه إلى أبيها فجاءته وهي تمشي على استحياء فقالت له: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، وإنما صرّحت له بهذا لئلا يوهم كلامها الريبة، وهذا من تمام حيائها وعفتها وصيانتها فلما جاءه وقصّ عليه قصته قال له شعيب ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ ثم زوّجه بابنته على رعاية الغنم. قال (ابن كثير): وقد اختلفوا في هذا الشيخ مَن هو؟ فقيل: إنه (شعيب) عليه السلام وهذا هو المشهور عند الكثيرين ونصّ عليه الحسن البصري وهو منقول عن مالك بن أنس، وقد عاش شعيب عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه وليس هو شعيب النبي

(١) سورة القصص: الآيتان (٢٣ ـ ٢٤).

Marfat.com

الذي أرسل إلى أهل مدين، والرأي الأول أرجح وهو الذي عليه الكثيرون من أهل التفسير.

ومكث موسى عليه السلام في أرض مدين بعد أن تزوج بابنة شعيب وهو يرعى الغنم حتى أتم المدة وهي عشر سنين. وقد روي أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: « أكملهما وأفضلهما ». ومن هنا نعلم أن موسى عليه السلام اشتغل برعاية الغنم لمدة عشر سنوات وكانت الرعاية هي المهر الذي دفعه موسى لقاء تزوجه بابنة شعيب، وإذا كان «موسى بن عمران» قد رعى الغنم فليس عيباً على أحد من الناس أن يشتغل بأمثال هذه الحِرَف، كيف وقد كان سيد الخلق محمد ﷺ يرعى الغنم، فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ما من نبي إلا ورعى الغنم، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟! قال: حتى أنا كنت أرعاها لقريش على قراريط»(١). والحكمة في رعاية الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين هي أن يتعوَّدوا على السكينة والتواضع، وليكون ذلك مقدمة لسياسة الأمة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه، ويتعهدها بما يصلح شأنها، وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رجوع موسى إلى مصر وتكليم الله سبحانه له عند جبل الطور:

بعد أن أمضى موسى عليه السلام السنوات العشر، في أرض مدين حنّ قلبه إلى وطنه فعزم على الرجوع إلى أرض مصر مع أهله وولده، وبينما هو في الطريق في ليلةٍ مظلمة باردة تاه في الطريق فلم يهتد إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يقدح شيئاً، واشتد الظلام والبرد وكانت امرأته حاملاً وقد قرب أوان وضعها فتحيّر وقام وقعد، وأخذ يتأمل في الأفق لعله يرى شيئاً فيخرجه من هذه الحيرة، ثم أخذ يتسمّع طويلاً هل يسمع حِسّاً أو حركة، فبينما هو كذلك إذ آنس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإجارة ١١٦/٣ بلفظ «ما بعث الله نبيّاً إلّا رعي الغنم...» الحديث، ورواه ابن ماجه رقم ٢١٤٩.

Marfat.com

من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً ﴿فقال لأهلِهِ امكُثُوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منْها بقبسٍ أو أجدُ على النارِ هدى﴾ فلما وصل قريباً من جبل الطور رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك، فتحيّر موسى وارتعدت فرائصه فسمع خطاب الله عز وجل يأمره أن يخلع نعليه ثم يدخل ذلك الوادي المقدس حتى يقترب من جبل الطور فإن الله سبحانه وتعالى سيكلمه ويجعله رسولاً ثم يرسله إلى فرعون ليبلغه رسالة الله، اقرأ الآيات الكريمة من سورة طه:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ . . .﴾[1].

وهكذا نُبّىء موسى وكلمه ربه عند جبل الطور المسمى (طور سيناء) وأعطاه آية تدل على صدق نبوّته ألا وهي معجزة (العصا، واليد) ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الله فطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه (هٰرون) ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة كما قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2].

قال بعض المفسرين: لما قصد موسى إلى تلك النار وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج فوقف متعجباً فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة، ثم أمره ثانياً أن يلقي ما في يمينه فألقاها فإذا هي حية تسعى، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء لها نور كنور الشمس.

---

(١) سورة طه: الآيات (٩ ـ ١٤).

(٢) سورة القصص: الآيات (٣٣ ـ ٣٥).

Marfat.com

موسى يدخل مصر ويدعو فرعون إلى الإيمان بالله تعالى:

ورجع موسى بعد أن كلّمه ربّه فسار بأهله نحو مصر حتى وصلها ليلاً، وأوحى الله سبحانه إلى أخيه (هـٰرون) يبشّره بقدوم (موسى)، ويخبره أنه قد جعله وزيراً له ورسولاً معه إلي فرعون، واجتمع موسى بهـٰرون وانطلقا إلى فرعون، فطلب موسى من البواب أن يأذن له بالدخول على الملك (فرعون) فقال له: وماذا أقول لفرعون فأجابه موسى بقوله قل له: جاءك رسول ربّ العالمين، ففزع البواب من هذه الكلمة ودخل على سيده وأخبره بما قاله وما سمع وقال له: إن بالباب إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: أدخلوه، فدخل موسى ومعه هـٰرون إلى فرعون ودعاه إلى الله وبلّغه رسالة ربه فاستهزأ به فرعون وقال: هل هناك إله غيري؟ ثم تحقق فعلم أنّه موسى الذي تربى في بيته ثم كان من أمره ما كان فقال له فرعون كما قص القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1].

موسى والسحرة عند فرعون:

ومضى موسى يشرح له رسالة ربه، وأخذ فرعون يتهدده ويتوعده بالسجن والتعذيب والتشريد فقال له موسى: أولو جئتك بشيء بيّن؟ فقال: وماذا عندك؟ فألقى العصا فإذا هي ثعبان مبين، وأدخل يده إلى صدره ثم أخرجها فإذا بها كأنها قطعة من نور الشمس مضيئة، ففزع فرعون لهذا ودعا جماعته واستشارهم فأشاروا عليه أن يجمع السحرة ليبطلوا ما جاء به موسى لأنهم ظنوا أنه من قبيل السحر،

---

(١) سوزة الشعراء: الآيات (١٨ ـ ٢٤).

Marfat.com

فاجتمع السحرة عند فرعون فطلب منهم فرعون أن يجمعوا قواهم ويوحّدوا هدفهم ليبطلوا ـ بعزيمتهم ـ سحر موسى وأغراهم بالمال والمنصب وأن يجعلهم من خاصته فيما إذا تمكنوا على موسى وغلبوه، ثم كانت النتيجة بعد تداول بين السحرة أن طلبوا من موسى أن يلقي ما معه أو يبدأوا هم بالإلقاء اعتزازاً منهم بالنفس واعتقاداً بالغلبة.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ...﴾[1].

ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، وقالوا مغترين: ﴿بعزّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون﴾ ونظر موسى وإذا بهذه الحبال والعصيّ كأنها حيّات وثعابين، فهاله أمرها، وأوجس في نفسه خيفةً منها، ولكنّ الله ثبّته أمام ذلك الجمع الزاخر، وأوحى إليه أن لا تخف فإنك أنت المنصور، وأمره أن يلقي العصا فإذا هي تبتلع كل ما قذف به السحرة من زور وبهتان ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى قُلنا لا تَخفْ إنّكَ أنتَ الأعلى. وألْقِ ما في يمينكَ تلقفْ ما صنعوا، إنما صنعُوا كيدُ ساحر، ولا يُفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾.

يذكر المؤرخون: أن موسى عليه السلام لما ألقى العصا، انقلبت إلى حية عظيمة لها عنق طويل، وشكل مفزع هائل، حتى إن الناس هربوا فزعاً منها، وقد أقبلت هذه الحيّة على الحبال والعصي فجعلت تلقفها في أسرع ما يكون، والناس في فزعٍ واضطراب، وفي دهشة واستغراب، وكان أول من أذعن للحق وأعلن إيمانه إنما هم «السحرة» الذين أتى بهم فرعون لينصروه، ويتغلبوا على خصمه موسى عليه السلام.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (١١٥ ـ ١١٩).

Marfat.com

آمن السحرة وسجدوا لله عزّ وجل، وأقرّوا بالوحدانية له، لأنهم أيقنوا أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا زور ولا بهتان، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله (موسى) لتكون برهاناً على صدقه، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان ولا قدرته، ، وإنما هي القوة الإلٓهية التي تصنع العجائب فخرّوا لله ساجدين وقالوا: ﴿آمنا بربِّ العالمينَ. ربِّ موسى وهٰرون﴾.

علم فرعون أنه لم يُعْجز موسى، ولكنّ موسى أعجزه، فأراد أن يستر هزيمته، ويستعيد هيبته، فقال للسحرة ـ وكان صاحب مكر وخداع: ﴿إنّه لكبيركُمُ الذي علّمكُمُ السحر فلسوفَ تعلمونَ. لأقطّعَنْ أيديَكم وأرجلكُم من خلافٍ ولأصلبنّكُم أجمعينَ﴾.

توعّد السحرة بالقتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، واتهمهم بالتآمر مع موسى، مع أنه يعلم علم اليقين، أنّ موسى لم يعرفهم ولم يجتمع معهم من قبل، لأنه كان مقيماً في أهل مدين، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السحر؟! ثمّ إن موسى لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، وإنما استدعاهم فرعون من أنحاء البلاد ليبطلوا دعوى موسى عليه السلام، ولكنّ المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يغني أمام الحق شيئاً.

أمّا السحرة فقد ثبتوا على الإيمان، ولم يبالوا بوعيد فرعون وتهديده، بل صرخوا في وجهه صرخة الإيمان والبطولة، متحدّين لفرعون وبطشه وجبروته:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢ ـ ٧٣).

Marfat.com

قال سعيد بن جبير: «لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، بل صدعوا بالحق في وجهه»[1]. ولقد نفّذ فرعون ما هدّدهم به فصلبهم وقطّع أيديهم وأرجلهم، وقتلهم شر قتلة ومع ذلك لم يُثنهم ذلك عن الإيمان بالله، فماتوا شهداء أبراراً رضوان الله عليهم أجمعين، قال ابن عباس: (كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة).

تمادي فرعون في ضلاله:

رأى فرعون الآيات الباهرة، والبراهين القاطعة، التي تدل على صدق موسى عليه السلام، ولكنه تمادى في كفره، وأصرّ على عناده، معرضاً عن الآيات البينات التي جاء بها موسى كليم الله، وأغراه قومه بموسى ومن آمنَ معه، لائمين له منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون في الأرض، فسكّن فرعون روع القوم، واعداً إيّاهم بأن يقتل قوم موسى، ويستحيي نساءهم معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان، ثمّ أتبع القول بالعمل، فضجّ بنو إسرائيل بالشكوى مما حاق بهم من الحيف والظلم، فأوصاهم موسى بالصبر وبشّرهم بالنصر. ووعدهم حسن العاقبة، اقرأ هذه الآيات الكريمة:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/٢٥٦ للحافظ ابن كثير.

(٢) سورة الأعراف: الآيات (١٢٧ ـ ١٢٩).

Marfat.com

ابتلاء آل فرعون بتسع آيات:

لمّا أخذت فرعون العزّة بالإثم، وعتا عن أمر الله تعالى، وتمادى في تكذيب موسى، وإيذاء بني إسرائيل، أمر الله تعالى موسى أن يُعلم فرعون وقومه بأنه سيوقع عليهم العذاب الشديد، جزاء تكذيبهم وامتناعهم عن إطلاق بني إسرائيل، فكانوا كلّما وقع عليهم العذاب جاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يسأل ربه أن يرفع عنهم العذاب، ووعدوه بالإيمان وعدم إيذاء أتباعه المؤمنين، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم، عادوا إلى طغيانهم، وغدروا بعهدهم، وتمردوا على الله.. وقد أرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب، وصنوفاً من البلاء، وكانت هذه بمثابة (إنذار) لهم من الله تعالى ليعودوا إلى رشدهم، ويثوبوا إلى صوابهم.

وأظهر هذه الابتلاءات الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون، وهي:

١ ـ (القحط والجدب) وهو الذي عبر عنه القرآن بـ (السنين) وهي أعوام الجدب التي أصابتهم حيث لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع.

٢ ـ (النقص من الثمرات) وهي قلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات.

٣ ـ (الطوفان) وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: المراد فيضان نهر النيل عليهم.

٤ ـ (الجراد) وقد أرسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود فكان يغطّي الخضراء ويحجب ضياء الشمس لكثرته، ولكنّ لا يترك لهم زرعاً ولا ثماراً.

٥ ـ (القُمّل) وهو السّوس الذي يفسد الحبوب، وقيل: هو القمل المعروف، وقيل: هو (البعوض) الذي أقضّ مضاجعهم ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

٦ ـ (الضفادع) وهي معروفة وقد كثرت عندهم حتى نغّصت عليهم عيشهم حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، وتقفز على فرشِهم وملابسهم.

Marfat.com

٧ ـ (الدم) وهو من الآيات الواضحة، فقد استحال الماء لهم دماً فلا يستقون من بئر ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال، ولم ينل بني إسرائيل شيء من ذلك بالكليّة.

٨ ـ (العصا) وقد تقدّم أنها كانت من معجزات موسى ﷺ حيث تنقلب إلى حيّة تسعى.

٩ ـ (اليد) إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء آية أخرى.

اقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ... ﴾[1].

واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[2].

والمقصود أن الله أرسل على آل فرعون أنواعاً من العذاب الدنيوي العاجل، فأرسل عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم القمّل، ثم الضفادع، ثن الدم، آيات مفصلات، فكانوا كلّما شاهدوا آية أظهروا الأسف والندم، وجاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز والعذاب، فإذا رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه، حتى كانت الآية الكبرى التي لم ينج منها أحد من فرعون وجنوده، ألا وهي الغرق في البحر:

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (١٠١ ـ ١٠٢). (٢) سورة الأعراف: الآيات (١٣٠ ـ ١٣٣).

Marfat.com

﴿أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[1].

هلاك فرعون وجنوده:

تمادى فرعون في كفره وعناده، ومخالفته لنبي الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، ولم تنفعه النّذر، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً، ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، فتجهَّزَ موسى ومن معه وكانوا يزيدون على (٦٠٠) ألف شخص غير الذرّية، فخرج بهم في الليل وساروا في طريق البحر الأحمر ـ على خليج السويس ـ وأخذوا يَجِدُّون السير، واستيقظ فرعون فلم يجد موسى ولا بني إسرائيل حيث خلت منهم بلاد مصر، فجهز جيشاً عرمرماً حتى قيل: كان في خيوله مائة ألف فرس، وكانت عدة جنوده تزيد على مليون وستمائة ألف[2] جندي، فلحقهم بالجنود وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس، وتراءى الجمعان فشعر بنو إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك، فالبحر أمامهم والعدّو خلفهم، ولم يبق بينهم وبين الموت إلاّ ساعات أو لحظات، حين ذاك ضجّوا بالعويل والصياح وقالوا: يا موسى إنّا لمدركون، فسكّن موسى روعهم، وأزال خوفهم فأخرج عصاه وضرب به البحر فانفلق بقدرة الله، فكان كل فرق كالطود العظيم، فسار موسى ومن معه على سطح البحر ـ بعد أن أصبح يابساً ـ مسرعين مستبشرين بعد أن رأوا هذه الآية العظمى، التي تحتار لها عقول الناظرين، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون ووصوله إلى البحر، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان حتى لا يسلكه فرعون وجنوده، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله لأنه يريد إغراقهم فيه ﴿واترك البحرَ رهْواً إنهم جندٌ مغرقون﴾. رهواً: أي ساكناً على هيئته التي هو عليها. فلما وصل (فرعون) رأى هذه الآية الباهرة، ففزع وخاف أن يسلكه، ولكنّه أظهر لجنوده التجلّد والشجاعة ثم خاطبهم بقوله: (انظروا كيف انحسر البحر لي، لأدرك عبيدي

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان (٥٥ ـ ٥٦). (٢) ذكر هذه الرواية ابن كثير في البداية والنهاية ١/٢٥٣.

Marfat.com

الآبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي وعبادتي، لأردّهم إلى مملكتي مقهورين مدحورين). وأخذ يشجع الجند لاقتحام البحر أمامه من أجل أن يفوز بالنجاة هو.. ولكن هيهات فقد فات الأوان واقتربت ساعة الأجل، وجاء ملك من السماء فقاد فرس فرعون جهة البحر، فلمّا رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين، فلمّا أصبحوا جميعهم فيه أوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك فضربه فارتطم عليهم، وعادت أمواجه هائجة كما كان، فلم ينج إنسان.. اقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾(١).

وغرق الجيش جميعاً، وأمّا فرعون فلمّا أصبح بين الأمواج على وشك الدّمار والغرق، أعلن إيمانه واستسلامه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

فلم ينفعه إيمان ولا توبة بل هلك مع الهالكين إلى غمرات الجحيم.

بنو إسرائيل في أرض التيه:

لما أهلك الله فرعون وجنوده، ونجّى بني إسرائيل من العذاب المهين، أمره أن يتوجه بهم إلى (بيت المقدس) فخرجوا حتى إذا كانوا في الطريق عطشوا عطشاً شديداً، فشكوا إلى موسى متذمّرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلمّا ضربه انبجست (تفجّرت) منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها، وأرسل الله لهم (المنّ والسلوى) رزقاً منه جلّ وعلا،

(١) سورة الشعراء: الآيات (٦٠ ــ ٦٦). (٢) سورة يونس: الآيتان (٩٠ ــ ٩١).

Marfat.com

يحصلون عليه دون جهد أو تعب، ثم أمر موسى أن يدخل بهم الأرض المقدّسة، التي كان قد وعدهم الله بها على لسان نبيّه وكليمه موسى عليه السلام، فلما اقتربوا منها وجدوا فيها قوماً من الجبارين وهم من (الكنعانيين) ومن بقايا (الحيثانيين) فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس ولكنهم أبوا ونكلوا عن الجهاد، وجبنوا عن مقابلة عدّوهم، وقالوا قولتهم الفاجرة لنبيهم الكريم:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾(١).

يذكر المؤرخون أن موسى عليه السلام كان قبل أن يطلب إلى بني إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قِبَلِه أناساً يأتونه بالأخبار، ويقول المفسرون: إنهم كانوا اثني عشر رجلاً فرأوا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم، فلمّا عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فضعفت نفوسهم وخارت قواهم، ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد، وكان بنو إسرائيل قد ألفوا الذلّ والهوان منذ أن كانوا في أرض الفراعنة، وتحت سلطان الأقباط لذلك امتنعوا عن تنفيذ أمر الله وجبنوا عن جهاد الأعداء فألقاهم الله في التيه، وضيّعهم في الصحراء (٤٠) أربعين سنة يسيرون ويحلّون، ويرتحلون ويذهبون ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه، كما قال تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾(٢).

وكان ذلك عقوبة من الله تعالى لهم، حتى انقرض ذلك الجيل الذي عاش على الذل وألف الهوان وجاء من بعدهم من الأبناء الذين عاشوا في الصحراء على الحرية والعزة فدخلوا مع (يوشع بن نون) الأرض المقدسة.

(١) سورة المائدة: الآية (٢٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (٢٦).

Marfat.com

العبرة من تاريخ بني إسرائيل:

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن (بني إسرائيل)، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية، التي تقابل النعمة بالجحود، والإحسان بالعصيان، فقد أغدق الله عليهم نعمه، ونجّاهم من كيد عدوهم، وأهلك فرعون وجنوده، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل، وتنكّروا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام، وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء، وفعلوا ما تقشعّر له الأبدان، وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، وغضب الله عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ﴿ذلكَ بأنهُمْ كانوا يَكْفِرُون بآياتِ الله، ويقْتُلُونَ الأنبياءَ بغيرِ حق ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. ﴿وما ظلمهُمُ اللّهُ ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمونَ﴾.

ولو أردنا أن نستقصي جرائم بني إسرائيل (اليهود) لضاق بنا المقام، وأحوجَنا إلى مجلدات ضخمة فإن حياتهم سلسلة من الجرائم لا في حق البشرية فحسب بل في حق الأنبياء والرسل، وفي حق الذات العليّة: ذات الله تبارك وتعالى، حيث اتهموا الله عزّ وجل بأنواع من الاتهامات الشنيعة، فقد اتهموه بالبخل والشح، ورموه بالعجز والظلم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ...﴾(1).

وهناك حوادث ووقائع تاريخية أخرى في حياة بني إسرائيل، ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قصة موسى والخضر عليهما السلام:

قصَّ علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى بينهما من الأخبار المغيَّبية العجيبة، التي

---

(1) سورة المائدة: الآية (٦٤).

Marfat.com

أطلـع الله عليها ذلك العبد الصالـح «الخضر» عليه السلام، ولم يعرفها موسى عليـه السـلام مـع أنه نبـيٌّ من أولي العـزم، ولله عز وجـل في خلقه شؤون، فقـد يُـطلـع المفضـول على ما لم يُـطلـع عليه الفـاضل، وهـذه القصة تتنـاول حادثـة السفينـة، وحادثة قتل الغلام، وحادثة بناء الجدار، وكلُّها أنباء قـرره ، وأمور عجيبة.

ولنفسح المجـال أمام هـدي النبوة ليخبـرنا ﷺ عن قصتهمـا بأسلوبـه الـرائـع الممتـع، فقد روى البخاري ومسلم، عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقـال: أنا، فعتب الله عز وجل عليـه إذْ لم يردَّ العلم إليـه، فأوحى الله إليـه أنَّ لي عبداً بمجمـع البحـرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتل فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ، فانطلق موسى: ومعه فتاه (يوشـع بن نـون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضـطرب الحوت في المِكْتـل فخرج منـه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً، وأمسـك الله عن الحوت جـرية المـاء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانـطلقا بقيـة يومهمـا وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنـا هذا نصباً﴾ قال ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله بـه ـ فقال لـه فتاه: ﴿أرأيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحـوت وما أنسانيه إلا الشيـطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال: فكان للحوت سَرَباً ولموسى وفتـاه عَجَباً، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنّا نبغِ فارتـدا على آثارهمـا قَصصاً﴾ قـال: رجعا يقصـان آثـارهما حتى انتهيـا إلى الصخرة، فإذا هو مسجًى بثوب فسلَّم عليـه مـوسى فقـال الخضـر: وأنّى بأرضـك السلام!؟[1] من أنت؟ قـال: أنـا مـوسى، قـال مـوسى بني إسرائيل؟ قـال: نعم أتيتك لتعلمني ممـا عُلمت رُشداً ﴿قـال إنك لن تستطيـع معي صبـراً﴾. . يا مـوسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علَّمنيـه، وأنت على علمٍ

(١) يعني من أينَ السلام في هذهِ الأرض التي لا يُعرفُ فيها السلام؟

Marfat.com

من علم الله علّمكه لا أعلمه، فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ فقال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل ــ أي بدون أجر ــ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قومٌ قد حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إِمْراً﴾ وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكراً﴾ قال: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾؟ قال سُفيان: وهذه أشدُّ من الأولى ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدُني عذراً﴾ فانطلقا ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا ــ أي أشار بيده ــ فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال الخضر: ﴿هذا فِراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى لوددتُ أنه كان صبر، حتى يقصَّ الله علينا من أخبارهما»!! أخرجه الشيخان.

تنبيه: قال العلامة القرطبي: (كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليست بنبية، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام وإقامة الجدار).

Marfat.com

وفاة موسى عليه السلام:

توفي كليم الله موسى عليه السلام بعد أخيه (هـرون) عليـه السلام في أرض التيـه، ولم يدخـل الأرض المقدّسـة ببني إسرائيـل، وإنمـا دخلهـا بهم (يـوشـع بن نون)، كما أسلفنا، وقد كان عمر موسى حين وفاته (١٢٠) سنة، وقد روى البخاري في قصـة وفاتـه حديث ملك المـوت الذي جـاءه ليقبض روحه فصكّـه مـوسى ففقـأ عينه. . وفيه يقول الرسـول ﷺ: «لو كنتُ ثَمّ لأريتكم قبـره إلى جانب الـطريق عند الكثيب الأحمر قدر رمية بحجر». صلى الله عليه وتغمده الله برحمته، آمين.

* * *

Marfat.com

المسيح عليه السلام

— ٤ —

﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾(١).

من سورة المائدة الآية (٧٥)

نسبه عليه السلام:

هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، اسمه (عيسى) ولقبه (المسيح)، ويكنى (ابن مريم) نسبةً إلى أمه مريم بنت عمران، لأنه ولد من غير أب، وهو بالعبرية (يشوع) ومعناه المخلّص، وفي الإنجيل يدعى (يسوع) بالسين المهملة بدل الشين المعجمة.

وهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة، المبرّأة من الفاحشة، كما قال سبحانه:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وهو آخر الأنبياء في بني إسرائيل، كما أن محمداً هو آخر الرسل جميعاً لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نسبه في الإنجيل:

إذا ذكر نسب السيد المسيح (عيسى بن مريم) فإنّ النصارى يذكرون نسب (يوسف النّجار) بناءً على أنه كان عندهم يدعى (يسوع بن يوسف النجّار) وذلك

---

(١) سورة التحريم: الآية (١٢).

Marfat.com

لأنها كانت مخطوبة ليوسف، قبل أن تحمل بالمسيح، ولمّا حملت أمر في منامه أن يمسكها ولا يشهّر بها لأنها بريئة من الدَّنَس، كما ينص على ذلك إنجيل متى صفحة (١ ــ ٢٠). وقد كان (يوسف النجار) من شباب بني إسرائيل الصالحين، عاش عيش الطهر والعفّة، خطب مريم، ولكنه لم يتمّ بينهما التقاء أو زواج، وإنما هو مجرد خطبة، بدون اتصال زوجي، وينصُّ إنجيل «برنابا» على أن يوسف النجار قد خطب مريم وأرادها زوجة له، لما رأى منها من العفة وشدَّة التدين، وقد كان هو على جانب كبير من التقى والصلاح والتدين النفسي، فلذلك رغب في خطبتها، وسنذكر إن شاء الله ما رواه الحافظ ابن كثير رحمه الله من روايات تتعلق بأمر خطبتها، وما جرى بينهما من المحاورة بعد أن حملت بالسيد المسيح عليه السلام.

نسب عيسى في الأناجيل:

ولم يُذْكَر نسب السيد المسيح إلا في الإنجيلين (إنجيل متى) و(إنجيل لوقا) فقد انفردا بذكر النسب من بين سائر الأناجيل، ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب السيد المسيح بين هذين الإنجيلين، وتناقضاً واضحاً لا يمكن معه التوفيق، ممّا يجعلنا نجزم بأنّ أهل الكتاب، يكتبون بلا تحقق، ويؤمنون بلا تثبت، ويصدّقون بكل ما يلقى عليهم من رؤساء الدين، وأنّ ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه ــ قطعاً ــ التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم.

وبنظرة واحدةٍ يظهر التناقض والتعارض بين أعظم الأناجيل وأكثرها شهرة وانتشاراً عند النصارى ألا وهو إنجيل (مَتَّى) وإنجيل (لوقا).

نسبه في إنجيل لوقا:

هو يسوع بن يوسف النجار، بن هالي، بن لاوي، بن ملكي... إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام.

نسبه في إنجيل متّى:

أما نسبه في إنجيل (متّى) فهو: يسوع بن يوسف النجار، بن يعقوب، بن متان، بن اليعازر.. إلى أن ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم

Marfat.com

عليه السلام. وإذا تابعنا النسب من أوله إلى آخره نجد اختلافاً كبيراً بين الإنجيلين.

فإنجيل لوقا يقول إنّ يوسف بن (هالي).

وإنجيل متى يقول: إنّ يوسف بن (يعقوب).

وإنجيل لوقا يقول: إنه من أولاد (ناثان) بن داود.

وإنجيل متى يقول: إنه من أولاد (سليمان) بن داود.

وإنجيل لوقا يقول: إنّ آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين.

وإنجيل متى يقول: إن آباء المسيح سلاطين مشهورون.

وبينما إنجيل لوقا يذهب إلى أن بين (داود) والمسيح واحداً وأربعين جيلاً نجد إنجيل متى يقول: إن بين (داود) والمسيح ستة عشر جيلاً.

ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدس، يؤمن به مئات آلاف الملايين من النصارى، اللهم إلاَّ أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين الذين أكد القرآن تحريفهم للكتب المقدسة!!.

من هي مريم في نظر المسلمين:

هي مريم بنت عمران، الصدّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربّت في حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة، قال تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾(١).

كان والدها (عمران) رجلاً عظيماً، وعالماً جليلاً، من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته (أم مريم) لا تحبل ـ كما ذكر ابن إسحٰق ـ فنذرت إن حملت لتجعلنّ ولدها محرراً لله تعالى (أي خالصاً حبيساً) لخدمة بيت المقدس فاستجاب الله دعاءها فحملت بمريم عليها السلام، فلمّا ولدت تبيّنت أن الجنين كان أنثى، وكانت ترجو أن يكون ذكراً، ليخدم في بيت الله، فتوجهت بالدعاء إلى الله كالمعتذرة أو كالآسفة:

---

(١) سورة التحريم: الآية (١٢).

Marfat.com

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾(١).

ولكنّ الله تعالى تقبّل تلك المولودة بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، وحفظها وولدَها من شر الشيطان الرحيم.

كفالة زكريا لمريم.

توفي (عمران) وابنته (مريم) طفلة صغيرة، تحتاج إلى من يكفلها، ويقوم بشأنها، فخرجت بها أمها إلى المسجد، فسلّمتها إلى العُبّاد المقيمين فيه، وكانت ابنة إمامهم ورئيسهم فتنازعوا واختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، وكان (زكريا) عليه السلام نبي ذلك العصر، هو الذي يريد كفالتها لأنه زوج أختها ـ وقيل زوج خالتها ـ فهو أحقُّ بها، ولكنه قطعاً للنزاع وافق على الاقتراع معهم، فخرجت القرعة له، فكان الكافل لمريم هو (زكريا) والد يحيىٰ عليهما السلام.

بقيت مريم في كفالة زكريا عليه السلام، وقد اتخذ لها مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وخدمته، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صار يضرب بها المثل في بني إسرائيل في التقى والصلاح، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة. وفي أثناء رعاية (زكريا) عليه السلام لها كان يجد أمراً عجباً.. كان يجد عندها طعاماً وفاكهة لا توجد في السوق، وليس لها وجود في ذلك الأوان، كان يجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها في دهشة واستغراب «أنّى لك هٰذا؟» فتجيبه: هذا رزق من عند الله، استمع إلى قوله تعالى:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾(٢).

نشأة مريم البتول:

نشأت مريم عليها السلام نشأة طهر وعفاف، وبعدٍ عن الآثام والمحرمات

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٦). (٢) سورة آل عمران: الآية (٣٧).

Marfat.com

فعاشت في جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة بحراسته ورعايته، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم فتخبرها بمقامها السامي الرفيع عند الله، وتبشرها باصطفاء الله لها من بين سائر النساء، وتطهيرها من الأرجاس والأدناس، وتبشرها كذلك بمولود كريم، يكون له شأن عظيم، يكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، وتحثها على الاجتهاد في العبادة، والقنوت لله.

وهكذا نشأت مريم على الطهارة والعبادة، والبعد عن الدنس، ورذائل الأمور، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(1).

وقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(2).

البشارة بالسيد المسيح:

لمّا بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، وأصبحت في السنّ الثالثة عشرة من العمر، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، ترويحاً عن النفس، وطلباً للراحة، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها، إذ فاجأها شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، وارتابت في أمره لأنه ظهر لها فجأة، فظنت به الظنون، وجعلت تبتعد عنه وهي تخشى أن يهمّ بها بسوء، في مكان ليس فيه منقذ أو نصير، ثم قالت له: ﴿إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقياً﴾ ظنت مريم أنه بشر عادي من الرجال، عرض لها في هذا المكان.. ولم يكن في خاطرها أنه ملاك كريم، أرسله

---

(1) سورة آل عمران: الآيتان (٤٢ ــ ٤٣). (2) سورة آل عمران: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦).

Marfat.com

الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً، يكون له شأن عجيب، ويعطيه الله النبوة والحكمة، وإذا بالملاك هو (جبريل الأمين) عليه السلام تمثّل لها في صورة إنسان، فأزال الملك فزعها واضطرابها، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها، ثم نفخ في جيب قميصها (ثوبها) نفخة وصلت إلى رحمها، فحملت بتلك النفخة بالسيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام، اقرأ الآيات:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1].

ويذكر المفسرون أنّ الذي نفخ في جيب قميصها، وحملت بتلك النفخة إنما هو الملك (جبريل) عليه السلام فهو الذي يسمى (الروح الأمين) ويسمى (روح القدس) ويستدلون بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المنذرينَ﴾، والذي نزل بالوحي على الرسل الكرام قطعاً إنما هو جبريل عليه السلام.

قال (أبو حيان) في تفسيره:

(وإنما مثّل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكيّة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.. ودل على عفافها وورعها أنّها تعوّذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثّله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبْراً لعفتها...)[2].

حين ظهر لمريم بعد ذلك أنّ الذي عرض لها في خلوتها ليس بشراً إنما هو ملاك كريم، أنست واستبشرت به، ولكنّها تعجبت من قوله حين بشّرها بالغلام، فهي امرأة بكر لم تتزوج، ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء وهي عفيفة لم تقارف إثماً، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها:

---

(١) سورة مريم: الآيات (١٦ ــ ١٩).

(٢) تفسير البحر المحيط ٦/ ١٨٠.

Marfat.com

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته، فهو جلّ ثناؤه لا يُعجزه شيء وإذا أراد أمراً فإنّما يقول لـه كن فيكون:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾.

كم هي مدة الحمل؟:

كان عمر (مريم) حين حملت بعيسى عليه السلام ١٣ ثلاث عشرة سنة، وقد اختلف العلماء في مدة الحمل فقيل: إنها كانت ساعة، وقيل تسع ساعات، وقيل: ثمانية أشهر، وقد روي الأخير عن (ابن عباس) والصحيح أنها حملت به حملاً طبيعياً كما تحمل النساء، ووضعته كما تضع النساء.

قال (ابن كثير) رحمه الله: (ثمّ الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر، واستدلال بعضهم بقوله تعالى: ﴿فحملتهُ فانتبذَتْ به مكاناً قصِياً، فأجاءها المخاضُ﴾ فقد عطف بالفاء وهي تدل على التعقيب، فإنَّ الصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿ثمّ خلقنا النطفةَ علقةً، فخلقنا العلقةَ مضغةً، فخلقنا المضغةَ عظاماً، فكسونا العظامَ لحماً، ثمّ أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتباركَ اللّهُ أحسنُ الخالقينَ﴾. ومعلوم أنّ بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه)[1].

وقد ذكر المفسرون أن (جبريل) لمّا نفخ في جيب درعها، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.. وقد ردّ (ابن كثير) رحمه الله روايةً نُسبت إلى (أُبيّ بن كعب) مفادها أن جبريل عليه السلام إنما نفخ في (فمها) لا في فرجها وقال: إنّ هذا خلاف ما يفهم من سياق القصة في القرآن الكريم، فالقرآن يدل على أنّ الذي أرسل إليها هو الملك جبريل عليه السلام وأنه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٦٤.

Marfat.com

نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى: ﴿ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنَتْ فرجَها، فنفخْنَا فيهِ منْ روحنَا..﴾ فالضمير يعود على الفرج لا على الفم.

إتهام مريم عليها السلام:

يروى أن مريم لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من أقربائها يدعى (يوسف النجار) وكان من العبّاد الصالحين ـ وكان ابن خالها ـ على ما يروي ابن كثير، فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج، فعرّض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء، قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إنَّ الله خلق آدم من غير ذكر وأنثى، قال لها: فأخبريني خبرك، فقالت: إنّ الله بشرني ﴿بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ﴾ فعرف أنها بريئة وأنّ الحمل الذي بها إنما هو بمشيئة الله وإرادته الحكيمة.

وروى السدّي بإسناده عن الصحابة أن (مريم) دخلت يوماً على أختها ـ زوج زكريا ـ فقالت لها أختها: أشَعرتِ أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرتِ أني أيضاً حبلى، فاعتنقتها وقالت لها (أم يحيى): إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى، قال: وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا ابنا خالة[1]..

وقد شاع الخبر في بني إسرائيل أنّ (مريم) حامل، فما دخل على أهل بيتٍ من الهمّ والحزن كما دخل على آل بيت زكريا، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢/٦٥ فقد ذكر الروايتين في كتابه، وفيهما عظة وعبرة، فإنّ الله يخلق ما يشاء وهو على كل شيءٍ قدير.

Marfat.com

ويقول (ابن جرير): إنهم أرادوا قتله ففرّ منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ثمّ نشروه بالمنشار فقتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود المجرمين.

ولادة السيد المسيح عليه السلام:

المشهور المستفيض أنّ ميلاد (عيسى) عليه السلام كان ببيت لحم، وأنها لمّا هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت إلى بيت المقدس.. وقد قصّ القرآن الكريم علينا قصة ولادته في سورة مريم.. وخلاصة تلك القصة أن (مريم) عليها السلام لما أتمت أيام حملها وهي في (بيت لحم) اشتد بها المخاض فألجأها إلى جِذْعِ نخلة يابسة، فاحتضنت الجِذْع لشدة الوجع وولدت (عيسى) عليه السلام، فقالت عند ولادتها ـ لِمَا قاسَتْهُ من الآلام والتغرّبِ، ولِمَا خافت من إنكار قومها واتهامهم لها عند رؤية وليدها ـ قالت ﴿يا ليتني متّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً مَنْسياً﴾ فقد تمنّت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يُظَنّ بها الشر والسوء في دينها، وتعيّر بين قومها وعشيرتها.

وضعت مريم البتول العذراء طفلها، وهزّت جذع النخلة التي لا ثمر فيها، فتساقط عليها الرطب الجنيّ الناضج، فأكلت من الرطب وشربت من النهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه، وكان كل ذلك إكراماً من الله تعالى لها على إيمانها وصلاحها وطاعتها لله عز وجل، وعنايةً لوليدها (عيسى) عبد الله ورسوله.

وكان ميلاد السيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والتسليم يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر كانون الأول، أي قبل ميلاد الرسول الأعظم ﷺ بما يزيد على ٦٠٠ عام. حملت مريم وليدها الصغير، وأتت به قومها تحمله على يدها، فلما شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم والخطب الجسيم وأخذوا يظنّون بها الظنون، كيف يكون لها وليد وهي لم تتزوج بعد؟ وزاد في هذا الفزع والاضطراب أنهم يعرفون قومها وعشيرتها، فهي من بيئة شريفة فاضلة وأبوها (عمران) من السادة الأشراف، بل لقد كان رئيس العلماء، وأسرتها أسرة فضلٍ وشهامة ودين، فكيف

Marfat.com

تـأتي مريم بمثـل هذه الجـريمة النكـراء، وتقترف عمـل الفاحشـة؟. . وهنا سكتت مـريم، وأشارت إلي وليـدهـا الـرضيـع ليتكلم معهم، وليجيبهم على أسئلتهم التي وجّهوها إليهـا، والتّهم التي اتهموهـا بها، فليس أدلّ على طهـارتها وبـراءتها من أن يتكلم هـذا الـطفـل وهـو لم يـزل بعـد في المهـد ويجيبهم على تلك الاتهـامـات والافتراءات. . اقرأ الآيات الكريمة من سورة مريم قصة ولادته عليه السلام:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

حياة السيد المسيح:

ولمّا بلـغ الطفل من العمر ثمـانية أيـام حملته أمـه مريم إلى الهيكـل فختن، وسمّته (يسوع) يعني عيسى كمـا أمرهـا جبريـل حين بشّرهـا به، والختان من سنن الأنبياء وهو من الفطرة، وهو شريعة سـائر الأنبيـاء والمرسلين من عهـد إبراهيم عليـه السلام، وقد جاء في إنجيل (بـرنابا) ما يـدل على ختان عيسى: «فلمـا تمت الأيام الثمـانية حسب شـريعة الـرب، كما هـو مكتوب في كتـاب مـوسى، أخـذا الـطفـل

(١) سورة مريم: الآيات (٢٢ ـ ٣٣).

Marfat.com

واحتملاه إلى الهيكل ليختتناه، فختتنا الطفل وسمّياه (يسوع) كما تسمّى من الملاك قبل أن تحبل به في الرحم»[1].

ونشأ (عيسى) عليه السلام في كنف أمه بعيدين عن بيت لحم في ربوةٍ مرتفعة ذات استقرارٍ وأمنٍ وماء معين كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

هيرودس يعزم على قتل المسيح:

في الزمن الذي ولد فيه السيّد المسيح كان هناك حاكم ظالم يسمى (هيرودس) وقد حكم البلاد بأمر (قيصر أوغسطس) وقد بلغه عن طريق بعض الكهنة أنه ولد مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم، وقد تفرّد بذكر هذه القصة إنجيل (متّى) وإنجيل (برنابا) وأن يوسف النجار قد أمر في منامه بأن يذهب بالطفل (عيسى) وأمه (مريم) إلى مصر خشية عليه من بطش ذلك الحاكم الجائر، فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك (هيرودس) ولما هلك أمر يوسف في منامه بأن يأخذ الطفل وأمه ويرجع بهما إلى بلادهما لأن الذين يطلبون قتله قد هلكوا فارجع بهما»[2].

مجادلة عيسى للعلماء:

وكان عيسى حينئذٍ قد بلغ من العمر سبع سنين، فرجع من مصر ووصل إلى الخليل، وأقام في الناصرة، وإلى الناصرة ينسب (النصارى). وعاش الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف النجار إلى (أورشليم) يعني بيت المقدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب، المكتوبة في توراة موسى عليه السلام، ولمّا تمت صلواته تفقّدوه فلم يجدوه فانصرفوا إلى محل إقامتهم ظناً منهم أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم، فلم يجدوه

---

(١) إنجيل برنابا الفصل الخامس.

(٢) راجع قصص الأنبياء للنجار ص ٣٨٦.

Marfat.com

فرجعت أمه مع ابن عمها يوسف النجار إلى (أورشليم) ينشدانه بين الأقرباء والجيران فلم يجدوه، وفي اليوم الثالث وجدوا عيسى في الهيكل وسط العلماء يحاجّهم في أمر الناموس، وقد أعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته، وقالوا: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة؟! فلمّا رأته أمه عنّفته قائلة: ماذا فعلت بنا فقد نشدناك ثلاثة أيام، فأجابها: ألا تعلمين أنّ خدمة الله يجب أن تقدّم على الأم والأب، ثم نزل معهما إلى الناصرة[1].

ويسكت التاريخ عما وراء هذه الفترة من حياة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حتى بداية نبوته ورسالته، فأين كان يسوع في هذه المدة وهي سبع عشرة سنة؟!

بدء نبوّة المسيح عليه السلام:

لمّا بلغ عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عاماً جاء إلى (يحيى بن زكريا) عليهما السلام المسمّى عند النصارى (يوحنا المعمدان) فعمّده[2] ثم نزل عليه روح القدس (جبريل) عليه السلام، ثم إنه خرج بعد ذلك إلى البرية، وصام فيها أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب، ونزل عليه الوحي بكتاب الله المقدس المسمّى (الإنجيل) ومنذ ذلك الحين بدأت رسالة عيسى بن مريم عليه السلام.

والقرآن الكريم لم يذكر متى ابتدأت نبوّة المسيح، ولا كيف كان ذلك، ولكنّ عبارات الأناجيل اتفقت على أنّ نبوّته كانت على رأس ثلاثين من عمره وعلى ذلك جرى المؤرخون وبعض المفسرين.

ويقول علماء التوحيد: إنّ النبوّة تكون على رأس الأربعين من العمر وهذا هو الغالب أمّا (عيسى) عليه السلام فقد نبىء على رأس الثلاثين وهذه خصوصية له عليه السلام لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سنّ الأربعين، والدليل على نبّوة

---

(١) نقلاً عن إنجيليْ (متى) و (برنابا) حول حياة السيد المسيح ودعوته.

(٢) أي: غسله غسل التوبة وهذا ما يسمى عند النصارى بـ (التعميد).

Marfat.com

المسيح عليه السلام قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . .﴾.

دعوة السيد المسيح:

قام السيّد المسيح يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه، في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة، وخرافات وأباطيل، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على (موسى) عليه السلام.. وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وحرّفوا شريعة الله، وتلاعبوا بنصوص التوراة، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيّهم، فبعث الله إليهم (عيسى بن مريم) ليردّهم إلى الجادّة، ويصحّح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل، فقام صلوات الله عليه يبلّغهم أوامر الله، ويعلّمهم ما أنزل عليه من أحكام تشريعية جديدة، منها تحليلُ بعض ما كان قد حُرِّم عليهم في شريعة موسى عليه السلام بسبب بغيهم وعدوانهم، والتي كانت عقوبة لليهود في ذلك الحين، وقد حكى الله جل ثناؤه على لسان السيد المسيح المهمة التي بعث من أجلها، فقال تقدَّست أسماؤه:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وقد أجرى الله على يد (عيسى بن مريم) المعجزات الباهرات تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته، كما سنبين ذلك عند ذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام.

وقد لقي السيد المسيح من اليهود تعنتاً واستكباراً، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف، حول مفاهيم الدين، وأصول الشريعة الربانية التي جاء بها من قبله (موسى) عليه السلام،

Marfat.com

والتي حرّفها أولئك الظالمون المجرمون. فكان يحاجّ (الفريسيين) والكتبة، والكهنة[1]، فيدحضهم بالحجج الدامغة، من كهنة، وكتبة، وفريسيّين، ويدلهم على الله، ويأمرهم بالاستقامة، ويبيّن فساد طريقتهم، ويفضح رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعاً، فقرّروا التخلّص منه.

مكر اليهود وتآمرهم على قتل عيسى:

اجتمع عظماء اليهود وأحبارهم، وتشاوروا في أمر المسيح، فقالوا: إنّا نخاف أن يفسد علينا ديننا، ويتّبعه الناس فقال لهم رئيس الكهنة: لأن يموت رجل واحد خير من أن يذهب الشعب بأسره، فأجمعوا على قتله، فسعوا به لدى الحاكم الروماني (بيلاطس البنطي) الذي كان حاكماً على اليهود باسم الملك (قيصر) وزيّنوا له دعواهم بأنه يريد أن يكون ملكاً على اليهود، وأنه يسعى لتقويض الحكم القائم، وأوغروا صدره حتى قرّر أن يتخلّص من (عيسى) عليه السلام بالقتل والصلب، على طريقتهم التي كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل، وعلم عيسى عليه السلام بمكر القوم به، فاختفى عن أعين الرقباء حتى لا يعلم أحد من أعوان الحاكم مكانه فيقبضوا عليه ويُسلِموه للقتل.

قالوا: ودخل المسيح إلى (أورشليم) على حمار، وتلقاه أصحابه بقلوب النخل، فقال المسيح: «إنّ بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسْلِمُني» ثم جعل يوصي أصحابه قائلاً لهم: «قد بلغت الساعة التي يتحول ابن البشر إلى أبيه، وأنا أذهب إلى حيث لا يمكنكم أن تجيئوا معي، فاحفظوا وصيّتي فسيأتيكم (الفارقليط)[2] يكون معكم نبياً، فإذا أتاكم (الفارقليط) بروح الحق والصدّق

---

(١) الفريسيون: هم الزهاد المنقطعون للعبادة و (الكتبة) هم كتاب الشريعة والوعاظ، و (الكهنة) هم خدمة الهيكل والمعبد.

(٢) الفارقليط: هو النبي الذي بشر به المسيح ومعناه في اليونانية أحمد ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، وفي هذا بشارة ساطعة ببعثة نبيّنا محمد ﷺ وقوله «يتحول ابن البشر إلى أبيه» هذا على حسب زعم النصارى في أنّ عيسى ابن الله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

Marfat.com

فهو الذي يشهد عليّ، وإنما كلّمتكم بهذا كيما تذكروه إذا أتى حينه، فإني قد قلته لكم، فأمّا أنا فإني ذاهب إلى من أرسلني فإذا ما أتى روح الحق يهديكم إلى الحق كليّة، وينبئكم بالأمور البعيدة ويمدحني، وعن قليل لا ترونني، ثمّ رفع المسيح عينه إلى السماء وقال: حضرت الساعةُ.. إني قد مجدّتك في الأرض والعمل الذي أمرتني أن أعمله فقد تمّمته»[1].

انصرف السيد المسيح مع تلاميذه إلى المكان الذي يجتمع فيه هو وأصحابه وكان من ضمن تلامذته رجل خائن يدعى (يهوذا الأسخريوطي) وهو أحد الحواريين المنافقين الذين أشار إليهم المسيح بقوله: «إن بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسلمني» كان هذا الرجل يعرف ذلك الموضع الذي اختبأ فيه المسيح، فلما رأى الشّرط يطلبون المسيح ليقتلوه دلهم على مكانه مقابل دريهمات معدودة جعلوها له، وكانت ثلاثين درهماً، فلما دخلوا المكان الذي فيه المسيح ألقى الله شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الأسخريوطي) فأخذوه وهم يظنونه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه، ورفع الله سيدنا عيسى عليه السلام إليه، قال تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وكان عمر عيسى حين رفعه الله إليه ٣٣ سنة فتكون مدة دعوته لبني إسرائيل ثلاث سنين لأن بعثته كانت في الثلاثين من عمره صلوات الله عليه.

مسألة صلب المسيح:

عقيدتنا نحن المسلمين في موضوع (صلب المسيح) هي العقيدة الصحيحة السليمة، التي أخبر عنها القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي أنّ الله عزّ وجل نجّى (عيسى) من كيد اليهود، ورفعه إليه حيّاً بجسده وروحه، وألقى شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الأسخريوطي) الذي دلّ اليهود على مكانه، فصلبوه وهم يظنون أنه المسيح بن مريم، وكان في ذلك تكريماً لعبده

(١) تاريخ اليعقوبي نقلاً عن كتاب العقيدة الإسلامية للأستاذ حبنكة.

Marfat.com

وعقيدة (المسلمين) في السيّد المسيح أطهر، وأكرم، وأشرف من عقيدة (النصارى) الذين يزعمون أن المسيح قد صلب، وأنّ اليهود قد أذاقوه كلّ إهانة ثمّ سمروا يديه ورجليه في الخشب ثم صلبوه وقتلوه تكفيراً لذنوب بني آدم، وفداء للبشر. ولقد شكّ (الحواريون) كما شكّ (اليهود) في أمر عيسى واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً، فمن هو المصلوب يا ترى؟ أهو (عيسى) المسيح أم (يهوذا) الأسخريوطي؟ وذلك لأن ذلك الخائن لما دلّهم على مكانه طلب من اليهود أن يدخل أمامهم، ولم يكن في ذلك المكان غير عيسى بن مريم، فلمّا ألقى الله شبهه عليه، ورفع عيسى إلى السماء، دخل اليهود فلم يجدوا غير إنسانٍ واحد هو (يهوذا) الذي ألقى الله شبه عيسى عليه فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وأخذوه ليصلبوه وهو يقول لهم: أنا (يهوذا) وليست عيسى فيضحكون من كلامه ويقولون: تكذب علينا أنت (يسوع) أي عيسى، فصلبوه وهم في شكٍّ من أمره وفي اضطراب واختلاف. وقد ردّ القرآن الكريم على اليهود، كما ردّ على النصارى وذكر العقيدة الحقة التي يدين بها المسلمون، والتي هي فصل الخطاب في موضوع (الصلب والفداء) فقال عز من قائل:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

والعجيب في أمر النصارى، أنهم يذهبون إلى القول بصلب السيّد المسيح، مع أنّهم يعتقدون بألوهيته، أو بأنه ابن الإلّه!.

وإذا صلب (الإلّه) فكيف يكون شأن الخلق؟ ولمن يا ترى ترك تدبير العالم بعد أن صلب؟ ومن هم الذين صلبوه.. أليسوا هم أشرّ خلق الله (اليهود الخبثاء) عليهم لعنة الله؟ فكيف لم يستطع الرب أن يخلّص نفسه من بين أيديهم أو ينقذ ولده من تنكيلهم وإجرامهم؟! ولقد أحسن من قال:

Marfat.com

أَعُبَّـادَ المَسِيحِ لَنَـا سُؤالٌ ... نَـرُومُ جَـوابَـهُ مِـمَّـنْ وَعَـاهُ
إذا صُلِبَ الإلَـهُ بِفْعِـلِ عَبْـدٍ ... يَـهُـودِيٍّ فَـمَـا هَـذَا الإلَـهُ؟

﴿سبحانه وتعالى عمَّـا يقولون علوّاً كبيراً﴾.

موضوع الفداء للبشرية:

يقولون: إن المسيح صلب ليخلّص بني آدم من ذنوبهم وخطاياهم!!!.

هـل هـذا صحيح، وهـل يتفق مـع العـدالـة الإلّهيـة، والمنـطق السليم؟! ما هو ذنب (عيسى) حتى يصلب ليكون كفّارة عن ذنوب الخلائق؟ هل من العدل أن نؤاخـذ الإنسان بجـريمة غيـره؟ إذا ارتكب أخوك (مثـلًا) جريمـة القتل، أو جـريمة الـزنى، فما هـو ذنبك حتى تؤاخـذ وتعاقب على الجـريمة التي ارتكبهـا غيـرك؟ إنّ الحكم الرباني صريـح كل الصراحة ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ و ﴿كـلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينـةٌ﴾ والعدالـة الإلّهيـة تقـرّر أنّ ﴿من عمـل صـالحـاً فلنفسِـهِ ومن أسـاءَ فعليها﴾. والمنطق السليم يحكم بأنّ العقوبة تحلّ بـالفاعـل المجرم فقط، ولكنّـه التعصّب الأعمى، والتفكيـر السقيم، الذي يفكّـر به رجـال الكنيسة، ويحشـون بـه أذهان المغفلين!.

يقول السيد (رشيد رضا) في تفسير المنار:

(أمـا النصارى فـإنهم جعلوا خاتمـة المسيـح عليـه الصـلاة والسـلام خـاتمـةً شنيعة، ومأساة مروعـة، وجعلوا الاعتقاد بحصـولها ـ على الـوجه الـذي صوّروه ـ أصلًا من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يُقبـل من مؤمن إيمانـه إلا بها، ولا ينفعه عمل صالـح، ولا عبادة ولا بِـرٌّ، دون الاعتقاد بصلب المسيـح.

وقـد تلمّسـوا لتلك العقيـدة أصـلًا في (العهـد القـديم) وأسّسـوا عليـه صلب المسيـح فقـالـوا: إنّ (آدم) وهـو أول كـل البشـر قـد عصى الله تعالى بـالأكـل من الشجـرة، التي نهـاه عن الأكـل منهـا، فصـار خـاطئـاً، وصـار جميـع ذريتـه خـطاة مستحقين للعقـاب في الآخرة بـالهلاك الأبـدي. وقد جـاء جميـع أبناء آدم خـطاة

Marfat.com

مذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم. ولمّا كان الله من صفاته العدل والرحمة، فمن عدله ألاّ يترك الجريمة دون عقاب وإلاّ لم يكن عادلاً، ولهذا شاء الله أن يحل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسّد جنيناً في رحمها ويولد منها ــ فيكون ولدها (إنساناً) كاملاً من حيث إنه ابن لتلك المرأة، و (إلهاً) كاملاً من حيث إنه ابن الله ــ ويكون معصوماً من جميع المعاصي، ثمّ بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذّذ ويتألم كما يتلذّذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا في وجهه. كل ذلك ليفدي البشر من جريمةلم يقترفها هو ولا هم. . .)[1] .

أقول: إنّ هذا القول باطل فإنه لم يتحقق به عدل ولا رحمة، إذ ليس من العدل أن يؤتى ببريء غير مذنب ويطوّق إثم جريمة جناها غيره. . ثمّ إنه يخالف الكتاب المقدس عندهم فقد جاء في (سفر التثنية):

«لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كلّ إنسان بخطيّته يقتل».

من هم الحواريون؟:

كان لعيسى بن مريم أصحاب وتلامذة سُمّوا بـ (الحواريّين) لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم وهؤلاء من أنصار السيّد المسيح، وهم يشبهون الصحابة الكرام الذين ناصروا رسول الله ﷺ، وقد ذكرهم القرآن وأثنى عليهم في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا

(١) انظر: تفسير المنار ٦/٢٥.

Marfat.com

ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

وكل نبيّ جعل الله تعالى له حواريين وأنصاراً كما قال عليه الصلاة والسلام.

«ما من نبيٍ بعثه الله في أمة قبلي إلَّا كان له من أمّته حواريون وأصحابٌ، يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره...»[2] الحديث.

وعدد الحواريين ١٢ اثني عشر رجلاً وهم كالآتي:

١ – (سمعان) الذي يقال له بطرس.
٢ – (أندراوس) أخو سمعان البطرس.
٣ – (يعقوب) بن زبدي.
٤ – (يوحنّا) بن زبدي أخو يعقوب.
٥ – (برثولماوس).
٦ – (فيلبس).
٧ – (متّى) العشّار.
٨ – (توما).
٩ – (يعقوب) بن حلفي.
١٠ – (لباوس) الملقب تداوس.
١١ – (سمعان القانوني).
١٢ – (يهوذا الأسخريوطي).

والأخير هو الذي يحكى أنه انقلب، وخان السيد المسيح، ودلَّ اليهود على مكانه.

وهذه الأسماء للحواريين كما ذكرت في (إنجيل متّى) وهناك من تلامذته (برنابا) و(تداوس) وقد حذفتهما الكنيسة من الحواريين الإثني عشر، وذلك لأنهما لا يقولان بألوهية السيِّد المسيح، و(برنابا) له إنجيل يسمى (إنجيل برنابا) ولا تعترف به الكنيسة اليوم لأنّ فيه ما يخالف عقيدتها، وفيه أوصاف النبيّ الأميّ الذي بشّر به السيّد المسيح عليه السلام، كما قال القرآن الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ...﴾ الآية[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان (٥٢ – ٥٣).
(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٥٠.
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

Marfat.com

الأناجيل عند النصارى:

الإنجيل: هو أحد الكتب السماوية الأربعة، التي أنزلها الله على رسله الكرام، والتي يجب الإيمان بها وتصديق ما فيها لأنها منزلة من عند الله، وهذه الكتب هي: (التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن). أمّا (التوراة) فقد نزلت على موسى عليه السلام، و(الإنجيل) على عيسى عليه السلام. و(الزبور) نزل على داود عليه السلام، و(القرآن) على خاتم الرسل محمد عليه السلام. ولفظة (إنجيل) ليست عربيّة وإنما هي عبريّة، ومعناها (البشارة)، والأناجيل المعروفة الآن لدى النصارى هي أربعة.

١ ـ إنجيل متى.	٣ ـ إنجيل لوقا.
٢ ـ إنجيل يوحنا.	٤ ـ إنجيل مرقس.

وهناك إنجيل آخر يسمى (إنجيل برنابا) لا تعترف به الكنيسة اليوم، وهو أقرب الأناجيل إلى الحق والصواب.

هل هذه الأناجيل صحيحة؟:

من المقطوع به أنّ الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله (عيسى بن مريم) غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم، فهذه الأناجيل دخل إليها التحريف والتبديل كما نصّ القرآن الكريم، وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثمّ إنّ الله عزّ وجل أنزل إنجيلاً واحداً فكيف أصبحت أربعة أناجيل.

يقول الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء:

(أين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وبشّر به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف!.

فالمسيح ابن مريم جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل، ولكنّ الناس على

Marfat.com

مرّ الزمان تركوا ذلك الإنجيل، وترتّب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألّف بعضها تلاميذ المسيح، وبعضها ألفه تلاميذ تلاميذه أو مَن بعدهم، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة، ومعلوم أنّ الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السّند، وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي، أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق، وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق، وما عداه كاذب)(١).

أما الأناجيل الحالية فهي عبارة عن مصنّفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم، كما تتضّمن أخباراً عن (يوحنّا المعمدان) وهو يحيى عليه السلام.

ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام، وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء.

١ - فإنجيل (متّى) وهو أقدم الأناجيل عندهم وأولها كُتب بعد نهاية المسيح بأربع سنوات وقد كتب باللغة العبرية، والموجودة الآن ترجمته، ولكن من هو المترْجِم؟ وأين الأصل المتَرْجَم حتى تتم المقارنة بينهما؟ كل ذلك ليس له عندهم جواب، فأية قيمة علمية إذاً لوثيقة لا يعرف أصلها ولا مترجمها وليس لها سند متصل إلى السيد المسيح أو تلامذته؟؟.

٢ - وإنجيل (مرقس) كتب باللغة اليونانية بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة، وقد اختلف النصارى في تاريخ تأليف هذا الإنجيل، فقال فريق: إن الذي كتبه هو (بطرس) رئيس الحواريين، وقال آخرون: إن (مرقس) كتب إنجيله بعد موت بطرس وبعد موت بولس أيضاً وجاء في كتاب «مرشد الطالبين» أن إنجيل

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ٣٩١.

Marfat.com

مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصّرهم بخدمته، وهذا الإنجيل ينكر ألوهية المسيح.

فأنت ترى أن الشكّ قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل جازم كما ثبت أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يُملِه فكيف تطمئن النفس إليه؟.

٣ ـ وإنجيل (لوقا) كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام، وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً، ولا من تلاميذ تلاميذه، وإنما هو تلميذ (بولس) وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم ير المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى إساءات بالغة، ولمّا رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي عمد من طريق الحيلة إلى الدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، وادّعى أنه صُرع وفي حال صرعه لمسه المسيح، وزجره عن الإساءة لأتباعه، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله، وانطلت حيلته على الكنيسة، وأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر، وقد أتى (لوقا) في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره (متّى) و (مرقس) بشكل واضح يرتاب له القارىء[1].

وهنا يقف البحث العلمي شاكاً في (لوقا) ومتهماً أستاذه (بولس) بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها ومثبتاً أنّ هذا المصنَّف لا صلة له بعيسى عليه السلام كتابةً ولا إملاءً.

٤ ـ وإنجيل (يوحنّا) كتب بعد رفع المسيح بـ ٣٢ سنة وتزعم الكنيسة أنّ هذا المصنف من كتابة (يوحنا بن زبدي) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام وقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إليه وبينوا أنه تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، وجاء في دائرة المعارف البريطانية، التي اشترك فيها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه:

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٤٠٠.

Marfat.com

(أمّا إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوّر أراد صاحبه مضادّة اثنين من الحواريين وهما القدّيسان (يوحنّا ومتّى) وقد ادّعى هذا الكاتب المزوّر في متن الكتاب أنه الحواريّ الذي يحبه المسيح . . .) .

وقد انفرد هذا الإنجيل بفقرات تدل على (ألوهية المسيح) والعجيب في الأمر أنّ الكنيسة تعتمد عليه في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام مع علمها اليقيني بعدم صحة نسبة هذا الإنجيل إلى (يوحنا) أحد تلامذة السيد المسيح .

وقد ذكر الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» صوراً عن تناقض هذه الأناجيل الحاليّة وعن اضطرابها واختلافها بشكل يلمس فيه الإنسان عدم الوثوق بما كتب فيها فارجع إليه إن شئت فإنه دقيق ونفيس[1] .

وفي الخاتمة يتضح لنا أن الأناجيل الموجودة الآن محرّفة، وأنها غير الإنجيل الذي أنزله الله، وأنها منقطعة الإسناد ومضطربة المتن ويكفي هذا لعدم الاطمئنان والوثوق بما فيها من أخبار وأحكام .

عقيدة النصارى في المسيح :

لم يختلف أحد من الناس، في شأن نبيّ من الأنبياء، كما اختلف النصارى في شأن المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم يقع جدل حول نبوّة أحد من الرسل كما وقع حول نبوّة السيد المسيح عليه السلام .

والعجيب في الأمر أنّ أهل الكتاب قد تنازعوا في شأن المسيح واضطربوا وذهبوا بين إفراط وتفريط . . فاليهود ادّعوا أنه (ابن زنى) لأنّ الولد لا بدّ أن يكون له أب، والمسيح ليس له أب فلا بدّ أن يكون ابن زنى . . والنصارى ادّعوا أنه (ابن الله) لأنه خلق من روح الله، وروح الله جزء من الإلَه فلا بدّ أن يكون ابن الله . لقد

---

(١) انظر كتاب قصص الأنبياء للنجار ص ٤٠٢ .

Marfat.com

غـالى الفريقـان في شأن السيـد المسيـح فأنـاس جعلوه ابن الله، وأناس جعلوه ابن زنى، والكل على خطأ وضلال، والحقيقـة مـا قرره القرآن الكريم وهو أنه رسول من الـرسل الكـرام بعثه الله إلى بني إسـرائيل بالهدى والبيّنـات، وأمّـه هي العفيفـة الصدّيقة، الطاهرة البتـول، التي أحصنت فرجهـا وكانت من القـانتين، استمـع إلى هذا البيان الرائـع، والحق المبين في آيات الذكر الحكيم:

﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

فالآية الكريمة فيها ردّ على الفريقين: ردّ على النصـارى في دعواهم أنـه ابن الله وردّ على اليهود في دعواهم أنه ابن زنى فهو رسول وأمه صـدّيقة، ثم انـظر إلى هذا الأدب الرفيـع الذي هو غاية في الإبـداع حيث ذكر أكـل الطعـام ﴿كانـا يأكـلان الطعام﴾ ليشير إلى أن الذي يأكل ويشرب هو محتـاج، والإله ليس بمحتـاج، والذي يتناول الطعام يحتاج إلى إخراج الفضلات، يحتاج إلى التغوط وإلى أن يـدخل بيت الخلاء، فكيف يليق هذا بالإله أو بابن الإلـه!!

وقد ذكر لنا القرآن الكريم عقائد النصارى مفصّلة، وبيّن أنهم فرق ثـلاثٌ:

١ ــ منهم من يعتقد بأنّ المسيـح نفسه هو ابن الله لأنه خلق من روحه

٢ ــ ومنهم من يعتقد بأنّ المسيـح نفسه هو (الله) تجسّم وتجسّـد في صورة (يسوع) ونزل إلى الأرض ليخلّص الناس من آثامهم.

٣ ــ ومنهم من يعتقد بعقيدة التثليث (الأقانيم الثلاثـة) الآب، والابن، وروح القدس، وأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٧٥).

Marfat.com

جاء في كتاب قصص الأنبياء ما نصّه:

«أمّا جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هي أنّ الله مركب في ثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والروح القدس، وهذه كلها واحد، فانحدر الله الذي هو الأب أو الابن ـ على اختلاف أقوالهم ـ وحلّ في مريم وتجسّد إنساناً وولد منها وهو (يسوع) إلى آخر ما يقولون.

وهذا الكلام لم يقله المسيح، ولم يعلم به، ولكنّ المسيحيّين لمّا أذاعوا المسيحية بين الوثنيّين، الذين كانوا يدينون بالأقانيم، وتجسُّدِ الآلهة والصلب والفداء، ودخلوا في المسيحية حاملين لتلك العقيدة، أحبّوا أن يوفقوا بين ما ألفوه من عقيدة، وبين هذا الدين الجديد، وأخذوا يؤلّهون المسيح ويقولون: إن الله انحدر منه (أُقنوم الابن) المتحد مع (الأب) و(الروح القدس) وتجسّد في (رحم مريم) ثم خرج إنساناً إلَهاً[1].

ويتساءل المرء كيف يكون (عيسى) إلَهاً مع أنه قد خرج من فرج امرأة وولد كبقية الناس؟ وكيف يكون إلَهاً مع أنه كان يأكل ويشرب وينام ويتألم ويتعب ويحتاج للذهاب إلى الحمّام ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً﴾.

ولقد ردّ القرآن الكريم على النصارى باطلهم وضلالهم، وبيّن كفرهم وعنادهم، وذكر ما هم عليه من ضلال وزور وبهتان في شأن السيّد المسيح فقال جل ثناؤه:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[1].

---

(١) انظر: كتاب قصص الأنبياء للنجار ص ٤٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية (١٧١).

Marfat.com

وقال جل ثناؤه في سورة المائدة مؤكّداً كفرهم في تلك العقيدة الضالة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (١).

يؤفكون: أي يصرفون عن الحق إلى الضلال.

وإذا كان اليهود والنصارى يعجبون من أمر (عيسى) لأنه ولد بدون أب فأمر (آدم) أعجب لأنه ولد بدون أب وبدون أم، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون هو الذي خلق عيسى بدون أب، وهو جلّ وعلا القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن أجل ذلك ضرب القرآن الكريم المثل بآدم فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ (٢).

معجزات السيد المسيح:

ومعجزات السيد المسيح كثيرة ذكر بعضها القرآن الكريم، وهي كسائر معجزات الأنبياء لا تدل على (ألوهيته) وإنما تدل على صدق نبوّته، منها: شفاء

---

(١) سورة المائدة: الآيات (٧٢ ــ ٧٥).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان (٥٩ ــ ٦٠).

Marfat.com

المرضى، وإبراء الأكمه (الأعمى) وإحياء الموتى، والإخبار عن بعض المغيّبات، والكلام في المهد إلى غير ما هنالك من معجزات، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . . .﴾ الآية [1].

خاتمة: هل سينزل السيد المسيح إلى الأرض:

لم تنته مهمة السيد المسيح عليه السلام بعد، وسينزل إلى الأرض ليتمّم رسالته ويبلّغ دعوته، فهو الآن حيّ في السماء، رفعه الله تعالى إليه بروحه وجسده، وقد أخبر الصادق المصدوق عن ذلك، ونحن نؤمن بما أخبر عنه القرآن، وبما حدّث عنه الرسول المعصوم، فقد جاء في الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حَكَماً مقسِطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية. . .»[2] الحديث. وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

* * *

(١) سورة المائدة: الآية (١١٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء؛ ومسلم في الإيمان رقم ١٥٥؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٣٢٤؛ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣٢٧/١٠.

Marfat.com

سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ـ ٥ ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

من سورة الأحزاب: الآيتان (٤٥ ـ ٤٦)

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم رسل الله جميعاً، ختم الله به النبوّة والرسالة كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية، فكان ختام مسك، إذ هو آخر المرسلين وجوداً، وأوّلهم رتبة ومنزلة، فهو سيّد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة[1].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[3].

---

(١) يلاحظ القارىء أنا قد ذكرنا هنا نبذة يسيرة عن رسالة خاتم الأنبياء ﷺ ولم نفصل لأن التفصيل يحتاج إلى كتاب خاص في تاريخ حياته ودعوته صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم ٣٦١٠، وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند.

Marfat.com

وقال ﷺ:

«أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبيٍ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي»(١).

نسبه الشريف:

هو محمد بن (عبد الله) بن (عبد المطلب) بن (هاشم) بن (عبد مناف) بن (قُصَي) بن (كِلاب) بن (مُرّة) بن (كعب) بن (لُؤي) بن (غالب) بن (فِهْر) بن (مالك) بن (النضر) بن (كِنانة) بن (خزيمة) بن (مدركة) بن (إلياس) بن (مضر) بن (نزار) بن (مَعَدّ) بن (عدنان) إلى أن ينتهي إلى (إسماعيل) بن إبراهيم عليهم السلام.

وكلُّ أجداده ﷺ هم من السادة الأشراف، ونسبه ﷺ من أشرف الأنساب، فما بعث الله نبيّاً إلا في أشرف نسب، وفي صحيح البخاري لمّا سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب فأجابه هرقل بقوله: (كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها) يعني في أكرم قومها حسباً، وأشرفها قبيلة. وقد كانت ولادته ﷺ ولادة الطهر والشرف، لم يصبه شيء من عُهْر الجاهلية، وكان بنكاح صحيح يشبه نكاح الإسلام، يشهد لذلك قول النبي ﷺ: «إني خَرَجتُ من نكاح، ولم أخرُج من سفاح»(٢)، وفي رواية عائشة: «ولدت من نكاحٍ غير سفاح».

ورسول الله ﷺ هو من أولاد (إسماعيل) عليه السلام وليس من أولاد (إسحٰق) وأنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم، وأمّا رسول الله ﷺ فقد كان من ذرية إسماعيل، ففي حديث مسلم: «إن الله اصطفى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم ٣٦١٨، وقال: هذا حديث حسن.
(٢) الحديث أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة ١/٦٥؛ والطبراني في الأوسط وأشار إلى حُسنه.

Marfat.com

كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنَانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1] وفي رواية للترمذي: «فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً».

ولادتـه ﷺ :

ولـد صلوات الله وسلامـه عليه يـوم الاثنين، الثاني عشـر ١٢ من ربيـع الأول عام الفيل، وذلك حوالي سنـة (٥٧٠) ميلاديـة أعني من ميلاد السيِّـد المسيـح عليه السلام، قال (ابن كثير): وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد يوم الإثنين[2] وقـد روى ابن عباس قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين، واستنبـىء يوم الإثنين، وخرج مهاجـراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين). رواه أحمد.

وأمّا كونه ولد عام الفيل فذلك مقطوع فيه، ولكن اختلفـوا في اليوم والشهـر، والجمهـور على أنه في الثـاني عشر من ربيـع الأول كمـا نصّ عليه ابن إسحٰق في السيرة، وروي عن ابن عباس أنه قال: (ولد رسول الله ﷺ عـام الفيل يـوم الإثنين، الثـاني عشر من شهـر ربيـع الأول، وفيـه بُعث، وفيـه عـرج بـه إلى السمـاء، وفيـه هاجر، وفيه مات)، قال في البداية والنهاية: وهذا هو المشهور عند الجمهور[3].

وأبـوه هو (عبـد الله بن عبد المـطلب. . .) إلى آخر النسب الشـريف كما مـرّ سـابقاً، واسم أمـه (آمنة بنت وهب بن عبـد مناف بن زهـرة بن كلاب بن مـرة. . .) وهكـذا حتى آخر سلسلة نسب الـرسول صلوات الله عليـه فتجتمـع هي وزوجها في الجد السادس (كلاب بنِ مرة).

من هو ابن الذبيحين؟ :

يذكر المؤرخون وأهل السيرة أن رسول الله هـو المسمّى (ابن الذبيحين) وقـد

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٦؛ والترمذي برقم ٣٦٠٩، وقـال: هذا حـديث حسن صحيـح، وانظر: جامع الأصول ٨/٥٣٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٦٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٦٠.

Marfat.com

ذكرنا أنه ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وإسماعيل هو الذي أُمِرَ إبراهيم عليه السلام بذبحه في المنام ـ كما مرّ في قصة إبراهيم الخليل ـ فإسماعيل هو (الذبيح الأول) وأمّا (الذبيح الثاني) فهو والد الرسول (عبد الله) الذي أراد عبد المطلب ذبحه للقصة الآتية:

قصة ذبح عبد الله:

قال ابن إسحٰق: (وكان عبد المطلب ـ فيما يزعمون ـ نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثمّ بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة، فلما تكامل بنوه عشرةً وعرف أنهم سيمنعونه وهم (الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله) جمعهم ثمّ أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله عزّ وجل بذلك فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم ليكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا ثمّ أتوه، فدخل بهم على (هبل) في جوف الكعبة وجاء يستقسم بالقداح، فخرج القدح على ابنه (عبد الله) وكان أصغر ولده وأحبهم إليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثمّ أقبل به ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه، فقالت له قريش: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟ ثمّ دلوه على عَرّافة واسمها (سجاح) فأشارت عليه أن يقرّب عشراً من الإبل ثمّ يضرب عليها بالقداح وأن يزيد حتى يرضى الربّ، ففعل فخرج القدح على عبد الله فزاد عشراً ثم عشراً إلى أن بلغت مائة من الإبل فضرب فخرجت على الإبل، فقالت قريش: قد رضي ربك فذبح الإبل فداء لولده عبد الله ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى الرسول «ابن الذبيحين». اهـ. سيرة ابن إسحٰق.

أسماء الرسول ﷺ:

هو سيدنا محمد ﷺ ويُكنى (أبا القاسم) و(أبا إبراهيم) وله عدة أسماء، محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله به الكفر، والعاقب الذي ليس بعده

Marfat.com

نبي، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والمقفى، ونبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة، ونبيّ الملحمة، والفاتح، وطه ويس، وخاتم النبيين[١]. . . وغيرها من الأسماء.

وقد بشّرت به التوراة والإنجيل وفيهما أوصافه صلوات الله عليه كما قال تعالى: ﴿الذين يتّبعونَ الرسولَ النبيّ الأميّ الذي يجدونهُ مكتوباً عندهُم في التوراةِ والإنجيل. . .﴾ الآية.

واسمه في التوراة (أحمد) وكذلك في الإنجيل وقد بشّر به السيّد المسيح عليه السلام كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ. . .﴾ الآية[٢].

ولكنّ النصارى طمسوا تلك المعالم كلها، وأنكروا كل وصفٍ له في الإنجيل حسداً وبغضاً، وزعموا أن الذي بشّر به المسيح هو غير محمد وهم ينتظرونه، وأمّا ما ورد في (إنجيل برنابا) من أوصاف الرسول ﷺ فقد كذّبوا به وأنكروا الإنجيل من أصله لئلا يقرّوا بنبوته ﷺ.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفا»: وأما اسم (أحمد) الذي أتى في الكتاب، وبشّرت به الأنبياء، فمنع الله بحكمته أن يسمّى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك، وكذلك (محمد) لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه أحمد، فسمّى قوم من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم. . .[٣].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٣/٢٥٢.

(٢) سورة الصف: الآية (٦).

(٣) انظر كتاب الشفا في حقوق المصطفى للإمام القاضي عياض.

Marfat.com

ورسول الله ﷺ هو أثر دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهمُ يتلو عليهم آياتك﴾ ولهذا قال ﷺ:

«أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أميّ أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(١).

صفة الرسول في التوراة:

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: (يا أيُّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومُبشراً ونَذيراً، وحِرزاً للأميّين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكل ليس بفظٍ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلاّ الله، فيفتح الله بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)(٢).

وروى (ابن إسحٰق) عن حسّان بن ثابت أنه قال:

(إني لغلام يفعة ـ ابن سبع سنين، أو ثمان سنين ـ أعقل ما رأيت وسمعت، إذا بيهودي في يثرب (المدينة المنورة) يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة»(٣).

مرضعات الرسول:

أرضع الرسول ﷺ أمّه (آمنةُ بنت وهب) و (ثويبة الأسلمية) و (أم أيمن) و (خولة بنت المنذر) وأكثرهن إرضاعاً له (حليمة السعدية) رضي الله تعالى عنها. قدمت (حليمة) مع عشرة نسوة من بني سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء، في سنة

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح، وأحمد في المسند ٣/١٧٤.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن إسحٰق، والبداية والنهاية لابن كثير.

Marfat.com

شهباء شديدة المجاعة، فعُرِضَ رسولُ الله ﷺ عليهنّ من أجل إرضاعه فما قبلته امرأة منهنّ لأنه يتيم، فكان كلما عرض على واحدة منهن تقول: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمّه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأمّا أمه فماذا سنرجو منها؟! وجاءت حليمة إلى (عبد المطلب) تطلب رضيعاً فقال لها: إنّ عندي غلاماً يتيماً وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يأخذنه، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به؟ فاستشارت زوجها (الحارث بن عبد العُزّى) فقال لها: لا بأس عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً وبركة.

تقول حليمة رضي الله عنها: فما هو إلاّ أن أخذته فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي وقام زوجي إلى شارفنا فإذا بها مملوءة لبناً، فحلب لنا ثمّ شرب وشربنا حتى روينا فبتنا بخير ليلة فقال زوجي: يا حليمة والله إني لأراك أخذت نسمة مباركة ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة!!.

ثم خرجنا راجعين فقطعت الركب بأتاني حتى ما يسبقني أحد، فكلما مررت على صواحبي قلن لي: يا حليمة هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي، فيقلن والله إنّ لها لشأناً. قالت: حتى أتينا أرض سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تسرح ثم ترجع شباعاً لبناً نحلب منها ما شئنا، وترجع أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، فلم يزل الله تعالى يرينا الخير والبركة حتى بلغ سنتين، فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فواللّه ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً قوياً(١).

حادثة شق الصدر:

بينما رسول الله ﷺ مع إخوته من الرضاع يرعى غنماً لحليمة السعدية إذ جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه، فجاء أخوه من الرضاع يشتدّ

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحق.

Marfat.com

نحو بيت حليمة فأخبرها الخبر، قالت: فخرجت أنا وأبوه نشتد (نسرع) نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: يا بنيّ ما شأنك؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني ثمّ استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم ردّاه كما كان، قالت: فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نخاف عليه، قالت حليمة: فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت: ما شأنكما لقد كنتما عليه حريصين، فقالا لها: لقد خشينا عليه التلف والحدث ـ وحدّثاها بقصته ـ فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، والله إنه لكائن لابني هذا شأن، ثم قالت أمه آمنة: ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى! قالت: إني لمّا حملت به ما حملت حملاً قط أخف منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنّه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم لما ولدته رأيت منه عجباً، رأيته رافعاً رأسه إلى السماء معتمداً على يديه، كأنه يريد أن يتكلم فدعاه عنكما...[1].

قال ابن كثير: وهذا الخبر روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهورة بين أهل السير والمغازي. وقد وقعت حادثة شق الصدر لرسول الله ﷺ في صغره وعمره قريب من ثلاث سنين، وكان لا يزال عند (حليمة السعدية) كما وقعت له حادثة أخرى تماثلها قبل الإسراء وذلك حين شقّ صدره واستخرج قلبه الشريف فغسل بماء زمزم واستخرج منه حظّ الشيطان وملىء جوفه حكمة وعلماً[2].

وقد ذكر ابن إسحٰق في السيرة أن بعض الصحابة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمّي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني (سعد بن كعب) فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٢٧٥.
(٢) الحديث مروي في الصحيحين.

Marfat.com

عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتّى إذا أنقياه ردّاه كما كان، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثمّ قال زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم»[1]. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيّد قوي.

يتلخص من هذا أن (حادثة شق الصدر) للرسول الأعظم ﷺ قد وقعت له مرتين في صغره حين كان مسترضعاً عند حليمة السعدية، ومرة في كبره وذلك في ليلة الإسراء كما ثبت ذلك في الصحيحين، وليس هذا بالأمر المستغرب على قدرة الله عزّ وجل فقد أصبح الشقّ في زماننا أمراً مألوفاً، يفعله الطبيب الجراح بالشخص المريض فيستخرج قلبه ويجري فيه العملية الدقيقة ثمّ يرده إلى مكانه والمريض لا يشعر بألم أو غيره ويرجع المريض صحيح الجسم، قويّ البنية كأنه لم يكن به مرض، كما أصبحت عملية (زرع القلب) شائعة في كثير من البلدان، والعمليات الجراحية اليوم أصبحت مألوفة وعاديّة بحيث تجرى في أدقّ أقسام البدن، أفيكون شق صدر الرسول ﷺ مستحيلاً على قدرة الله عز وجل حتى ينكره بعض ضعفاء الإيمان!! ويؤلوا الحادثة تأويلاً باطلاً ما أنزل الله به من سلطان!!.

أولاد الرسول:

أولاد الرسول ﷺ سبعةٌ وكلهم من (خديجة) رضي الله عنها إلا (إبراهيم) فهو من مارية القبطية، وهم كالآتي:

١ ـ (القاسم): وهو أكبر أولاده، وبه يُكْنَى صلوات الله عليه، وقد عاش سنتين ثم مات.

٢ ـ (عبد الله): وهو الثاني من الذكور وقد مات صغيراً في حياة الرسول.

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٢٧٥.

Marfat.com

٣ ــ (زينب): وهي أكبر بناته تزوّج منها أبو العاص.

٤ ــ (رقية): تزوج منها عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٥ ــ (أم كلثوم): تزوج منها عثمان أيضاً بعد وفاة رقيّة بسنة.

٦ ــ (فاطمة الزهراء): تزوّج منها علي بن أبي طالب، وتسلسل منها آل بيت النبوّة، وكلّهم ولدوا قبل البعثة إلا السيدة فاطمة فبعد النبوّة بسنة.

٧ ــ (إبراهيم): وهومن مارية القبطية التي تزوّج بها بعد وفاة خديجة. وكل أولاده ماتوا قبله إلا السيدة فاطمة فإنها عاشت بعده ستة أشهر، رضي الله عنهم جميعاً.

قال ابن هشام: وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوّج خديجة خمساً وعشرين سنة.

ولم يعدّد رسول الله ﷺزوجاته إلاّ بعد وفاة السيدة خديجة وذلك لحكم جليلة منها: (تعليمية، وتشريعية، واجتماعية، وسياسية)[1] والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

حياة الرسول في كلمات:

حياة الرسول الأعظم ﷺ تحتاج إلى مجلدات ضخمة وإلى كتابة موسعة عن نشأته ودعوته ورسالته، ولذلك فإننا سنذكر بعض النقاط ونجتزىء بها:

١ ــ نشأ الرسول ﷺ على اليتم والاغتراب وخشونة العيش وآلام الحياة فقد توفي أبوه (عبد الله) قبل ولادته وهو جنين في بطن أمه فجاء يتيماً محروماً من عطف الأب وحنانه.

٢ ــ ولما بلغ من العمر أربع سنين أرجعته (حليمة السعدية) مرضعته إلى أمّه في مكة فبقي عندها مع جده (عبد المطلب) في كلاءة الله ورعايته وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته وتوفيقه.

---

(١) انظر: هذه الحكم مفصّلة في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن» ٢/ ٣٣٠.

Marfat.com

٣ ـ ولما بلغ من العمر ست سنين أخذته أمه (آمنة) إلى المدينة المنورة لزيارة بني النجار أخوال أبيه، فماتت وهي راجعة إلى مكة في (الأبواء) بين مكّة والمدينة فأصبح رسول الله ﷺ يتيم الأبوين.

٤ ـ بقي رسول الله ﷺ في كفالة جدّه عبد المطلب بعد وفاة أمه، وكان جدّه يحبّه ويكرمه، ويجلسه على فراشه الذي يفرش له في ظلّ الكعبة، وكان أولاده لا يجلسون على الفراش إجلالاً لأبيهم، فإذا جاء رسول الله وهو غلام جفْر وأراد الجلوس منعه أعمامه فكان عبد المطلب يقول لهم: دعوا ابني فوالله إنّ له لشأناً، ثمّ يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويلاطفه، وهذا من عناية الله تعالى به وجميل إحسانه إليه ﴿ألَم يجدْكَ يتيماً فآوى؟﴾.

٥ ـ بعد سنين من كفالة جده عبد المطلب توفي جدّه فكفله عمّه (أبو طالب) وكان الرسول ﷺ ابن ثمان سنين، وقد أوصى جده قبل وفاته به أبا طالب فكان أبو طالب يكرمه ويعطف عليه لأنه ابن أخيه (عبد الله) وتنفيذاً لوصية أبيه. وهكذا توالت النكبات على رسول الله، فلم يعتنِ به مؤدب، ولم يوجّهه مدرّب، ولكنّ الله عز وجل حفظه ورعاه، ونشّأه على كمال وخلق عظيم: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي».

٦ ـ تزوج ﷺ بخديجة لما بلغ من العمر ٢٥ سنة، وأوحى الله تعالى إليه لما بلغ ٤٠ أربعين سنة وذلك حوالي سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام وأمره بتبليغ ما أنزل إليه بعد ٣ ثلاث سنوات من نبوته، فقام يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولبث يدعو إلى الله في مكة وما حولها نحواً من عشر سنين حتى أذن الله له بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة).

٧ ـ هاجر الرسول إلى المدينة وجعلها مركز دعوته، وعاصمة دولته الدينيّة ـ دولة الإسلام ـ وكان ذلك بأمرٍ من الله تعالى وتوجيهٍ منه، فهاجر ومعه (أبو بكر الصدّيق) لا فراراً من زحف، ولا خوفاً من قتل، وإنما بتخطيط وتدبير من العليّ

Marfat.com

القدير، وبذلك بدأت نواة (الدولة الإسلامية) وقام بنيان الجماعة المحمدية التي فتحت ـ فيما بعد ـ مشارق الأرض ومغاربها، ونشرت الإسلام في ربوع العالم، وأصبحت كلمة الله هي العليا.

٨ ـ ولما أكمل الله للناس دينهم، وأتمّ عليهم نعمته، وأدّى رسوله محمد ﷺ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وفتح عليه بالنصر المبين، اصطفاه الله تعالى إليه، واختاره لجواره، فقبض روحه، وكان ذلك في يوم الإثنين من ربيع الأول لسنة ١١ من الهجرة النبوية.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

شمائله العطرة ﷺ:

إذا كان من واجب الأمم، التي تسعى لحياة العزة والكرامة، أن تتعرف على عظمائها، وقادتها، وسادتها ـ الذين خلدوا ذكرها، ورفعوا قدرها، وفرضوا احترامها على سائر الشعوب ـ وأن تنزلهم منها منزلة السيادة والريادة، فإن من واجب كل مسلم، بل من واجب كل إنسان عاقل أن يعرف شمائل هذا النبي الكريم، والرسول الهادي الأمين، الرحمة المهداة، والسراج المنير، الذي شرف الله به البشرية، ورحم به الإنسانية، بعد أن كانت تسير في متاهات الضلالة، وتوشك أن تتردى في هاوية الشقاء والجحيم.

وإذا كان فضل الله على الإنسانية عظيماً، ببعثه سيد المرسلين (محمد بن عبد الله) صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فإن فضله على العرب أعظم وأجلّ، حيث بعثه اللّهُ منهم تشريفاً لأمة العرب وتكريماً، فأيقظهم من السبات، وأنقذهم من الضلالة، وأحياهم بعد أن كانوا في حكم الموتى، لا وزن لهم ولا قدر، فجعلهم الله ببركة بعثته خير الأمم، وجعلهم مشاعل النور والضياء في هذه الأرض.

وإذا كانت معجزة عيسى إحياء بعض الموتى، فإنَّ معجزة محمد إخراج أمّة من

Marfat.com

العدم، لتتبوأ مكان الصدارة في ربوع المعمورة، وما أبدع هذا التصوير في قول أمير الشعراء:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من العدم

وهذا ما يذكرنا به القرآن العزيز، حين يتحدث عن بعثة فخر الكائنات محمد ﷺ فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢﴾[1].

إي والله، لقد كان أجدادنا العرب في ضلال مبين، وأي ضلال أعظم، وأي خسران أكبر، من أن يأخذ الإنسان حجراً فينحته بيديه، ويصنعه على مزاجه، ثم يركع له ويسجد، ويعبده عبادة المخلوق للخالق، ويتخذه رباً يتضرع إليه، لجلب الرزق والشفاء، ودفع المكروه والبلاء؟؟.

وصدق الله العظيم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾[2]

والأعجب من هذا أن يتخذ الرجل إلـهاً له من العجوة، فإذا ما جاع بلعه؟!.

بل أي سفه وجهل، أكبر وأعظم، من أن يسعى الإنسان إلى ابنته ـ فلذة كبده ـ فيدفنها وهي حية تحت التراب، لا لذنب جنته، أو جرم فعلته، إلا لأنها أنثى. وهو يحب البنين ويكره البنات؟ ﴿وإذا المؤودة سئلت. بأي ذنب قتلت﴾؟ أي: ما ذنبها وما جرمها حتى دفنتموها وهي حية تحت التراب؟.

ولنقرأ هذه الآيات البيّنات، وهي تكشف لنا عن صورة قاتمة، من حياة أجدادنا العرب، في كراهتهم وتشاؤمهم من ولادة زوجاتهم للبنات:

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٢).
(٢) سورة الحج: الآية (٧٣).

Marfat.com

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾(٣).

أي: أيترك هذه الأنثى على قيد الحياة، ويلحقه الذل والهوان بسببها.

أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

من غرائب القصص والأخبار:

وإليكم هذه القصة: التي يتصدع لها القلب، وينفطر ألماً وحسرة، ولا يكاد يصدقها الإنسان، لولا أنها حقيقية واقعية: (روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كان لا يزال مغتمّاً حزيناً في مجلس رسول الله عليه السلام، فقال له الرسول الكريم: «ما لي أراك أبداً كئيباً محزوناً؟ فقال: يا رسول الله إني أذنبت ذنباً في الجاهلية، وأخاف أن لا يغفره الله لي ولو أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله إني كنت ممن يئدون بناتهم ـ أي يقتلون البنات ـ فولدت لي زوجتي بنتاً، فتشفعت إلي امرأتي أن أتركها لها فتركتها، حتى إذا كبرت وأدركت، وصارت من أجمل البنات، خطبها الكثيرون فدخلتني الحمية، ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زواج، فاحْتَلْتُ على زوجتي فقلت لها: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثيها معي تتسلى، فسُرَّتْ بذلك، وزينتها بالحلي والثياب وبعثتها معي، فذهبت بها خارج المدينة إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت البنت بأني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وأخذت تبكي وتتضرع إلي أن أتركها وتقول: يا أبت لا تضيّع وصية أمي، قال: فرحمتها ثم دخلت علي الحمية ثانية، وغلبني الشيطان لأغسل عن نفسي العار. فأمسكت بها بقوة وألقيتها منكوسة على رأسها في البئر، ومكثت هناك حتى انقطع صوتها. فرجعت إلى بيتي وأنا مطمئن البال لأنني قد أزلت عني ذلك العار، فلما سمع الرسول تلك القصة بكى، وبكى معه أصحابه، ثم قال له: «لو كنت معاقباً أحداً بما فعل في الجاهلية، لعاقبتك على ذلك الذنب»). تفسير القرطبي ٩٧/٧.

---

(٣) سورة النحل: الآيتان (٥٨ ـ ٥٩).

Marfat.com

هـذا طرف من السفـه والضلال الـذي كان عليـه العـرب في الجـاهليـة قبـل الإسلام، قال الزمخشري في تفسيره الكشاف: (كان الرجـل في الجاهليـة يحلف، لئن ولد له كذا من الأولاد، لينحرنّ أحـدهم، كما حلف عبـد المطلب). وقـال ابن عبـاس رضي الله عنهما: (إذا سـرك أن تعلم جهل العـرب، فاقـرأ ما فـوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قد خسر الـذين قتلوا أولادهم سفهاً بغيـر علم، وحرّمـوا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾[1].

المنّةُ العظمى ببعثة السراج المنير:

ولسنا الآن في صدد الحـديث عن جهالات العـرب، وإنما ذكـرنا شيئاً يسيراً لنعرف فضل الله علينا ببعثة المنقـذ السراج المنيـر ﷺ، ولنشكر الله على هـذه المنة العظمى حيث أخرجنا به من الظلمات إلى النور.

وأول مـا ينبغي أن نتـذكـره من سيرة هـذا النبي العـظيم، أن الله شـرف بـه الإنسـانية، فجعله هـادياً وبشيـراً، وداعياً إلى الله بـإذنه وسـراجاً منيـراً، وامتنَّ على المسلمين بأعظم منة، وأفضل كرامة، ألا وهي «بعثة خاتم الرسل» مـزكياً، وهـادياً، ومرشداً، ولنستمـع إلى هذه الآيات البيّنات في كتاب ربنا الجليل وهي تذكرنا بالمنة العـظمى على المؤمنين:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[2].

فبعثتـه صلوات الله عليه هي المنـة الكبرى، والنعمـة العظمى، بـل كان ﷺ الرحمة المهـداة لأهل الأرض كمـا قال صلوات الله عليـه: «إنما أنـا رحمة مهـداة» ومـا أروع هذا التصـوير الـذي صور بـه القرآن النبـي الكـريم حين قال سبحـانه في وصفه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٢٤. (٢) سورة آل عمران: الآية (١٦٤).

Marfat.com

صفته عليه السلام في التوراة:

ولنمعن النظر فيما وصفه الله به في الكتب السماوية، وما خصَّه به من المزايا والشمائل الحميدة، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ــ وكان عبد الله قبل إسلامه يقرأ التوراة ــ فقال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين ــ أي حصناً للعرب ــ أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله، حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا «لا إله إلا الله» فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»(١).

حقاً لقد أقام الله به الملة العوجاء فأنار به البصائر، وأحيا به القلوب الميتة، وشع نور الإسلام على بقاع الأرض، فملأ الدنيا نوراً وعدلاً، وحكمة وعلماً، وعلت راية «لا إله إلا الله» ودخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يعبدون حجارة صماء، لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، وفتح الله به أعيناً أعمتها الضلالة عن رؤية نور الحق، وصمت آذانها عن سماع كلمة التوحيد، وحجبت بصائرها عن مشاهدة دلائل وجود الله ووحدانيته، فإذا بتلك الحجب تزول، وبتلك السحب تنقشع، فيعم الهدى أرجاء الأرض، بعد أن خيم عليها الظلام قروناً عديدة، وإذا برعاة الغنم يصبحون سادة الأمم وملوك العالم، ويصبح لهم عز ودولة وسلطان.

أخلاقه وشمائله عليه السلام:

سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاق رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت تلك الكلمة الصغيرة الجامعة: (كان خلقه القرآن). ومعنى هذه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير «تفسير سورة الفتح» وأحمد في المسند ٣/ ١٧٤.

Marfat.com

الكلمة الرائعة أن أخلاقه وشمائله، كانت تجسيماً وتجسيداً للقرآن الكريم، فما من فضيلة دعا إليها القرآن، ولا من كرم ونبل حث عليه الدين، إلا كان متمثلاً فيه، متجسماً في أخلاقه ﷺ، فهو الأنموذج الكامل، والشخصية المثالية، والصورة الحية الناطقة، التي تجسد وتمثل آداب القرآن، وفضائله السامية، ولهذا جاء الثناء العاطر، من رب العزة والجلال على هذا النبي الكريم بقوله سبحانه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وزيادة في الإيضاح والبيان، فقد حبا الله حبيبه المصطفى ﷺ مزايا قلّ أن توجد في أحد من البشر، مهما حلّق في سماء الفضيلة والكمال، وبلغ ذروة العز والسؤدد، تلك هي خصائصه وشمائله التي انفرد بها هذا النبي الكريم، يصورها لنا القرآن أبدع تصوير، فيقول تقدست أسماؤه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وصفه تعالى بأوصاف زكية سنية، جليلة فريدة، واختار له تعالى من أسمائه القدسية اسمين «الرؤوف» و«الرحيم» فقال: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. قال ابن عباس: (لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه، إلا لمحمد عليه السلام).

ولا عجب فذاك مقام من رفع الله قدره على العالمين، وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين، ولنمعن النظر في هذه الآية الكريمة، فقد جاءت بأسلوب التأكيد «قد» و«لام القسم» ليذكرنا تعالى بالنعمة العظمى، والمنة الكبرى، ببعثة هذا السراج المنير ﴿لقد جاءكم رسول﴾ أي والله لقد جاءكم أيها الناس، رسول عظيم القدر، رفيع الشأن ثم قال: ﴿من أنفسكم﴾ أي: من جنسكم من البشر، رسول عربي، هاشمي، قرشي، تعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، وطهارته ونزاهته، ثم قال تعالى مبيناً ما تحلى به هذا الرسول من جميل المناقب: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: صعب وشاق عليه ما يوقعكم في الحرج والمشقة والضيق ﴿حريص عليكم﴾ أي: حريص على هدايتكم، ووصول النفع إليكم ﴿بالمؤمنين

Marfat.com

رؤوف رحيم﴾ أي: هو شديد المحبة، عظيم الرأفة والرحمة على أمته، لا يريد لهم إلا كل جميل وإحسان، وخير وفلاح، وهكذا أشاد بفضله القرآن، ويا له من ثناء عاطر من رب العزة والجلال على هذا الرسول المجتبى!!.

من مظاهر شفقته ورحمته بالأمة:

ولعلنا ندرك طرفاً يسيراً، من شفقة هذا النبي على أمته ورحمته بها، فقد كان يخاف عليها الهلاك. وتترقرق الدموع في عينيه إذا ذكر أمته، خوفاً عليها أن تزل أو تضل، أو يعذبها الله كما عذب الأمم قبلها، بسبب تكذيبها لنبيها، أو إعراضها عن شرعه ودينه، ذلك ما كان يحذره ﷺ ويخافه على أمته، ويبكي من أجله، وقد أمنه الله جل ثناؤه بقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾(١) فقد رفع الله عن هذه الأمة ببركته عذاب الاستئصال يعني الهلاك والدمار الذي أصاب من سبق لتكذيبهم للرسول الذي أرسل إليهم، أما نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد بعثه الله رحمة للعالمين، فهو رحمة لجميع الخلق. رحمة للمؤمن بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب، ولنمعن النظر في التعبير القرآني البديع: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ وكأن الآية تقول: إكراماً لك يا محمد لن يهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كما جرى على من قبلهم من الأمم السابقين، وهذا من آثار الرحمة التي عمَّ الله بها أهل الأرض، ومن مظاهر شفقته ورحمته على أمته ما أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.(٢)

وتلا قول عيسى عليه السلام:

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

Marfat.com

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[١].

فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي، أمتي» وبكى، فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنَّا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[٢]. وصدق الله العظيم: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. اللهم اجعلنا من أمته وأحبابه وأتباعه في الدنيا والآخرة.

• • •

(١) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم (٢٠٢).

Marfat.com

الفصل السابع

الرسل من غير أولي العزم

١- ادريس عليه السلام
٢- هود عليه السلام
٣- صالح عليه السلام
٤- لوط عليه السلام
٥- إسماعيل عليه السلام
٦- إسحاق عليه السلام
٧- يعقوب عليه السلام
٨- يوسف عليه السلام
٩- شعيب عليه السلام
١٠- أيوب عليه السلام
١١- ذو الكفل عليه السلام
١٢- هارون عليه السلام
١٣- داود عليه السلام
١٤- سليمان عليه السلام
١٥- إلياس عليه السلام
١٦- أليسع عليه السلام
١٧- يونس عليه السلام
١٨- زكريا عليه السلام
١٩- يحى عليه السلام

Marfat.com

ادريس عليه السلام

ـ ١ ـ

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾ .

من سورة مريم : الآيتان (٥٦ ـ ٥٧)

إدريس عليه السلام هو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز، وذكره في بضعة مواطن من سور القرآن . . وهو ممن يجب الإيمان بهم تفصيلاً أي يجب اعتقاد نبوّته ورسالته على سبيل القطع والجزم، لأن القرآن قد ذكره باسمه وحدّث عن شخصه فوصفه بالنبوة والصدّيقية فقال عز من قائل: ﴿واذكرْ في الكتاب إدريسَ إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ .

نسبه عليه السلام :

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل . . وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليه السلام، واسمه عند العبرانيين (خنوخ) وفي الترجمة العربية (أُخنوخ) وهو من أجداد نوح عليه السلام، وقد زعم بعض المؤرخين أنه لم يكن قبل نوح بل في زمن بني إسرائيل، وهو زعم خاطىء ردّه الحافظ ابن كثير وغيره من المؤرخين الثقات .

مولده ونشأته :

إدريس عليه السلام هو أول بني آدم أعطي النبوة بعد (آدم) و (شيث) عليهما السلام، وذكر ابن إسحٰق أنه أول من خطّ بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم عليه

Marfat.com

السلام ٣٠٨ سنوات لأنّ آدم عمّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة كما مرّ في قصته عليه السلام[1].

وقد اختلف العلماء في مولده ونشأته.. فقال بعضهم: إنّ إدريس ولد ببابل، وقال آخرون: إنه ولد بمصر، والصحيح الأول، وقد أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم. ولما كبر آتاه الله النبوّة، فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة (آدم) و (شيث) فأطاعه نفر قليل، وخالفه جمٌ غفير، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم، فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل (بابل)؟ فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره، فخرج وخرجوا حتى وصلوا إلى أرض مصر فرأوا النيل فوقف على النيل وسبّح الله، وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الناس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق..![2].

وقد كانت مدة إقامة «إدريس»[3] عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة ثمّ رفعه الله إليه كما قال تعالى: ﴿ورفعناهُ مكاناً عليّاً﴾.

وكانت له مواعظ وآداب، فقد دعا إلى دين الله، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة، بالعمل الصالح في الدنيا، وحضّ على الزهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة، وأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدّد فيه أعظم تشديد، وقيل: إنه كان في زمانه ٧٢ لساناً يتكلم الناس بها، وقد علّمه الله تعالى منطقهم جميعاً ليعلّم كل فرقةٍ منهم بلسانهم كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومهِ ليُبيّنَ لهم﴾. وهو أول من علّم السياسة

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/٩٩.

(٢) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦.

(٣) انظر: قصته مفصّلة في تاريخ الطبري ١/١٧٢، قال: ويسمى «أُخْنُوخ» وهو إدريس عليه السلام، وانظر: البداية والنهاية ١/٩٤.

Marfat.com

المـدنيّة، ورسم لقـومه قـواعد تمـدين المدن، فبنت كـل فرقـة من الأمم مـدنـاً في أرضها، وأنشئت في زمانه ١٨٨ مدينة.

وقد اشتهر بالحكمة.. فمن حكمه قولـه: (خير الـدنيا حسـرة، وشرّهـا ندم) وقولـه: (السعيـد من نظر إلى نفسـه، وشفاعتـه عند ربـه أعمالـه الصالحـة) وقولـه: (الصبر مـع الإيمان يورث الظفر) إلى آخر حكمه الكثيرة التي اشتهر بها عليـه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

* * *

Marfat.com

هــــودُ عليــه السلام

ـ ٢ ـ

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾. من سورة هود: الآية (٥٠)

ذُكـر (هود) عليـه السلام في القـرآن الكـريم سبـع مـرات، في عدد من السور الكـريمة منهـا سورة الأعـراف، وسورة الشعـراء، وهنـاك سـورة كاملة تسمى بسـورة (هـود). . وقد أرسله الله تعـالى إلى قبيلةٍ عظيمـة من العمـالقـة تـدعى قبيلة (عـاد) وفيهم يقول الله جل ثناؤه:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾(١).

و (عاد) هي من القبائـل العربيّـة البائـدة، المتفرّعـة من أولاد (سام بن نـوح) وسميت بذلك نسبةً إلى أحد أجدادها وهو (عاد بن عوض بن أرم بن سام).

نسب هود:

هـو (هود) عليـه السلام بن عبـد الله بن رباح بن الخلود بن (عـاد) جد القبيلة وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام، وهذا هـو الذي اختـاره ابن جريـر، وقد ذكـر (محمد بن إسحـاق) نسباً يختلف عن هذا النسب، والصحيـح ما ذكـرنـاه وقـد رجحّه الأستاذ (النجار) في كتابه قصص الأنبياء.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٢٣ ـ ١٢٤).

Marfat.com

مساكن عاد:

كانت مساكن (عاد) في أرض الأحقاف جهة اليمن، من جنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها (عُمَان) وموضع بلادهم اليوم رمال؛ ليس بها أنيس ولا سمير، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، قال تعالى:

﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

وعاد هم (عاد إرم) التي تسمى عاد الأولى، وأمّا عاد الثانية فمتأخرة، قال تعالى: ﴿وأنَّهُ أهلكَ عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى﴾ وتسمى (عادَ إرم) لقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وقد كانت هذه القبيلة من العمالقة أشدّاءَ أقوياءَ، وقد زادهم الله بسطةً في الجسم، وكانوا مترفين في الحياة، يبنون القصور الفخمة الشامخة، ويقيمون القلاع والحصون، وعندهم البساتين النضرة، والعيون الجارية، وقد غرقوا في النعيم، وانغمسوا في البذخ والترف، وقد قصّ القرآن الكريم ما كانوا عليه من مظاهر النعمة والترف فقال عزّ من قائل:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

وقد كانت أجسامهم قوية، وبنيتهم ضخمة متينة، وكانوا إذا مشوا على الأرض

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (٢١).

(٢) سورة الفجر: الآيات (٦ ـ ٨).

(٣) سورة الشعراء: الآيات (١٢٨ ـ ١٣٤).

Marfat.com

تهتز الأرض تحت أقدامهم لثقلهم، كأنهم الجبال لفرط طولهم، وضخامة أجسادهم، فاغترّوا بقوتهم، واستكبروا على الله، وعتوا عن أمر رسله، وتمادوا في طغيانهم فأهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)﴾[١].

عبادتهم:

كان قوم (هود) عليه السلام أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، قال ابن كثير: وكانت لهم أصنام ثلاثة (صدا، وصمودا، وهرا)[٢] وكانوا عرباً جفاةً، عتاةً كافرين متمرّدين على الله، وكان (هود) عليه السلام ينذرهم ويحذّرهم عذاب الله، ويضرب لهم المثل بقوم نوحٍ ويذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويبيّن لهم أنه لا يطلب على نصيحته أجراً منهم، ولا يبتغي جزاءً ولا شكوراً، وكان منهم ناس قد عتوا عتواً كبيراً فقد قاوموا دعوته، وسفّهوا رأيه، وعزموا على الفتك به، ورموه بالسّفه والجنون، واتهموه بأنّ آلهتهم قد أصابته بسوء، وأنّ ما يهذي به إنما بسبب مسّ الآلهة له، قال تعالى حكاية عنهم:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥)﴾[٣].

وقد أنذرهم (هود) عليه السلام عذاب الله، ولكنّهم بقوا على كفرهم وعنادهم.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان (١٥ ــ ١٦).

(٢) البداية والنهاية ١٢١/١.

(٣) سورة هود: الآيات (٥٣ ــ ٥٥).

Marfat.com

هـلاك عـاد:

لمّا طغت عاد وتمرّدت على نبيّ الله (هود) عليه السلام، و لم ينفعها التذكير والإنـذار وتمادت في طريق العصيـان، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، حتى اشتد عليهم الجهد والبلاء، فاستغاثوا واستنجدوا فأرسل الله عليهم سحاباً كثيفاً من السمـاء، فلمّا رأوا السحاب فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير، وأنّ الله قد تداركهم برحمته واستجاب دعاءهم حين استغاثوا، فلما أظلتهم السحابة رأوها سوداء قاتمة ففزعوا، ثمّ هبت عليهم الريح ـ وكانت ريحاً عقيماً ـ وسلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فأهلكهم الله وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية، ونجّى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ، وكان الذين هلكوا من قوم عاد قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق من أنفسهم ولا من ديارهم شبح ولا رسم، لأنّ الريح قد دمرّت كل شيء فلم تُبق عليهم ولم تذر، استمع إلى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[١].

وهذه الريح تسمّى (الريح العقيم) التي ذكرها الله في كتابه العزيز بقوله:

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[٢].

وقد سكن (هود) عليه السلام بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي حضرموت على بعد مرحلتين من مدينة (تريم)، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه مدفون في كثيبٍ أحمر وعند رأسه سَمُرة في حضرموت، ويزعم أهل فلسطين أنه مدفون عندهم، والصحيح ما ذكرناه[٣]، والله أعلم.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان (٢٤ ـ ٢٥).

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٤١ ـ ٤٢).

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٥.

Marfat.com

صالحٌ عليه السلام

ـ ٣ ـ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

من سورة النمل: الآية (٤٥)

نسبه عليه السلام:

هو صالح بن عبيد بن آسف.. وينتهي نسبه إلى (سام بن نوح) وقد أرسله الله تعالى في قبيلةٍ من القبائل العربية البائدة وهي قبيلة (ثمود) وسميت بذلك نسبة إلى أحد أجدادها وهو (ثمود بن عامر) من أولاد سام بن نوح.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل (إسماعيل) عليه السلام (العربُ العاربة) وهم قبائل كثيرة منهم عاد، وثمود، وجرهم، ومدين، وقحطان... إلخ.

وأما العرب المستعربة فهم من نسل (إسماعيل) بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل عليه السلام أول من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه (هاجر) في مكة المكرمة[1].

والمقصود أن قبيلة (ثمود) كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وأنهم من العرب العاربة.

مساكن ثمود:

كانت مساكن ثمود بالحِجْر، ولذلك سمّاهم الله في القرآن الكريم (أصحاب الحجر) قال تعالى:

---

(١) البداية والنهاية ١/١٢٠.

Marfat.com

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وأما الحِجر فهي تقع بين (الحجاز والشام) ويمرّ عليها المسافر بطريق البر، وتعرف الآن بـ (فجّ الناقة) وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن وتسمّى (مدائن صالح).

يقول المسعودي:

(ورممهم باقية، وآثارهم بادية، في طريق مَن ورد من الشام، وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مصاقبة لخليج العقبة) أي انها قريبة من خليج العقبة.

أصل قبيلة ثمود:

وقد اختلف المؤرخون في أصل ثمود وزمن وجودهم، فقال بعضهم: إنهم بقيّة من قوم (عاد)، وقال آخرون: إنهم بقيّة من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات، ويرى بعض المؤرخين من المستشرقين أنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين.. وهذا الرأي باطل لأن اليهود لم يُعْرفوا إلا بعد خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من أرض مصر فكيف يكونون يهوداً؟ وأصح الأقوال أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد، ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى على لسان نبيّه الكريم (صالح) عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

Marfat.com

يقول (ابن كثير) رحمه الله:

(وهم قبيلة مشهورة يقال لها (ثمود) باسم جدّهم ثمود أخي جديس، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، فلما نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود استقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها وطبخوا، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمرهم أن يريقوا القدور وأن يعلفوا العجين الإبل، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال لهم ـ كما في الصحيحين ـ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم»(١).

وأما زمن وجود (ثمود) فلم يعلم بالضبط إلّا أنهم كانوا بعد (عاد) كما أشارت الآية الكريمة، وقبل الميلاد وقبل زمن موسى عليه السلام قطعاً بدليل قول مؤمن آل فرعون يخوّف قومه عذاب الله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾. [غافر: ٣٠ ـ ٣١].

وممّن ردّ على دعوى المستشرقين ـ أن قبيلة (ثمود) من اليهود ـ الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء فارجع إليه إن شئت(٢).

عبادة قوم ثمود:

كانت قبيلة (ثمود) تدين بعبادة الأوثان، وتكفر بالله الواحد الديّان، فبعث الله إليهم سيدنا (صالح) عليه السلام، يذكّرهم بنعم الله، ويهديهم طريق الفوز والسعادة، وأنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم (عاد)، وأمرهم بالتقوى، ونهاهم

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠.

(٢) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٥٩.

Marfat.com

عن عبادة الأصنام فظلّوا متمادين في غوايتهم، عاكفين على عبادتهم الباطلة، وكانوا أهل خصبٍ ونعيم، لما لهم من الخيرات الوافرة، والجنات الزاهرة، والعيون الجارية، وقد ذكّرهم الله تعالى بهذه النعم بقوله:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (١).

فآمن به نفر قليل، وأكثرهم كذّبوه وكفروا برسالته، وعتَوا في طغيانهم عتواً كبيراً، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه، فجاءهم بمعجزة (الناقة) وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق (صالح) عليه السلام، حيث خرجت الناقة من صخر أصمّ، ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء.

لماذا كانت الناقة معجزة؟

وقد كان لهذه الناقة بعض الأمور العجيبة الغريبة التي تدل بحق على صدق صالح عليه السلام وعلى أنها آية باهرة، ومعجزة ساطعة من عند الله تعالى منها:

أولاً: كونها خرجت من الصخر وهو حجر أصم من الجماد فكيف يخرج منه الحيوان؟.

ثانياً: كانت تشرب ماء القبيلة بأجمعه ﴿لها شربٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم﴾ واستيفاء ناقةٍ لشرب أمة أمر عجيب.

ثالثاً: أنها كانت تعطي القبيلة من (الحليب) بقدر الماء الذي شربته وهذا أيضاً أمر عجيب.

قال (الإمام الرازي) رحمه الله: واعلم أن القرآن قد دلّ على أنّ في الناقة (آية) وأمّا أنها آية من أيّ الوجوه فهو غير مذكور قال تعالى: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليم﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (١٤٦ ـ ١٤٩).

Marfat.com

ولقد كانت هذه الآية المعجزة برهاناً ساطعاً على صدق نبيّ الله صالح عليه السلام، كما كانت بطلبٍ منهم حيث وعدوه باتباعه والإيمان به إن هو شقّ لهم الصخر وأخرج لهم منه ناقة. . يقول (ابن كثير): وقد ذكر المفسرون أن (ثمود) اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم صالح فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم فقالوا له: إنْ أنتَ أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة عظيمة ـ ناقة عشراء (يعني حاملًا) يكون من أوصافها كذا وكذا نؤمن بك ونصدّقك، فأخذ عليهم نبيّ الله العهود والمواثيق على ذلك ثمّ قام إلى مصلاّه فصلى ودعا ربه عزّ وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأجاب الله دعاءه فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب فلما عاينوها رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً فآمن بعضهم، واستمرّ أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرةً فظلموا بها﴾[1].

هلاك ثمود:

وقد حذّرهم (صالح) عليه السلام من التعرض للناقة بسوء، وأنذرهم عذاب الله إن هم أقدموا على قتلها: ﴿ولا تمسّوها بسوءٍ، فيأخذكم عذابُ يومٍ عظيمٍ﴾.

ولكنّ النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة، والتي قد أعماها حب التمرد والطغيان، وأصمّ آذانها عن قبول دعوة الله، قد أبت إلا الإجرام، فأقدموا على عقر الناقة بغياً وعتواً:

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[2].

وقد قصّ الله علينا قصّتهم في سورة الشمس:

---

(١) البداية والنهاية بتصرف ١/ ١٣٤.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٧٧ ـ ٧٨).

Marfat.com

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾(١).

وكان أول من سطا على الناقة الشقيّ اللعين (قُدار بن سالف) فعقرها فسقطت على الأرض فابتدرها الرجال بأسيافهم يقطعونها وكانوا تسعة كما أخبر الله عز وجل:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾(٢).

وقد همّوا بقتل نبي الله (صالح) عليه السلام بعد قتل الناقة لا سيّما بعد أن أنذرهم بعذاب الله وتوعّدهم به بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

فأرسل الله على أولئك النفر الذين قصدوا قتل (صالح) حجارة من السماء رضختهم ودمّرتهم قبل قومهم.

قال (ابن كثير): وأصبحت ثمود في اليوم الأول من موعد حلول العذاب وقد اصفرت وجوههم، ثم أصبحوا في اليوم الثاني وقد أحمرّت وجوههم، ثم أصبحوا في اليوم الثالث وقد اسودّت وجوههم كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما انتهت الأيام الثلاثة ومع شروق الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقّت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً هامدةً، لا أرواح فيها ولا حراك(٣).

---

(١) سورة الشمس: الآيات (١١ ــ ١٥).

(٢) سورة النمل: الآية (٤٨).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٦.

Marfat.com

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[1].

وقد كان هلاكهم بأنواع من العذاب (الصاعقة) التي دمّرتهم و (الصيحة) التي أخذتهم، و (الرجفة) التي زلزلت تحتهم الأرض حتى هلكوا عن بكرة أبيهم، وكل هذه الأنواع من العذاب قد أخبر عنه القرآن في الآيات الكريمة التالية:

أولاً: قال تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

ثانياً: وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[3].

ثالثاً: وقال تعالى:

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[4].

وأما (صالح) والذين آمنوا معه فقد نجوا ممّا حاق بقومهم من العذاب، الذي أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم النكراء:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[5].

وقد كان الذين نجوا مع صالح (١٢٠) مائة وعشرين من المؤمنين، أما الهالكون فكانوا كثرةً كثيرةً، أهل خمسة آلاف بيت كما يذكر (الألوسي)، وقد عاش سيدنا (صالح) بعد ذلك إلى أن توفاه الله تعالى في نواحي الرملة من أراضي فلسطين على أشهر الأقوال[6].

---

(١) سورة الشمس: الآيتان (١٤ ـ ١٥).
(٢) سورة فصلت: الآية (١٧).
(٣) سورة القمر: الآية (٣١).
(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٧٧ ـ ٧٨).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٩).
(٦) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٣٥.

Marfat.com

لــــوط عليه السلام

ـ ٤ ـ

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

من سورة النمل: الآيتان (٥٤ ـ ٥٥)

لوط عليه السلام من الرسل الكرام، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في (الأعراف، وهود، والحِجْر، والشعراء، والنمل) وغيرها من سور القرآن، وذكرت قصته مع قومه مفصّلة في بعض السور، ومجملة في البعض الآخر.

نسبه عليه السلام:

هو لوط بنُ هَارانَ، بن تَارح، يعني (آزر). . . وهكذا إلى آخر نسب سيدنا (إبراهيم) عليه السلام، وقد بعثه الله في زمن إبراهيم الخليل، وهو ابن أخيه، وإبراهيم عمه لأنه قد تقدّم في قصة إبراهيم أن (إبراهيم، وهاران، وناحور) إخوة وكلهم أولاد آزر، ولوط هو ابن (هاران)، فيكون إبراهيم عمه، وقد آمن لوط بعمه إبراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم هاجر معه من العراق، وتبعه في جميع أسفاره، ثم أرسله الله تعالى إلى أهل (سَدُومَ) في دائرة الأردن، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب، لأنه ليس من القبيلة، بخلاف (صالح) و (هود) و (شعيب) فقد كانوا من

Marfat.com

العشيرة نفسها، ولعل التعبير بقوله تعالى: ﴿ولوطاً إذْ قالَ لقومِهِ﴾ يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم.

قوم لوط:

كان (لوط) عليه السلام قد نزح عن محلة عمّه الخليل إبراهيم عليه السلام بأمره وإذنه، فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن، وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم طوية، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

وقد ارتكبوا جريمةً من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي (إتيان الذكور) دون النساء، وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾(1).

وكانوا لا يستقبحون قبيحاً، ولا يستترون من منكر، قد قست قلوبهم، وفسدت أخلاقهم، حتى كانوا يجاهرون باللواطة ولا يستحون، فبعث الله إليهم (لوطاً) عليه السلام، فدعاهم إلى الله وذكّرهم، ونهاهم وخوّفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فلمّا ألحّ عليهم هدّدوه بالطرد والإخراج من بين أظهرهم:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾(2).

كما قرّروا طرده وطرد من آمن معه لا لشيء إلا لأنهم أناس يتطهرون، ولا يرتكبون الجرائم التي كان يرتكبها أولئك القوم الضالّون:

---

(1) سورة الشعراء: الآيتان (165 ـ 166).
(2) سورة الشعراء: الآية (167).

Marfat.com

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

وهذا منتهى السفه وقلة العقل والتفكير.

يا لله!! متى كان اجتناب الرذائل والقبائح يعتبر جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان بالطرد والحرمان؟!.

ومتى كان الشريف الطاهر مجرماً ينبغي تهجيره وإخراجه من الأوطان حتى يقول المجرمون المعتدون:

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وما هو السبب في هذا الطرد والإبعاد؟ إنهم لا يستحون أن يقولوا بملء أفواههم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾. فالعفة والطهارة، وعدم التلوث بالقاذورات، وخاصة (اللواطة) تعتبر في نظر أولئك الأشقياء جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان. ولا عجب، فذلك منطق «الطغيان» في كل عصر وزمان ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

قصة الملائكة (ضيوف لوط):

وحين أراد الله عزّ وجل إهلاك أولئك الخبثاء الأشرار، من قوم لوط، الذين كانوا أرذل وأخبث أمةٍ في ذلك الحين، أرسل إليهم الملائكة ليقلبوا عاليها سافلها، وكانت لهم قرى خمسة، ويزيد عددهم على (٤٠٠) أربعمئة ألف كما يذكر ذلك المؤرخون.

فمرّوا في طريقهم على (إبراهيم) الخليل، فبشروه بغلام حليم، وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل (سدوم وعامورة) وأنّ الله قد أمرهم بإهلاك جميع أهل القرى، الذين كانوا يعملون الخبائث، فتخوّف (إبراهيم) على ابن أخيه (لوط) إذا قلبت بهم الأرض أن يكون ضمن الهالكين، فأخذ يناقشهم

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

Marfat.com

ويجادلهم، وقال لهم: إنّ فيها لوطاً، فأخبروه بأنّ الله سينجيّه وأهله ومن معه من المؤمنين، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(1).

خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا إلى (لوط) فدخلوا عليه في صورة شباب مرد حسان، تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال، ولم يخبروه بحقيقتهم، فظنّ أنهم ضيوف جاءوا يستضيفونه، فرحّب بهم، ولكنه اغتمّ من دخولهم عليه في وقت الظهيرة، لأنه خاف عليهم من أولئك المجرمين الأشرار لا سيما وأنهم في منتهى الحسن والجمال، ووقع في نفسه أنه لا بدّ أن يكون قد رآهم أحد من قومه حين دخلوا عليه، فلا بدّ أن يمسّوهم بأذى، لذلك فقد أشفق عليهم، وخاف من قومه أن يسمعوا بقدومهم، فيعتدوا عليهم بالفتك في أعراضهم، وهناك أخذ يفكّر ماذا سيصنع لو أراد المجرمون أن يعتدوا على ضيوفه؟ وسرعان ما وقع ما كان يخشاه فقد أقبل رجال القرية من قوم لوط، يريدون أن يتحرشوا بأولئك الضيوف، وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى ويناقشهم باللطف واللين، لعل فيهم من يرتدع عن غيّه وضلاله، ويخجل عن خزايته في ضيفه، ودعاهم إلى أن يتزوجوا من نساء القرية فإنّ ذلك أكرم وأفضل، وأشرف وأطهر. ولكن (الخبثاء) صارحوه بغرضهم السيء وأنهم لا يرغبون إلاّ في أولئك الشباب المرد الحسان، فازداد همّه وغمّه وشعر الملائكة بذلك فأخبروه بحقيقة الأمر وأنهم ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمرٍ من الله لأن أهلها كانوا ظالمين، اقرأ هذه الآيات الكريمة:

---

(1) سورة العنكبوت: الآيتان (31 ـ 32).

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[1].

أخبروه بحقيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها، وبأنّ القوم لن يستطيعوا الوصول إليها، وأمروه أن يخرج من أرض قومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح لأن موعد إهلاكهم سيكون في وقت الصبح، وسيكون ذلك الوقت موعد تدميرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم ﴿إنّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟﴾.

هلاك قوم لوط:

اطمأنّ (لوط) عليه السلام على ضيوفه، وترك قومه في ضجيجهم وجدالهم وأخذ يستعدّ للخروج من القرية قبل أن يدركه الصباح، وحين هجم القوم على بيت لوط ليأخذوا الضيوف بالقوة طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[2].

وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خراباً يباباً فأهلكهم الله بأنواع من العذاب وجعلهم عبرةً للمعتبرين:

١ ـ قَلَبَ بهم القرى فجعل عاليها سافلها.

٢ ـ أرسل عليهم صيحةً من السماء.

٣ ـ أمطر عليهم حجارة من سجّيل منضود.

---

(١) سورة هود: الآيات (٧٧ ـ ٨١).

(٢) سورة القمر: الآية (٣٧).

Marfat.com

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[2].

زوجة لوط مع الهالكين:

وقد هلكت زوجة (لوط) مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله، فحلّ بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم، ولم ينفعها أنها زوجة نبيّ فإنّ الله قد أوعد بإهلاك الكافرين، قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[3].

قال السهيلي: واسم امرأة لوط (والهة). وقد نجا (لوط) عليه السلام مع ابنتيه من الهلاك.

ويقول بعض المؤرخين: إنّ البحر الميّت، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمئة متر، وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت.

ويقول (ابن كثير) رحمه الله:

(وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنةً لا يُنتفع بمائها ولا بما حولها من

(١) سورة هود: الآية (٨٢).

(٢) سورة الحجر: الآيتان (٧٣ ـ ٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٣).

Marfat.com

الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومَثُلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزّته في انتقامه ممن خالف أمره وكذّب رسله واتّبع هواه وعصى مولاه)[1].

مسألة هـامة:

قد يتساءل المرء هل تخون امرأة النبيّ زوجها؟ وهل تقع منها جريمة الزنى؟؟ فكيف أخبر الله عن زوجتي (نوح ولوط) أنهما خانتا أزواجهما؟؟.

والجواب: أن هذا أمر مستحيل لا يمكن أن يقع لأنّ الله عزّ وجل قد حفظ الأنبياء من تلوث العرض، ومن وقوع أزواجهن بالفاحشة، لأن ذلك يؤذي سمعة الأنبياء الأطهار، ولهذا قال (ابن عباس): ما بغت امرأة نبيّ قط، وهذا هو مذهب أئمة السلف والخلف.

وأمّا الكفر منهنّ فقد يقع، فقد كانت زوجة (لوط) كافرة، كما كانت زوجة (نوح) كافرة أيضاً، وقد ضرب الله المثل بهما قال تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[2].

والمراد بالخيانة هنا (الخيانة في الدين) حيث لم تؤمنا بالله، قال ابن كثير: فخانتاهما، أي: في الدين فلم تتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة، حاشا وكلّا، فإنّ الله لا يقدّر على نبيّ أن تبغي امرأته، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً[3].

* * *

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٥٢٣/٣.

(٢) سورة التحريم: الآية (١٠).

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/١.

Marfat.com

إسماعيل عليه السلام

- ٥ -

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾﴾.

من سورة مريم: الآية (٥٤)

نسبه عليه السلام:

هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وأمه (هاجر)، وهو البكر من أولاد إبراهيم الذي أمر إبراهيم بذبحه في المنام كما تقدمت قصته فيما سبق، وهو جدّ الرسول الأعظم إذ إن الرسول ﷺ هو من نسل إسماعيل بن إبراهيم، عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

رسالته عليه السلام:

الراجح من التاريخ أن الله قد أرسل (إسماعيل) عليه السلام إلى القبائل العربية التي عاش عليه السلام في وسطها، وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ الله قد أرسله إلى قبائل اليمن، وإلى العماليق الذين كانوا يسكنون في تلك الجهات وقد تقدّم أنّ (إسماعيل) عليه السلام قد تربّى في الحجر بجانب البيت العتيق في مكة المكرمة. وأنه نشأ هناك وتزوج من قبيلة (جرهم) فالظاهر إذاً من تاريخ حياته أنّ بعثته كانت لنفس العرب الذين عاش بينهم صلوات الله عليه.

حياته عليه السلام:

تقدم معنا في قصة إبراهيم عليه السلام أنه قد دعا ربه أن يرزقه ولداً صالحاً

Marfat.com

فاستجاب الله دعاءه ورزقه هذا الغلام اليافع: (إسماعيل) عليه السلام، وقد ولد من أَمَته «هاجر» لما بلغ إبراهيم من العمر ٨٧ سنة، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(١).

و (هاجر) كانت أمة مملوكة لـ (سارة) وهبها له ملك مصر الجبار، فوهبتها سارة لإبراهيم لعل الله أن يرزقه منها بولد، إذ كانت هي حتى ذلك التاريخ (عقيماً) لا تلد، إلا أنها ولدت بعد ذلك بإسحاق، ببشارة الملائكة الأطهار لإبراهيم عليه السلام كما تقدم معنا عند ذكر قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وإسماعيل هو (الذبيح) كما أثبتنا ذلك في قصة إبراهيم، ونزيد هنا كلمة لطيفة للأستاذ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» وفي هذه الكلمة إثبات آخر على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق. قال: (ودليلي على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، إذ إن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد ـ! أي الذي ليس له سواه ـ إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد، يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدلّ على امتثال الأمر ونهاية الطاعة، وهذا هو الإسلام بعينه، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد وعمر إسماعيل نحو ١٤ سنة ـ كما هو صريح في التوراة ـ وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وأيضاً فإنّ ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل، وكذا فإن مسألة الذبح وقعت في مكة، وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إلى مكة رضيعاً لا إسحاق(٢)، والله أعلم.

أولاد إسماعيل:

ولد لإسماعيل عليه السلام اثنا عشراً ولداً ذكراً، وهم كلهم رؤساء قبائل،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٩).

(٢) قصص الأنبياء للنجار ص ١٠٣.

Marfat.com

وقد ذكرت التوراة أسماءهم، كما ولدت له بنت زوّجها لابن أخيه (العيص بن إسحاق) ومن نسل إسماعيل جاء العرب الذين يعرفون بـ (العرب المستعربة) ثمّ كانت خاتمة المطاف بولادة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

وفاته عليه السلام:

عاش إسماعيل عليه السلام (١٣٧) سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه (هاجر) في الحِجر على المشهور من أقوال المؤرخين، وتذكر التوراة أنه مات بأرض فلسطين ودفن فيها، والصحيح ما عليه مؤرخو العرب من أنه مات بمكة ودفن فيها، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

إسحاق عليه السلام

ـ ٦ ـ

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

من سورة الصافات: الآيتان (١١٢ ـ ١١٣)

نسبه عليه السلام:

هو إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام وأمه (سارة) وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشّرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن، ومن نسله جاء أنبياء بني إسرائيل، حيث إن النبوّة قد كانت في ذرية إبراهيم في ولديه «إسماعيل وإسحٰق» كما قال تعالى: ﴿وجعلنا في ذريتِهِ النبوةَ والكتابَ﴾ وسيأتي تفصيل لهذا إن شاء الله تعالى.

رسالته عليه السلام:

يترجح أن (إسحٰق) قد أُرسل إلى الكنعانيين في تلك الأراضي التي كانوا يسكنونها وهي (بلاد الشام وفلسطين) في البيئة التي عاش فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، فكانت رسالة إسحٰق إلى هؤلاء الأقوام الذين عاش بينهم عليه السلام.

حياة إسحٰق عليه السلام:

لمّا بلغ إبراهيم من العمر (١٠٠) مائة سنة ولدت له زوجته (سارة) المرأة العجوز العقيم إسحٰق عليه السلام، بعد ما جاءته البشارة من الله تعالى بواسطة

Marfat.com

الملائكة الأبرار، كما قال تعالى في سورة هود:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وقد أوصى إبراهيم ابنه إسحٰق ألّا يتزوج إلّا امرأة من أهل أبيه فتزوج إسحٰق عليه السلام (رفقة) بنت ابن عمه وقد أنجب منها ولدين (العيص) ويسمّيه أهل الكتاب (عيسو) والثاني (يعقوب) عليه السلام وهو المسمّى (إسرائيل) وإليه ينتسب اليهود من بني إسرائيل.

وفاته عليه السلام:

عاش إسحٰق عليه السلام (١٨٠) سنة، ومات في أرض الكنعانيين، ودفن في الخليل (حبرون) في المغارة التي دفن فيها أبوه إبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم[2].

* * *

(١) سورة هود: الآيات (٧١ ـ ٧٣).

(٢) انظر كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٣١٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٠ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/١٢٣.

Marfat.com

يعقوبُ عليه السلام

— ٧ —

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾. من سورة مريم: الآيتان (٤٩ ــ ٥٠)

نسب يعقوب عليه السلام:

هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام، وأمه (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر الذي يسمّيه المؤرخون (تارح). وناحور هو أخو إبراهيم عليه السلام. و (يعقوب) عليه السلام هو أبو الأسباط الإثني عشر، وإليه يُنسب شعب بني إسرائيل ويسمّى يعقوب «إسرائيل» كما قال تقدّست أسماؤه:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[١].

وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سمّاه (إسرائيل) ومعناه في العبرية «روح الله»، والمقصود هنا أن نعلم أنّ (إسرائيل) هو اسم يعقوب عليه السلام، كما وضّحنا وإليه ينتسب اليهود.

حياة يعقوب عليه السلام:

ذكر المؤرخون أن (يعقوب) عليه السلام قد ولد في أرض الكنعانيين (فلسطين) وشبّ في كنف أبيه إسحٰق، وقد أمرته أمه (رفقة) أن يسافر إلى خاله (لابان) في (فدان آرام) من أرض بابل بالعراق ويقيم عنده، لأنها خافت عليه من

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٣).

Marfat.com

أخيه (العيص) أن يبطش بـه لأن أخاه كـان قد تـوعّده، فخـرج يعقوب عليـه السلام يريد خاله فأدركه المساء في موضـع فنام فيه، فرأى في نومه الملائكة يصعدون إلى السماء وينزلون. ورأى الرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: (إني سأبارك عليـك، وأُكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعـدك) فلما هبَّ من نـومه فـرح بمـا رأى ونذر أن يبنـي لله تعـالى (معبداً) في ذلـك المـوضـع الـذي رأى فيـه تلك الـرؤيا السـارة، فعمـد إلى حجـر فصبغـه بـدهن ليتعـرف بـه المكـان وسمّى ذلـك الموضـع (بيت إيل) أي بيت الله وهو موضـع بيت المقدس اليوم الـذي بناه يعقـوب بعد ذلك. ثم تابـع سفره فلمـا وصل إلى خـاله في أرض العـراق وجد عنـده ابنتين هما (لَيْئَة) ويقال (ليّا) بالتسهيل وهي الكبـرى، و(راحيل) وهي الصغـرى، فخطب يعقوب من خاله ابنته الصغرى (راحيل) وكـانت أحسنهما وأجملهمـا، فوافقـه خالـه مقابل أن يخدمه سبـع سنين يرعى له غنمـه، فلما مضت المـدّة صنـع خالـه طعامـاً وجمـع الناس عليه وزفّ إليه ليلاً ابنتـه الكبرى (ليئـة) وكانت ضعيفـة العينين قبيحة المنـظر، فلمّا أصبـح يعقـوب إذا هي (ليئة) فقـال لخالـه لم غـدرت بـي وأنـا إنمـا خطبت (راحيل) فقال له: إنه ليس من سنّتنا أن نـزوّج الصغرى قبـل الكبرى، فـإن أحببت أختها فارعَ لي الغنم سبـع سنين أخرى وأزوجك (راحيل) فعمل سبـع سنين أخـرى فـزّوجـه إيـاهـا، وجمـع لـه بين الأختين، ولم يكن الجمـع بين الأختين في شريعتهم محرماً، ثم نسـخ في شريعة التوراة كما هو الحال في الشريعة الإسلامية[1].

ووهب (لابان) لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب (زلفى) لابنته ليئـة، ووهب (بلها) لابنته راحيل فوهبت كل منهما جاريتها ليعقوب فأصبـح عنده أربـع نسوة وقد ولدن له أولاده الاثني عشر، الذين يُسمون بالأسباط.

أما (ليئة) فقد ولدت له ستة أولاد وهم:

(١ ــ روبيـل، ٢ ــ شمعون. ٣ ــ لاوي. ٤ ــ يهـوذا. ٥ ــ ايسـاخـر. ٦ ــ زابلون) وروبيل هو أكبـر أولاده، ولاوي جاء من نسله مـوسى عليه السـلام، وكلمة

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٣٢٠ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٨٢.

Marfat.com

يهود أخذت من يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السلام .

وأمّا (راحيل) فقد ولدت له ولدين وهما :

١ ــ يوسف الصدّيق عليه السلام . ٢ ــ وبنيامين .

وأمّا (بلها) جارية راحيل فقد ولدت له ولدين وهما :

(١ ــ دان . ٢ ــ نفتالي) .

وأمّا (زلفى) جارية ليئة فقد ولدت له ولدين أيضاً وهما :

(١ ــ جاد . ٢ ــ أشير) فأصبح أولاد يعقوب عليه السلام اثني عشر : ستة من ليئة، واثنان من راحيل، واثنان من بلها، واثنان من زلفى، وهؤلاء كلهم إخوة يوسف الصديق الذي رأى في منامه أحدعشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين كما سيأتي قريباً في قصته عليه السلام .

وقد أصبح كل واحد من أولاده يعقوب أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل، ويقول المؤرخون : إن كل أولاده قد ولدوا له وهو في العراق، حين كان عند خاله يرعى له الغنم إلاَّ (بنيامين) فقد ولد له بعد أن رجع يعقوب إلى وطنه في أرض الكنعانيين في فلسطين .

وفاته عليه السلام :

فقد يعقوب عليه السلام بصره حزناً على ولده (يوسف) الذي مكر به إخوته ثمّ ردّ الله إليه بصره بعد أن اجتمع به بعد طول غياب وشدة حزن وألم كما قال تعالى : ﴿ فلما أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدّ بصيراً﴾ وقد اجتمع به في مصر . وتوفي يعقوب عليه السلام بعد أن بلغ من العمر ١٤٧ سنة، وقد كان ذلك بعد ١٧ عاماً من اجتماعه بولده الحبيب يوسف عليه السلام، وقد أوصى يعقوب ابنه يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحٰق ففعل ذلك وسار به إلى فلسطين ودفنه عند أبيه في المغارة بحبرون (مدينة الخليل)(١) صلوات الله عليهم أجمعين .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٣٢٤ والكامل لابن الأثير ١/٧٢ .

Marfat.com

يوسف عليه السلام

ـ ٨ ـ

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

من سورة يوسف: الآية (٢٢)

نسبه عليه السلام:

هو (يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم) وقد ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١).

ووصفه بالعفة والنزاهة، والصبر والاستقامة، كما أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله:

«إنّ الكريم بنَ الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم»(٢).

ذِكره في القرآن:

ذكر اسم يوسف في القرآن الكريم في ٢٦ آية، منها ٢٤ آية في سورة يوسف

---

(١) سورة يوسف: الآية (٢٤).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٦١/٨.

Marfat.com

وآية في الأنعام وآية في سورة المؤمن (غافر)، وقد وصفه الله تعالى بالصدّيقية ولهذا يسمى (يوسف الصديق) قال تعالى:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ...﴾[1] الآية.

وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، ومن سلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل، وقد أُرسل إليهم كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا...﴾ الآية[2].

وله سورة ذكرت فيها قصته بالتفصيل وهي من طوال سورة القرآن تسمى (سورة يوسف) وفيها بيان لحياته عليه السلام، ومحنته مع إخوته، ومحنته مع امرأة العزيز، ودخوله السجن، ودعوته فيه إلى الله، ثم خروجه من السجن وتعبيره الرؤيا للملك، واستلامه لخزائن الأرض، ثم مجيء إخوته إلى مصر بسبب القحط، واحتيال يوسف لإبقاء أخيه (بنيامين) عنده، ثم التعرف على أبيه وإخوته، ودخولهم عليه وسجودهم له، حسب الرؤيا التي رآها في صغره، إلى غير ما هنالك من إشارات دقيقة، وعظات بالغة، من حياة هذا النبي الكريم.

من هم الأسباط:

قدّمنا أن (يعقوب) عليه السلام ولد له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وإلى هؤلاء الأبناء تنسب أسباط بني إسرائيل، فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب، وكان أشرفهم وأفضلَهم وأعظمَهم (يوسفُ) عليه السلام، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن في أولاد يعقوب نبيّ غيره، وأن جميع

---

(١) سورة يوسف: الآية (٤٦).

(٢) سورة غافر: الآية (٣٤).

Marfat.com

إخوة يوسف لم يوح إلى واحد منهم، وقد أيّد (ابن كثير) رحمه الله هذا الرأي فقال ما نصه: (وظاهر ما ذُكر من فعالهم ومقالهم، في هذه القصة، يدل على هذا القول، ومن استدل على نبوتهم بقوله تعالى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾[1].

وزعم أنّ هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقويّ، لأنّ المراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل) وكان يوجد فيهم من الأنبياء، الذين نزل عليهم الوحي من السماء، ومما يؤيد أنّ (يوسف) عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوّة أنّه لم ينص على واحد من إخوته سواه، فدل بذلك على ما ذكرناه)[2].

رؤيا يوسف الصدّيق عليه السلام:

ذكر المفسّرون أن يوسف عليه السلام رأى في المنام وهو صغير لم يحتلم بعد رؤيا عجيبة غريبة، رأى في نومه أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر قد سجدوا له، فهاله ذلك الأمر، واستعظم تلك الرؤيا، فلمّا استيقظ قصّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سيكون لابنه شأن عظيم، وسينال رتبة عالية، ورفعة سامية، في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وأمه وجميع إخوته فيها، فأمره بكتمانها، وألاّ يقصها على إخوته، خوفاً عليه منهم، لئلا يحسدوه ويكيدوا له ويدبروا له أنواع المكائد، فإنّ في طبيعة الإنسان الكيد والحسد، ولهذا أوصى يعقوب ابنه بكتمان السر لهذه الرؤيا، وقد جاء في الأثر: (استعينُوا على قضاء حوائجكم بالكتمانِ، فإنّ كلّ ذي نعمةٍ محسودٌ).

قال تعالى إشارة إلى هذه الرؤيا:

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٦).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤١.

Marfat.com

سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

والظاهر من النص القرآني أنّ يوسف عليه السلام قد قصّ الرؤيا على والده في غيبة إخوته، وأنّ أباه قد أوصاه بعدم إخبار إخوته بما رأى، وعبارة التوراة تفيد أنّ ذلك كان بحضرة إخوته، وأنّ أباه انتهره على هذا القول قائلاً: لعلّنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك، قالها متهكّماً. . . وهذا الذي ذكر في التوراة خطأ، لأنّ التوراة محرفة قطعاً، والصحيحُ ما ذكر في القرآن الكريم ﴿الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

حبّ يعقوب ليوسف:

كان يعقوب عليه السلام يحب من أولاده (يوسف) ويؤثره هو وأخاه (بنيامين) على بقية أولاده في المحبة والقرب، فكان ذلك سبباً لحسد إخوته وحقدهم على يوسف وأخيه، وهم في حداثة السن والشباب، فأضمروا له الشرّ وطلبوا من أبيهم أن يسمح لهم باصطحاب يوسف، ليلهو ويلعب معهم في البرية، وقد كان يعزّ ذلك على نفس يعقوب، فهو لا يستطيع فراقه، ويخشى عليه منهم لذلك تعلّل لهم بقوله: ﴿إني لَيَحْزُنُني أنْ تذهبُوا بهِ، وأخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلون﴾ وهو عليه السلام يتخوف عليه عدوانهم أكثر ممّا يتخوف عليه عدوان الذئب، ولكنّه أراد أن يصرفهم عنه بتلك التعِلّة، ولكنّ إخوته كانوا بارعين في الدهاء فقالوا لأبيهم: ﴿لِئنْ أكلهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنّا إذاً لخاسِرونَ﴾.

إلقاء يوسف في الجب:

لم يجد يعقوب بدّاً أن يرسل يوسف مع إخوته، لئلا يشعروا بأنّ أباه يخشى عليه منهم، فيدبّروا له مكيدة في غيابه، فتظاهر بقبول كلامهم وأرسله معهم على كره ومضض، وما أن غابوا به عن عينيه حتى جعلوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه

---

(١) سورة يوسف: الآيتان (٤ ــ ٥).

Marfat.com

بسيء الكلام وقبيح المقال، ثم أجمعوا على إلقائه في غيابة الجب (أي في قعره) وكانت قليلة الماء، فلمّا ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بد من فرج ومخرج من هذه الشدة والضيق، ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا، في وقت يكون لك فيه العزة والسيادة عليهم وهم لا يعلمون أمرك، كما قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مرت سيارة (قافلة) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء، فإذا غلام جميل الصورة، وسيم الخَلق، قد تعلّق بها فاستبشر الرجل وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ وأسروه بضاعة حتى وصلوا إلى مصر، فباعوه على أنه عبد رقيق فاشتراه عزيز مصر واسمه (قطفير) من القافلة بثمن رخيص، واحتلّ عنده مكاناً حسناً بسبب أمانته، وحسن خلقه، وصدقه ونزاهته، وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد.. أما إخوة يوسف فقد رجعوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف قد لطخوه بدم شاة ذبحوها ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله، ولكنهم نسوا أن يخرقوا القميص ــ وآفة الكذب النسيان ــ فلم يفلحوا في هذا المكر، قال الله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قال بعض السلف: (لا يغرنك بكاءُ المتظلّم، فربّ ظالمٍ وهو باكٍ كما فعل إخوةُ يوسف حين جاءوا أباهم عشاء يبكون) وروي أنّ (يعقوب) عليه السلام لمّا أتوه بقميص يوسف ملطّخاً بالدم جعل يقلّبه وينظر فيه ويقول: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني دون أن يمزّق ثوبه!! يقول ذلك تعريضاً بكذبهم وإيذاناً لهم بأنَّ صنيعهم ومكرهم لم يرج على أبيهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

Marfat.com

محنة يوسف مع امرأة العزيز:

أقام يوسف الصدّيق في بيت عزيز مصر، منعّماً مكرّماً، وكان فائق الحسن والجمال، فلمّا شبّ وكبر، عشقته امرأة العزيز «زوجة سيِّده» وشغُفِت به حباً ودعته إلى نفسها، وكان ذلك بداية المحنة الثانية له، أما المحنة الأولى فقد كانت عندما حسده إخوته ورموه في الجب، ولقد كان يوسف طاهر النفس عفيف الخُلق، مستقيم السيرة، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة، ووقف في وجه الشهوة والإغراء موقف المؤمن الحازم لأمرين اثنين:

أولهما: الإيمان بالله الذي غمر قلبه، والنسيرة العطرة التي نشأ عليها في حجر أبيه وجدّه، فإنهم جميعاً منتمون إلى بيت النبوّة.

ثانيهما: أن زوجها هو سيّدهُ الذي أحسن إليه، وأكرم مثواه، وائتمنه على ماله وعرضه، فكيف يخونه؟ قال تعالى:

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة، فغلّقت الأبواب، وأحكمت الخطة، ودعته صراحة إلى نفسها، ولكنّه امتنع وأبى، وأصرّ على العصيان لأمرها. وغلبها الحب على حيائها، واستطارت الشهوة في نفسها فأمسكت به تريد أن تجبره على مواقعتها، ولكنّ خوفه من الله عصمه عن ذلك فتجاذبا، وأخيراً أفلت من يدها وأمسكت بثوبه من خلف فتمزق الثوب، وظلت تلاحقه وهما يستبقان الباب، هو يريد فتحه هرباً، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً، لتقضي منه لبانتها، وفي هذه اللحظة كان قد وصل زوجها فوجدهما في هذه الحالة المريبة.. وهنا يبدأ الكيد الخبيث والمكر المدبّر فتنطلق صارخة باكية لتظهر أمام زوجها بالبراءة، زاعمة أن يوسف راودها عن نفسها، فامتنعت منه، وأنه قد عزم على عمل الفاحشة معها فهربت منه، وفي لمحة عين يصبح الطالب مطلوباً،

Marfat.com

والظالم مظلوماً، وتصبح العقوبة واجبة لمن أراد أن يخون شرف سيّده، ويهتك عرضه، وحقاً إنّه الكيد والمكر والدهاء، استمع إلى قوله تعالى:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

شهادة صادقة، وحجة مقنعة، شهد بها طفل من أقربائها، أنطقه الله بها لتكون براءة ليوسف الصديق، وبرهاناً على عفته ونزاهته، وليتخلص الصدّيق من العقوبة الشديدة التي أرادتها له امرأة العزيز، وخلاصة الشهادة كما يلي:

إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة فلا بدّ أن يُشق ثوبه من أمام لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفسها، فالمنطق السويّ أن يكون الشق من الأمام، وإن كان يوسف هو الهارب وهي الطالبة فلا بد أن يُشقّ ثوبه من خلف:

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

شيوع الخبر في المدينة:

شاع الخبر في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النساء تلوك في امرأة العزيز، استهجاناً ولوماً لها على صنعها، كيف تعشق سيّدةٌ عبدَها؟ وكيف تهوى وتحبّ خادمها؟ وبلغ ذلك امرأة العزيز، فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، من ذوات الثراء والجاه، ودبّرت لهن مكيدة حتى يعذرنها في الحب والغرام، هيأت لهن مكاناً يجلسن فيه، وقدمت إليهنّ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر، وفي تلك اللحظة أمرته أن يخرج عليهنّ، فبهرهنّ جماله، وألهاهنّ حسنه وتشاغلن عما في أيديهنّ فصرن يقطعن أيديهن ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة بألم جراحة الأصابع حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهنّ يحسبن

Marfat.com

أنهن يقطعن الفاكهة، والعقلُ غارق والبصر شارد في الاستمتاع بجمال يوسف، والتأمل في محاسنه، ثم لم يمنعهم العتب والعذل إلّا أن يُعلنّ إكبارهنّ لذلك الجمال الفائق قائلات:

﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

وهنا باحت امرأة العزيز بسرّ عشقها له، بعد أن أوقعتهنّ في شباكِ غرامه، فقالت معاتبة لهنّ:

﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

لقد كانت العدالة تقضي بأن يكرّم يوسف على نزاهته وعفته، وأن تعاقب العزيز على جنايتها وما اجترحته يدها، ولكنّ الأمر كان بالعكس فقد قُدّم يوسف البريء التقي الطاهر، فدية لسمعة تلك التي استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت أن تلحق به عار الخيانة، فبرّئت تلك المرأة وأدين يوسف، وحكم عليه بالسجن، فمكث في السجن سنوات عديدة تبلغ سبعاً، كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

دخل يوسف السجن على غير جريمة اقترفها، ودخل معه السجن فتيان: أحدهما رئيس سقاة الملك، والثاني رئيس الخبّازين، فرأى كل منهما حُلُماً وعرضه على يوسف، أمّا رئيس السقاة فقد رأى أنّه يعصر في كأس الملك الخمر، وأما الثاني فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه طبقاً من الخبز، والطير تأكل من ذلك الخبز، وطلبا منه أن يخبر كل واحد منهما بتفسير رؤياه، فقال للأول: إنك ستخرج من السجن وتعود إلى عملك فتسقي الملك خمراً. وقال للثاني: إنّك ستصلب وتأكل الطير من رأسك، وكان الأمر كما أخبر يوسف الصديق عليه السلام.

رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن:

بعد تلك السنين الشديدة التي مرت على يوسف وهو في السجن جاء الفرج من الله، فقد رأى الملك في نومه رؤيا عجيبة غريبة، رأى سبع بقرات جميلات قد

Marfat.com

خرجت من النهر، وأخذت ترتع في روضة، ثم رأى سبع بقرات عجافاً هزيلة قبيحة المنظر قد خرجت من النهر وأكلت البقرات السمينة، كما رأى سبع سنابل خضراء حسنة، قد عَدَت عليها سبع سنابل يابسة فأكلتها، فاستيقظ الملك فزعاً من رؤياه، وطلب من السحرة والعلماء تأويلاً لها، فلم يجد جواباً شافياً، وهناك تذكّر ساقي الملك قدرة يوسف على تأويل الأحلام، فطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين، فذهب إلى يوسف وقصّ عليه رؤيا الملك، فأخبره بتعبيرها على الوجه الدقيق، قال له يوسف: إنّ البلاد ستمر عليها سبع سنوات فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلّات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة. تأكل الأخضر واليابس، وأنّ عليهم أن يقتصدوا من سنيّ الرخاء إلى سني الجدب والقحط، وقد أُعجب الملك بتأويل يوسف غاية الإعجاب، فأمر بإخراجه من السجن، ليجعله من خاصته المقربين ويسلّمه إحدى وزارات الدولة، ولكنّ يوسف أبى أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين، حتى يُقرَّ خصومه ببراءته، فتَبْرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، ويشهد الناس بنزاهته، وذلك هو منتهى العزة النفسية والكرامة النبوية، ولنستمع إلى الآيات البينات:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وقصةُ يوسف طويلة وقد فصّلها القرآن أجمل تفصيل، وذكر في النهاية أن أباه وأمه وجميع إخوته قد جاؤوا إلى مصر ودخلوا عليه وهو في عزّ وسلطان وجاهٍ عظيم، فسجدوا له سجود «تحية وتكريم» وذكّرَ أباه بما رأى وهو صغير حيث تحقّقت رؤياه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن

Marfat.com

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

محنة يوسف عليه السلام:

لقد مر يوسف بمحن شديدة، وكانت حياته عليه السلام حياة عصيبة، فقد تَنَقَّل بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، وضيق وسعة، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب العظيمة أن وسّع الله عليه، وأكرمه بالعز والسلطان، فخرج من السجن إلى المُلْكِ، فملّكه الله خزائن أرض مصر، حتى أصبح الناس يأتون إليه من كل صقع وبلد ليمتاروا، ومن ضمنهم إخوته الذين أضرّ بهم الجدب فجاءوا إليه من أجل الميرة فعرفهم وهم له منكرون. ولقد كانت محنته سبباً لتلك المنّة العظيمة عليه وكما يقول بعض العارفين: (ربما كمنت المنّةُ في المحنة).

ولقد مرت على يوسف عليه السلام محن ثلاث:

المحنة الأولى: وذلك حين حسده إخوته فدبروا له مكيدة من أخطر المكائد أرادوا بها قتله، ثم اكتفوا بإلقائه في (الجب) ولولا عناية الله ورحمته به لكان من الهالكين.

المحنة الثانية: حين أحبّته امرأة العزيز، وراودته عن نفسها، وعملت كل حيلة من أجل إغرائه وإغوائه ــ وهو شاب في ريعان شبابه ــ ولكنّ الله حفظه من كيدها ونجّاه من تلك الورطة العظيمة:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

المحنة الثالثة: وهي دخوله السجن ــ ظلماً وعدواناً ــ ومكثه فيه سبع سنين، بسبب تلك التهمة الملفّقة، ولولا (رؤيا الملك) التي شغلت ذهنه وباله لمكث في السجن السنين الطويلة:

﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

Marfat.com

تنبيه هام على عصمة يوسف:

ذكرنا في باب (عصمة الأنبياء) عشرة وجوه في عصمة يوسف الصديق نبي الله الكريم، ونزيد هنا كلمة لطيفة للمفسر الشهير (الفخر الرازي) وهي تدل على نزاهة يوسف وعصمته وبراءته من (الهمّ) الذي زعمه بعض الجهلة، قال رحمه الله:

١ - إنّ يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله جل وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ - وشهد ببراءته الشاهد من أقرباء امرأة العزيز قال تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ...﴾ الآية.

٣ - وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطّعن أيديهن قال تعالى:

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ...﴾ الآية.

٤ - وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها:

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾...﴾ الآية.

حصحص: أي ظهر ووضح.

٥ - وشهد ببراءته الشيطان بقوله:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾...﴾[1].

فالذي يريد أن يتهم يوسف بـ (الهمّ) عليه أن يختار أن يكون من حزب الله، أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف، فلا مفر إذاً من الإقرار بالحق على أيّ حال، وهو براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بامرأة العزيز...). انتهى كلام الفخر الرازي.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي ١٨/١١٧.

Marfat.com

وفاة يوسف عليه السلام:

قال المؤرخون: ولما اجتمع يوسف بأبيه بعد الفراق كان عمر يعقوب مائة وثلاثين سنة (١٣٠) ثم توفي يعقوب بعدها بسبع عشرة سنة (١٧) وعاش يوسف عليه السلام من السنين (١١٠) مائة وعشراً، ومات في مصر وهو في الحكم ودفن فيها، وكان قد أوصى إخوته أن يُحْمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن مع آبائه، وقد نقل رفاته إلى الشام أيام موسى عليه السلام، ودفن بنابلس على الأرجح، وكانت وفاة يوسف بعد ميلاد جده الأكبر (إبراهيم) عليه السلام بـ (٣٦١) سنة وقبل مولد موسى عليه السلام بـ (٦٤) سنة على الصحيح من الأقوال[١].

وقد طلب من ربه جلّ وعلا حين دنا أجله أن يميته على الإيمان، وأن يلحقه بعباده الصالحين فقال:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وقد استجاب الله دعاءه فنقله إلى الرفيق الأعلى. رحمه الله رحمة واسعة ورزقنا الموت على الإيمان، إنه سميع مجيب الدعاء.

* * *

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/٣٣٠ ـ ٣٦٤؛ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٧٨ ـ ٨٨؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/١٨٥ ـ ٢٠٦.

Marfat.com

شعيب عليه السلام

ـ ٩ ـ

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . . ﴾ الآية .

من سورة الأعراف : الآية (٨٥)

ذِكره في القرآن :

ورد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن عشر مرات، في مواطن متفرقة من سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت، وقد أرسله الله إلى مدين، ويُعرفون أيضاً بـ (أصحاب الأيكة) لقوله تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

ويرى بعض المفسّرين أنّ (أصحاب الأيكة) قوم آخرون غير أهل مدين ، أرسله الله إليهم بعد هلاك مدين فكذبوه فأخذهم عذاب (يوم الظُلّة) والصحيح أنّ أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، لأن سورة الشعراء وضّحت أنهم كانوا يطففون المكيال والميزان، وهذا وصف أهل مدين، وسمّوا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الغوطة التي يكثر فيها الشجر، وقد كانوا يجمعون بين التجارة والزراعة، وأراضيهم كانت كثيرة الأشجار، وافرة الثمار، وفيها الحدائق والبساتين الغناء فلذلك سموا بأصحاب الأيكة.

نَسَبه عليه السلام :

هو (شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين أحد أولاد إبراهيم الخليل عليه

Marfat.com

أفضل الصلاة والتسليم) وأمّه بنت لوط عليه السلام وقد كانت بعثته بعد (لوط) لقوله تعالى في قصة قومه: ﴿وما قومُ لوط منكم ببعيد﴾ وقبل رسالة موسى لأنّ الله تعالى لمّا ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمّ بعَثْنا منْ بعدِهمْ موسى بآياتِنا إلى فرعونَ وملائِه﴾ فدلّ على أنّ (شعيباً) كان من قبل زمن موسى وهرون عليهما السلام. وقد أخطأ بعض المؤرخين فظنّ أنّ (شعيباً) كان زمنه بعد موسى بعدة قرون، وهذا ينافي النص السابق، وقد التبس الأمر عليهم بين (شعيب) وبين (شعيا) أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم فظنوا أن (شعيا) هو شعيب ومن هنا جاء الخطأ كما نبّه عليه بعض المحققين من العلماء.

أين كانت مساكن أهل مدين؟:

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون في بلاد الحجاز، ممّا يلي جهة الشام، قريباً من (خليج العقبة) من الجهة الشمالية منه، ويقول (الطبري) أنّ بين مصر وأرض مدين ثماني ليال[1]، ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن (معان) وهي جنوب فلسطين. وأهل (مدين) ينسبون إلى أحد أولاد إبراهيم وهو (مدين بن إبراهيم) وفي التوراة يسمى (مديان) وإنما سميت هذه القبيلة باسم (مدين) نسبةً إليه حيث عاش بينهم وصاهرهم فصار له فيهم رهط وأسرة فسُموا أهل مدين.

دعوة شعيب لقومه:

كان أهل مدين أهل تجارة وزراعة، وكانوا أصحاب رفاهية ونعيم، وقد كانوا على دينهم الذي ورثوه عن إبراهيم، ولكنّه لم يطل بهم العهد حتى غيّروا وبدّلوا وكفروا بالله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وقد فشت فيهم منكرات عديدة، منها (التطفيف) في المكاييل والموازين، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/٣٢٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١/١٧٣.

Marfat.com

وقد بعث الله إليهم (شعيباً) عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله وذكّرهم بعذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد، فآمن به قليل وكذّبه الأكثرون، وقد كان هؤلاء المكذّبون على غاية من الضلال والجحود، يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين، ويمنعونهم عن الإيمان به، ويتوعدون من اتّبعه بأنواع من التهديد والوعيد كما قال القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ولمّا ألحّ عليهم شعيب عليه السلام في الدعوة والموعظة جاهروه في العداء؛ وادعَوا أنهم لا يفقهون كلامه، ولا يعرفون غرضه، وتوعدوه بأنه لولا أنّ له أنصاراً لقتلوه، كما قال تعالى:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

ثم هدّدوه وتوعّدوه بالإخراج والطرد من القرية، هو والذين آمنوا معه إلّا أن يعودوا في ملتهم، ويدخلوا في دين قومهم استمع إلى قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ . . .﴾.

العبرة من قصة شعيب:

العجب من هؤلاء القوم، يأتيهم نبيهم الكريم بدعوة إنسانية كريمة، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فيقولون له: ﴿ما نفقهُ كثيراً ممّا تقولُ وإنّا لنراك فينا ضعيفاً. . .﴾ مع أن دعوته في غاية الظهور والبيان، ويدعوهم إلى ترك عبادة غير

Marfat.com

الله فيتوعّدونه بالطرد من القرية، وإخراجه هو ومن آمن معه، ويأمرهم بترك ذلك المنكر القبيح (تطفيف المكيال والميزان) فيجيبونه بأسخف جواب وأتفه كلام، ساخرين منه، متهكمين عليه في صلاته وعبادته:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

عجبٌ والله أن يهزأ الجاهل من العالم، وأن يسخر المجنون من العاقل، وأن يصبح السفيه صاحب حجة وبيان يريد أن يظهر بها على خصمه الذي يدعوه إلى الفضيلة والطهر والعفاف؟ متى كانت الاستقامة تعدّ نقصاً؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيباً يلام عليه الإنسان؟ ولكنه منطق البغي والعدوان كما قال قوم لوط لنبيهم وأتباعه من المؤمنين: ﴿أَخْرِجوهُمْ من قريتكم إنّهمْ أناسٌ يتطّهرونَ...﴾ كذلك كان موقف أهل مدين من شعيب عليه السلام:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾...﴾.

هلاك قوم مدين:

ولقد كان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى (شعيب) أن يسقط عليهم كسفاً (قطعاً) من السماء، إنْ كان من الصادقين في دعوته، فأخذهم عذاب (يوم الظّلة) بأن سلط الله عليهم الحر سبع أيام حتى غلت مياههم، ثمّ ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال فراراً من شدة الحر، فلما تكامل عددهم في ظلها تزلزلت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء ناراً فاحترقوا، وصدق الله حيث يقول:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾...﴾.

وقد عاش شعيب بعد هلاك قومه مدة من الزمن إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك في الفترة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام، ويغلب على الظن أنّ أحداث إهلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر، والله تعالى أعلم.

Marfat.com

أيــوب عليه السلام

ـ ١٠ ـ

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ .. ﴾.

من سورة الأنبياء: الآيتان (٨٣ ـ ٨٤)

ذِكرُه في القرآن:

ذُكِر اسم (أيوب) في القرآن الكريم أربع مرات، في سورة النساء، والأنعام، والأنبياء، وفي سورة (صٓ) وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام على وجه التحقيق لقوله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ... ﴾.

نَسَبه عليه السلام:

يختلف العلماء في نسبه حتى قال أبو البقاء: (لم يصحّ في نسبه شيء) ولكنّ ابن كثير رجّح أنه من سلالة (العيص بن إسحٰق) وذكر أنّ أمّه بنت (لوط) عليه السلام حكاه عن ابن عساكر، والراجحُ من الأقوال في نسبه ما ذكره ابن إسحٰق، وهو كالتالي: «أيوب بن أموص بن زارح بن العيص بن إسحٰق بن إبراهيم الخليل» عليه السلام.

Marfat.com

بلاء أيوب عليه السلام:

ابتلي أيوب عليه السلام بلاء شديداً في أهله وبدنه، وماله، ولكنه كان مثالاً للعبودية الحقة لله تعالى، فصبر على ذلك حتى أصبح يُضرب فيه المثل على الأذى فيقولون: (صَبْراً كصبر أيوب) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بقوله:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ . . .

وقد كان أيوب عليه السلام من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين، وكان يملك أراضٍ واسعة وحقولاً وبساتين، وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد، فكان عبداً تقياً ذاكراً شاكراً لأنعم الله عليه لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه، ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فصبر على البلاء وحمد الله وأثنى عليه، وما زال على حاله من التقوى والعبادة والرضى عن ربه، فكان في حالتي الرخاء والبلاء، مثالاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، وإرغام أنف الشيطان. قالوا: وكانت له امرأةٌ مؤمنة صالحة اسمها (رحمة) من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد رافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالين مع زوجها شاكرة وصابرة.

ثمّ إنّ الشيطان حاول أن يدخل على (أيوب) في زمن بلائه فلم يؤثّر فيه فحاول أن يدخل إليه عن طريق امرأته فوسوس لها: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها اليأس والضجر مما أصابه فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب أيوب وقال لها: كم لبثتُ في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي وما قضيت فيه مدة رخائي!! ثم قال: والله لئن برئتُ لأضربنَّكِ مائة سوط، وحرَّم على نفسه أن تخدمه بعد ذلك(١).

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١/٣٢٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/٢٠٨؛ والكامل لابن الأثير ١/٧٤.

Marfat.com

ثم نادى ربه في حالة الوحدة والشدّة: ﴿ربِّ إني مسّنيَ الضرّ وأنتَ أرحمُ الراحمينَ. . .﴾ فأجاب الله دعاءه، وكشف بلاءه، وأوحى إليه أن يضرب برجله الأرض، فضرب الأرض فتفجّر له منها الماء البارد، فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله، وعاد أكمل ما كان صحةً وقوة، قال تعالى:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ . . .﴾.

وقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ . . .﴾.

أمر الله أن يبرّ بيمينه بأن يضربها بحزمة من قضبان خفيفة فيها مئة عود، أو يأخذ عِذْقاً من النخل فيه مائة شمراخ (عود) فيضربها بها ضربة واحدةً ويبرّ في يمينه ولا يحنث، وقد شرع الله ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وتحمّلها معه وقت الشدة والبلاء صنوف المحنة والابتلاء.

قال ابن كثير: (وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصِّديقة، البارّة الراشدة، رضي الله عنها، ولهذا عقّب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله: ﴿إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العبدُ إنّهُ أوّابٌ. . .﴾.

ثم قال: وقد استعمل كثيرٌ من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسّع آخرون فيها حتى وضعوا الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدّروه بهذه

Marfat.com

الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب[1].

إسرائيليات دخيلة في قصة أيوب:

وقد ذكر بعضهم أموراً لا يجوز اعتقادها بالنسبة لبلاء (أيوب عليه السلام) وهي منقولة عن إسرائيليات لم تصحّ، منها: أنّ أيوب حين اشتدّ به المرض وطال به البلاء عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس، وتعفّن جسده حتى كان الدود يخرج منه، فأخرج من البلد وألقِيَ على مزبلة خارجها.. إلى غير ما هنالك من الحكايات المنقولة عن التوراة المحرفة أو هي من أقوال أهل الكتاب.. وهذا مما يتنافى مع منصب النبوة، وقد قرّر علماء التوحيد أنّ الأنبياء منزّهون عن الأمراض المنفّرة، فكيف يتفق هذا القول مع منصب النبوة؟ والصحيح أنّ المرض الذي ألمّ بأيوب لم يكن مرضاً منفّراً وليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة، وإنما هو مرض طبيعيّ ولكنه استمرّ به سنين عديدة تبلغُ سبعاً، وقيل: إنّ مرضه استمر ثمان عشرة سنة، وهو ـ بلا شك ـ أجلٌ طويل لا يصبر عليه عادة الإنسان، ثم إنّ بلاءه لم يكن في جسده فحسب بل شمل المال والأهل والولد، ولهذا قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقد عاش أيوب عليه السلام (٩٣) سنة ورزقه الله المال والبنين وقد ولد له ٢٦ ولداً ذكراً منهم واحد يسمى (بِشْراً) الذي يقول بعض المؤرخين: إنه (ذو الكفل) الذي ذكره القرآن في ضمن الرسل الكرام، وقد كانت رسالة أيوب إلى أمة الروم ولهذا يقولون: إنه من أمة الروم، وكان مقامه في دمشق وأطرافها على ما ذكره بعض المؤرخين.

* * *

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٢١٠.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٧٦ ـ ٧٧؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

Marfat.com

ذو الكفل عليه السلام

– ١١ –

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ ﴾.

من سورة صٓ: الآية (٤٨).

نَسَبه عليه السلام:

قال أهل التاريخ: ذو الكفل هو ابن أيوب عليه السلام، الذي مرّ معنا ذكره ونسبه هو نسب أيوب عليه السلام واسمه في الأصل (بشر) وقد بعثه الله بعد أيوب وسمّاه (ذا الكفل) لأنه تكفل ببعض الطاعات فوفّى بها، وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق، يتناقلون أنّ له قبراً في جبل هناك يشرف على دمشق يسمى (جبل قاسيون).

يرى بعض العلماء أنه ليس بنبي وإنما هو رجل من الصالحين من بني إسرائيل وقد رجّح ابن كثير نبوّته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء فقال جلّ وعلا في سورة الأنبياء:

﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦ ... ﴾.

وقال في سورة (صٓ) بعد قصة أيوب:

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ ... ﴾.

قال ابن كثير: (فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور[١]).

---

(١) البداية والنهاية ١/٢١١؛ وتاريخ الطبري ١/٤٦٤.

Marfat.com

والقرآن الكريم لم يزد على ذكر اسمه في عداد الأنبياء، أمّا دعوته ورسالته والقوم الذين أُرسِلَ إليهم فلم يتعرض لشيء من ذلك لا بالإجمال ولا بالتفصيل، لذلك نمسكُ عن الخوض في موضوع دعوته حيث إنّ كثيراً من المؤرخين لم يوردوا عنه إلّا النزر اليسير، وممّا ينبغي التنبه له أنّ (ذا الكفل) الذي ذكره القرآن الكريم هو غير (الكفل) الذي ذُكِر في الحديث الشريف، ونصّ الحديث كما رواه الإمامُ أحمد والترمذي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:

«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنْ هذا عمل لم أعمله قطّ وإنما حملتني عليه الحاجة... قال: فتفعلينَ هذا ولم تفعليه قطّ؟ ثمّ نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك، ثمّ قال: والله لا يعصي الله الكفلُ أبداً. فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»[1].

قال ابن كثير: ورواه الترمذي وقال: حديث حسن، وروي موقوفاً على ابن عمر، وفي إسناده نظر، فإنْ كان محفوظاً فليس هو (ذا الكفل) وإنما لفظ الحديث (الكفل) من غير إضافة ، فهو إذاً رجل آخر غير المذكور في القران...[2].

ويذكر بعض المؤرخين أنّ (ذا الكفل) تكفّل لبني قومه أنْ يكفيهم أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل، فسميّ ذا الكفل، وذكروا بعض القصص في ذلك، ولكنّها قصص تحتاج إلى تثبت، وإلى تمحيص وتدقيق، لذلك فقد ضربنا صفْحاً عن ذكرها لأنّ في الروايات الصحيحة غُنْية عنها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

(١) الحديث أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٩٦ وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند أيضاً.

(٢) البداية والنهاية ١/٢١١.

Marfat.com

هـارون عليه السلام

- ١٢ -

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ . . .﴾.

من سورة يونس: الآية (٧٥)

نَسَبه عليه السلام:

هو (هٰرون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن) عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وهو شقيق موسى عليه السلام، وقد بعثه الله رسولاً مع (موسى) معيناً له في دعوته، وقد استجاب الله دعاء موسى حين طلب من ربه أن يجعل له هٰرون وزيراً، ومعيناً في تبليغ الدعوة:

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

فوهبَ له هٰرون وأعطاه النبوة رحمة منه جلّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاهُ هٰرونَ نبياً. . .﴾.

حياته عليه السلام ودعوته:

ولد هٰرون عليه السلام قبل ولادة موسى بثلاث سنين، وقد بعثه الله رسولاً إلى بني إسرائيل مع أخيه موسى عليه السلام، وقد كان فصيح اللسان قويّ الجنان، ولذلك أرسله الله مع أخيه، ليكون له ردءاً ومعيناً في تبليغ الدعوة إلى فرعون الجبار، كما قال تعالى حكاية عن موسى:

Marfat.com

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ . . .﴾.

وإذا ذكرت دعوة موسى ذكرت دعوة هٰرون مقرونة بها، فقد أُرسلا إلى (فرعون وهامان وقارون) وكانا رسولين إلى بني إسرائيل ولكنّ (موسى) عليه السلام أعظم شأناً، وأفضل منزلة من هٰرون، فهو من كبار (أولي العزم) بينما هٰرون عليه السلام كبقية الرسل، وقد بسط القرآن الكريم حياة موسى في ولادته، ونشأته وفراره من مصر، ودخوله أرض مدين، وزواجه ابنة شيخ مدين، وتكليم الله له في جانب الطور، وتحميله الرسالة، والمعجزات التي جرت في حياته، وسائر الأحداث العظيمة التي وقعت لبني إسرائيل، وقد ذكرنا طرفاً منها حين تحدثنا عن قصة (موسى الكليم) عليه السلام ضمن الرسل الخمسة من أولي العزم. . وفي كل هذه كان هٰرون عليه السلام مرافقاً لأخيه في الدعوة لم يفارقه في سفر ولا في حضر.

وحين ذهب موسى لمكالمة ربه عند جبل الطور، ووعد موسى قومه أن يأتيهم بالتوراة لتكون دستوراً وشريعة لهم، استخلف أخاه (هٰرون) على بني إسرائيل، وأكد عليه الأمر بالنظر في مصالحهم، وإصلاح شؤونهم، واليقظة في أمرهم خشية أن يفتنهم أحد عن دينهم، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ . . .﴾.

وقد كانت مدة غياب موسى عن قومه أربعبن يوماً كما قصّ علينا القرآن الكريم، وفي أثناء هذه الفترة كانت المحنة العظمى والابتلاء الكبير على شعب بني إسرائيل، حيث عبدوا (العجل) في غياب موسى، ذلك العجل الذي صنعه (السامريّ) من الذهب والحليّ، وألقى عليه قبضة من تراب كان قد أخذها من أثر فرس جبريل حين نزل مع الملائكة لإغراق فرعون وجماعته، وقد أصبح لهذا العجل صوت يشبه خوار البقر، وزعم هذا الخبيث الضالّ أنّ هذا العجل هو الرب الذي

Marfat.com

بحث عنه موسى فلم يعرف مكانه، وحذّرهم هٰرون فتنة ذلك المجرم العنيد، ولكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه وعبدوا العجل من دون الله، فلما رجع موسى ووجد قومه في هذه الفتنة العظيمة، غضب غضباً شديداً على قومه وعلى أخيه، وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه فأخبره هٰرون بما حدث لهم، وبموقفه معهم وعدم انصياعهم لأوامره، اقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ... ﴾.

وقد ذُكرت القصة مفصّلة في كتب التفسير والتاريخ فارجع إليها. وقد عاش هٰرون (١٢٢) سنة انتقل إلى جوار ربه قبل أخيه موسى بأحد عشر شهراً، وكانت وفاته في أرض التيه قبل دخول بني إسرائيل أرض فلسطين، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته(١).

* * *

(١) راجع: تاريخ الطبري، وتاريخ ابن كثير في تفصيل القصة.

Marfat.com

داود عليه السلام

- ١٣ -

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ . . . ﴾ .

من سورة الإسراء: الآية (٥٥)

ذِكْرَه في القرآن:

ورد اسم (داود) في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، في (البقرة، والنساء، والمائدة، والأنعام، والإسراء، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وسورة صٓ) وهو من أنبياء بني إسرائيل الكرام ومن سبط (يهوذا بن يعقوب) وقد جمع الله تعالى له بين (النبوة والملك) وأعطاه خيري الدنيا والآخرة فكان نبياً ملِكاً كما كان ولده سليمان عليه السلام.

نَسَبه عليه السلام:

هو (داود بن إيشا بن عويد . . من أولاد يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام). وقد ذكر أهل التوراة وأهل الإنجيل نسبه في كتبهم مفصّلاً وهم جميعاً متفقون على أنّه من سبط يهوذا بن يعقوب المسمى (إسرائيل) عليه السلام وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى عليه السلام، و أعطاه الله الزبور، كما قال تعالى: ﴿وآتيْنَا داودَ زَبُوراً﴾.

مكانة داود بين بني إسرائيل:

بعد وفاة موسى وهٰرون، تولى أمر بني إسرائيل نبيّ من أنبيائهم يدعى

Marfat.com

(يوشع بن نون) عليه السلام فدخل بهم بلاد فلسطين (الأرض المقدّسة) التي كانوا قد وعدوا بها على لسان موسى في التوراة، وقسم لهم الأرضين، وقام بأمرهم إلى وفاته، ولمّا توفي (يوشع بن نون) تولى أمرهم قضاة منهم وبقوا على ذلك ٣٥٦ سنة ويسمى الحكم في هذه الفترة (حكم القضاة).

وفي هذه الفترة دبّ إلى بني إسرائيل الوهن والضعف، وفشت فيهم المعاصي والمنكرات، وضيّعوا الشريعة، ودخلت في صفوفهم الوثنية، فسلّط الله عليهم الأمم القريبة منهم، فغزاهم العمالقة، والآراميون، والفلسطينيون وغيرهم، وكانوا إلى الخذلان أقرب منهم إلى النصر في كثير من حروبهم مع عدوهم.

قال ابن جرير في تاريخه: ثم مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء فسلّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم، ويسفكون دماءهم، وسلّط عليهم الأعداء من غيرهم، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم (تابوت الميثاق) ويسميه أهل الكتاب (تابوت العهد) فيه ألواح موسى وعصاه، وهو الذي أشارت الآية الكريمة إليه في قوله تعالى: ﴿وقال لهمْ نبيّهُم إنّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يأتيكُم التّابُوتُ فيهِ سَكِينةٌ منْ ربكُمْ، وبقيّةٌ ممّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هـٰرون. . . ﴾ الآية.

وقد كانوا يُنصرون ببركته فلمّا كانوا في بعض حروبهم مع أهل (غزّة وعسقلان) غلبوهم على أخذه فانتزعوه من بين أيديهم، ومات ملكهم كَمَداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع، حتى بعث الله إليهم نبياً من الأنبياء يقال له (شمويل) وأهل الكتاب يقولون: (صمويل) فطلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً منهم ليقاتلوا معه الأعداء(١)، فكان من أمرهم ما قصّ الله علينا في كتابه العزيز:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا

(١) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٤٧٢.

Marfat.com

نُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

وقد جعل عليهم نبيهم (طالوت) ملكاً بوحي من الله فملّكه أمرهم لقوته (الجسمية والعلمية) ولكنّ بني إسرائيل تمردوا على توليه الملك وقالوا لنبيهم:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ . . .﴾(٢).

أصبحَ (طالوت) ملكاً على بني إسرائيل، وأيده الله على المُلك بمجيء التابوت الذي كان قد نُزع منهم، فاختار الجنود الأقوياء الأشداء، وخرج بهم لقتال عدوهم، وفي الطريق اختبرهم بعد أن اشتدّ بهم الظمأ في رحلة برية شاقة بالمرور على النهر فأمرهم ألا يشربوا منه إلاّ من أخذ جرعة من الماء ليبُلّ بها ظمأه، وكان ذلك اختباراً وامتحاناً من طالوت لجنوده في قوة بأسهم وإرادتهم، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾(٣).

لم يبق مع طالوت إلا عدد قليل يقدر بـ ٣١٩ وكان عددهم على ما يذكر السدّي ٨٠ ألفاً فرجعوا حيث إن إرادتهم كانت خوّارة فلم يصحبهم طالوت معه لقتال الأعداء وإنما اكتفى بهؤلاء القلة في قتال خصومه (الوثنيين) الفلسطينيين وكان رئيس جيش العدو يسمى (جالوت) وكان جبّاراً شديداً يهابه الناس، فرهِبه بنو إسرائيل وقالوا:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٤٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٤٩).

Marfat.com

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ . . .﴾[1].

كان (جالوت) يطلب المبارزة فتقدم إليه فتى صغير اسمه (داود) من سبط يهوذا ولم يكن في الحسبان أن يدخل مثله في المقاتلين لصغر سنّه، فلمّا أقبل عليه احتقره وازدراه وقال له: ارجع فإنني أكره قتلك فقال له، داود: ولكني أحب قتلك، ثم حصلت مبارزة بينهما فقتل (داود) جالوت، وانهزم جيشه شر هزيمة وتم النصر لداود عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ . . .﴾.

منذ ذلك الحين لمع اسم (داود) بين شعب بني إسرائيل، وتتابعت الانتصارات على يديه وأعزّ الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذلّ وهوان، فاجتمع بنو إسرائيل بعد وفاة (طالوت) وبايعوا هذا الغلام الفتيّ على الملك، فأصبح ملكاً عليهم، وكان عمره لا يزيد على ٣٠ عاماً، وقد حكم بين شعبه بالعدل، وساسهم بالمساواة، وطبّق عليهم أحكام التوراة، إلى أن أوحى الله له بالزبور، أحد الكتب السماوية الأربعة.

رسالته ودعوته عليه السلام:

لمّا بلغ داود عليه السلام من العمر ٤٠ سنة آتاه الله النبوة مع الملك وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه الزبور فيه مواعظ وعبر، ورقائق وأذكار، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

وقد كان (داود) عليه السلام حسن الصوت، جميل الإنشاد، حتى أصبح

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبري.

Marfat.com

يُضرب به المثل في حسن الصوت، فيقال: أعطي مزماراً من مزامير داود، وقد سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ القرآن ـ وكان حسن الصوت ـ فوقف يستمع لتلاوته فأعجب بصوته الجميل وتلاوته الرائعة فقال له: «لقد أُعطِيتَ مزماراً من مزامير آل داود»، فقال: يا رسول الله أكنتَ تستمع لقراءتي؟ قال: «نعم»، قال: «لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً»، أي لجمّلت قراءتي وحسّنتها لك أكثر.

كان داود عليه السلام إذا قرأ الزبور تكفّ الطير عن الطيران، وتقف على الأغصان والأشجار، فترجّع بترجيعه، وتسبّح بتسبيحه، وكذلك الجبال تردّد معه في العشيّ والإبكار، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً[1]، فهو يصدح بصوته العذب الجميل بتسبيح الله وتحميده، ويتغنى فيه بكلام الله في الزبور فتسبح معه الجبال والطير، قال تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

وكان مع ذلك الصوت الرخيم سريع القراءة للزبور، مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع فقد جاء في الحديث الشريف: «خُفّف على داود القرآنُ فكان يأمر بدوابّه فتُسرج (أي يوضع على ظهرها السرج للركوب) فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرج دوابه، وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه»[2]. وقد كان داود عليه السلام مع هذه العظمة والملك والجاه كثير العبادة لله سبحانه وتعالى، كان يقوم

(١) البداية والنهاية ٢/ ١١.
(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/ ٣٢٦ من فتح الباري، وأخرجه أحمد في المسند.

Marfat.com

الليل ويصوم النهار ويقضي جزءاً كبيراً من يومه في مسجده ومصلاّه، فكان ذا قوة في العبادة والطاعة وعمل الصالحات، كما قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ . . .﴾.

قال ابن عباس: الأيْد القوة في الطاعة والعبادة، وفي الصحيحين: «أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داودَ، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصفَ الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. . .».

المزايا التي خصّ الله بها داود عليه السلام:

١ ـ تسخير الجبال معه يسبّحن بكرة وعشياً: ﴿إنّا سخّرنا الجبالَ معهُ يسبّحنَ بالعَشِيّ والإشْرَاقِ﴾.

٢ ـ ترجيع الطير معه كلمّا قرأ الزبور: ﴿والطيرَ محشورةً كلٌ له أوّابٌ. . .﴾.

٣ ـ تعليمه منطق الطير: ﴿عُلِّمنا منطِقَ الطَّيْرِ. . .﴾.

٤ ـ إلانَةُ الحديد له فكان بين يديه كالعجين: ﴿وألنّا له الحديد. . .﴾.

٥ ـ علّمه الله صناعة الدروع لدرء خطر الحرب: ﴿وعلّمناه صنعةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بأسِكُمْ. . .﴾.

٦ ـ قوّى الله ملكه وجعله منصوراً على أعدائه مُهاباً في قومه: ﴿وشَدَدْنا مُلْكَهُ. . .﴾.

٧ ـ آتاه الله الحكمة (النبوة) وفصل الخطاب (تمييز الحق عن الباطل) ﴿وآتيناهُ الحِكمةَ وفَصْلَ الخِطَابِ. . .﴾.

فرية عظيمة على داود:

وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش، حين نقلوا بعض القصص الإسرائيلية في تفاسيرهم، اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب، مما لم يصح سنده،

Marfat.com

ولا يجوز اعتماده، لأنه من ضلالات أهل الكتاب، ولأنه يتنافى مع عقيدة المسلمين في (عصمة الأنبياء).

من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي عن داود عليه السلام من أمر عشقه لزوجة قائد جنده، وخلاصتها: أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحمّ فأعجبته وأغرم بها، وكانت زوجة أحد قواده في المعارك وهو (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها فأرسله في أحد الحروب وحمّله الراية وأمره بالتقدم، وكان قد أوعز إلى الجنود أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء، وبهذه الوسيلة قتل الرجل وتزوج داود بتلك المرأة التي عشقها، ويدّعي أهل الكتاب أن داود عاشرها في غياب زوجها (أي زنى بها) ثم دبر تلك المكيدة ليتخلص منه، وأنّ سليمان جاء من تلك المرأة العشيقة... إلى آخر ما هنالك من زور وضلال وبهتان، على هذا النبي الكريم، وهذه قصة مفتراة على داود، ومن يقرأ في كتب أهل الكتاب يجد فيها الشيء الكثير من نسبة الكبائر إلى أنبيائهم وقدّيسيهم، يلفقونها ليبرروا لأنفسهم ارتكاب الآثام، والوقوع في الكبائر.

قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين هٰهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء بمجرد تلاوة القصة في القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم.

وقال البيضاوي: وما قيل إنّه أرسل (أوريا) مراراً إلى الحرب، وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود، هزؤ وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص جلدته مئة وستين جلدة)[1]، وهذه عقوبة حد القذف مغلّظة لأنها في حق نبي من الأنبياء، أما القصة التي ذكرها القرآن الكريم فليس فيها ما يقدح بعصمة داود، وليس فيها شيء من هذا الشطط والبهتان الذي زعمه أهل الكتاب، وأخذه عنهم بعض المفسرين بدون تثبت ولا تحقيق، وسنورد

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

Marfat.com

الآيـة الكريمـة التي زلّ فيها بعض النـاس، ونبيّن معناهـا على الـوجـه الـذي ذكـره المحققون من المفسرين.

قال تعالى في سورة (صۤ):

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . . . ﴾.

وتفصيل القصة على ماذكره المحققون: أنّ داود عليه السلام جزّأ أزمانه يـوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويـوماً للوعظ والإرشـاد، ويوماً لخاصة نفسـه، فتسوّر عليه مـلائكة في صـورة البشر في يـوم الخلوة والاحتجاب ـ وكـان الحرس على البـاب لا يتركون من يدخل عليه ـ فلم يشعر داود إلاّ وأمـامه بعض الأشخـاص ففزع منهم فقـالوا لـه: لا تخف نحن فوجـان مختصمان ﴿بغى بعضنـا على بعض فـاحكم بيننـا بالحق ولا تُشْطِطْ . . ﴾.

أي لا تجر ولا تظلم في الحكم ﴿واهدنا إلى سـواء الصراط . . ﴾ والمـراد عين الحق وهـو العـدل ﴿إنّ هـذا أخي لـه تسعٌ وتسعـونَ نعجـة . . . ﴾ وهي الأنثى من الضأن وقد يكنّى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنـده تسعـاً وتسعين امـرأة ﴿ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ أكْفلينها . . . ﴾ أي ملكنيها ﴿وعزّني في الخطاب . . . ﴾ أي غلبني في الخصومة فأجابه داود بقوله: ﴿لقد ظلَمك بسؤالِ نعجتكَ إلى نعاجِهِ . . . ﴾ وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه حيث أراد أن يتنازل له صاحبـه عن نعجته وعنده تسع وتسعون . . ﴿وظنَّ داودُ أنمـا فتنّـاهُ . . . ﴾ أي علم وأيقن أنمـا ابتلينـاه ﴿فاستغفرَ ربهُ وخرَّ راكعاً وأناب . . . ﴾ أي رجـع إلى الله بالتوبة والإنابة، ولعَل داود

Marfat.com

رأى أنه أسرع بالحكم قبل سؤال المدّعى عليه، وأنه تجاوز الحق إذ لا يجوز له أن يحكم قبل أن يسمع كلام الخصمين.

هذه خلاصة القصة وليس فيها ما يزيد على أنّ (داود) استغفر ربه من شيء وقع منه ولعلّه إرادةُ الفتكِ لمن تسوّروا عليه المحراب حيث ظن بهم الشرّ والسوء فأراد قتلهم ثمّ سمع كلامهم فاستغفر ربه ممّا ظن بهم من سوء. وليس في القصة شيء مما ذكروا في الافتراء والبهتان فأين فيها الحب والغرام لزوجة قائده؟ وأين فيها تدبير المؤامرات لاختطافها منه بعد تعريضه للقتل في الحرب؟ سبحانك هذا بهتان عظيم..

ولسنا نعجب من افتراء أهل الكتاب على رسلهم وأنبيائهم، ولكننا نعجب من اغترار بعض علماء المسلمين بمثل هذه المفتريات والحكايات الإسرائيلية على الأنبياء والمرسلين، حتى ينقلوها في كتبهم ويرووها على أنها من قصص القرآن، فهل تليق هذه الأساطير بمقام نبي الله الكريم (داود) عليه السلام الذي قال عنه القرآن: ﴿نعمَ العبدُ إنهُ أوّابٌ..﴾ وقال عنه: ﴿وإنّ لهُ عندنا لزُلْفى وحُسْنَ مآب..﴾ وقال أيضاً: ﴿وآتيناهُ الحكمةَ وفصلَ الخطاب..﴾[1]؟.

والأغرب من هذا أن نجد في التوراة أمثال هذا الخبر المفترى، الواضح البطلان في شأن داود عليه السلام، فقد ورد في التوراة ما يلي: (وكان داود يدخل المعابد الوثنية فيقيم فيها الطقوس الدينية إرضاء لرغبات زوجاته الوثنيات) أقول: ينبغي على العلماء التثبت في نقل الأخبار، وخاصة ما ذكر في كتب أهل الكتاب من قصص إسرائيلية، فإنّه مما لا شكّ فيه أنّ الكتب السماوية قد دخل إليها التحريف والتبديل، وكل ما خالف العقيدة الإسلامية الصافية فهو باطل مردود.

وفاة داود عليه السلام:

يقول أهل الكتاب: إنّ (داود) عاش سبعاً وسبعين سنة ثم توفاه الله تعالى. وقد ردّ هذا القول ابن جرير وقال: إنه غلط، وقال: إنه عاش مائة سنة وذلك

---

(١) انظر ما كتبناه في حاشية كتابنا صفوة التفاسير ٣/٥٤ حول هذه الفرية المكذوبة.

Marfat.com

للحديث الذي رواه أحمد (إنّ آدم عليه السلام لما استخرج ذريته من ظهره رأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أيْ ربّ من هذا؟ قال هذا ابنك داود، قال: أيْ ربّ كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أيْ ربّ زد في عمره، قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك ـ وكان عمر آدم ألف عام ـ فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة، ولداود مائة سنة[1]، وقد دام ملكه ٤٠ سنة رحمه الله تعالى، وصلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية ٢/٤٦.

Marfat.com

سليمان عليه السلام

– ١٤ –

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

من سورة النمل: الآية (١٧)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم سليمان عليه السلام في القرآن الكريم في ست عشرة آية، في البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وفي سورة (صٓ). وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وقد رزقه الله (النبوة والملك) وجمع له بينهما كما جمعهما لوالده (داود) عليه السلام، وكان ملكه واسعاً وسلطانه عظيماً، لم يدانه أحد في تلك الرتبة والمنزلة، فقد استجاب الله دعاءه وأعطاه ملكاً عظيماً لم يعطه لأحد بعده، كما قال تعالى حكاية عنه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . . .﴾.

نَسَبه عليه السلام:

هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد. . . من سبط (يهوذا بن يعقوب) وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأهل الكتاب

Marfat.com

يـذكرون نسبـه مطولاً، ويقـولون: كـان عظيم الحكمـة، ولذلـك يسمونـه (سليمان الحكيم) ولا يلقبونه بالنبـيّ أصلاً[1].

حكمة سليمان عليه السلام:

أوصى داود عليه السلام بالملك لولده سليمان، ولما مـات داود ورِثه سليمـان في الملك وكان عمره حينئذ (١٢) سنة ويروي ابن الأثير في الكامل: أن عمره كان ثلاث عشرة سنة، وقد كان مـع حداثة سنه من ذوي الفطانة والذكاء، وحسن التدبير والسيـاسة، وقـد أعطاه الله الحكمـة وحسن القضاء منـذ الصغر، وقـد ذكـر القـرآن الكريم طرفـاً من ذلك النبـوغ والذكـاء الذي كـان عند سليمـان وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه، فـأفتى فيها (داود) بـوجه وأفتى فيهـا (سليمان) بـوجه آخـر، كان أضمن للحق وأقرب للصواب كما قال تعالى:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ...﴾ الآيـة.

فقوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ يدل على أنّ ما أفتى به سليمان كان أقرب للصواب وقوله: ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ يدل على أنّ داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم.

وتفصيل القصة ذكرها المفسرون: أن زرعاً دخلت فيـه غنم لقوم ليـلاً فأكلتـه وأفسدته، فجاء المتخاصمـون إلى داود وعنده سليمـان، وقصّوا عليـه القصة فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته ليلاً فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق، تدفـع الغنم إلى أهـل الحرث فينتفعـون بألبـانها وأولادها وأشعارها، وتدفـع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كمـا كان، ثمّ يترادّان بعد ذلك فيعود لأهل الغنم غنمهم، ولأهل الحرث حرثهم.

---

(١) انظر: قصص القرآن للنجار ص ٣١٨.

Marfat.com

ومما يدل على حكمة سليمان، وجودة رأيه في الحكم والقضاء، ما روي في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان فقال: ائتوني بسكين أشقُّه بينكما نصفين، لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضىٰ به للصغرى...»(١). وهذه الحادثة تدل على أسلوب بارع في معرفة الحق، واستخراجه بطريق الحيلة، داود عليه السلام حكم به للكبرى لأنها كانت أقوى بالحجة من الصغرى، ويظهر أنها استطاعت ببعض القرائن أن تثبت الحق لطرفها، وأما سليمان عليه السلام فقد سلك طريقة بديعة لمعرفة صاحب الحق فحينما عرضتا عليه أمرهما قال: أعطوني السكين أشقه بينهما نصفين، فسكتت الكبرى عن غفلة وبلاهة، واندفعت الصغرى بعاطفة الأمومة وحنانها تقول: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ظناً منها أنه سينفذ الحكم في ولدها فعرف أنه ابنها بسبب شفقتها عليه فحكم به للصغرى.

Marfat.com

بناؤه لبيت المقدس:

قام (سليمان بن داود) بعمارة بيت المقدس، تنفيذاً لوصية أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين من توليه الملك، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أي مدينة القدس. وقد روي أنّ سليمان لمّا بنى بيت المقدس، سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثة فأعطاه اثنتين: «سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إيّاه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إيّاه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلاّ الصلاة في هذا المسجد أن يُخرجه من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»(٢).

---

(١) رواه البخاري في الفرائض ١٢/٤٧؛ ومسلم برقم ١٧٢٠؛ وانظر: جامع الأصول ٨/٥٢٠.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/١٧٦؛ والنسائي ٢/٣٤؛ وابن ماجه برقم ١٤٠٨.

قال ابن كثير بعد أن أورد تلك الرواية: فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا، وأنّ الله قد أعطانا إياها.

ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى (الهيكل) أي القصر الملكي، قال المؤرخون: وقد أتمّ بناءه في مدة ثلاث عشرة سنة وأنشأ مذبح القربان، وكان له اهتمام عظيم بالإصلاح والعمران، وكان له أسطول بحريّ، قالوا: وكانت السفن تجلب له من الهند الذهب والفضة والبضائع، وكانت له عناية فائقة بالخيل يروّضها ويعدّها للحرب، وكانت له مجموعة كبيرة من النساء الحرائر والسراري حيث لم يكن في شريعته تحديد لعدد الزوجات، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة على مائة امرأة، تلد كلّ واحدة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله ــ ولم يقل إن شاء الله ــ فما ولدت إلا واحدة منهن بشقِ إنسان، فقال رسول الله: لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهنّ غلاماً يقاتل في سبيل الله عز وجل»(١).

نعم الله على سليمان:

أكرم الله سبحانه (سليمان بن داود) بنعم عظيمة، وخصه بمزايا رائعة كانت عنواناً للعظمة والمجد، ومظهراً من مظاهر الملك العظيم، والجاه الكبير الذي أعطاه الله لسليمان عليه السلام، فكان له سيادة الدنيا، وعزة الآخرة، وهذه بعض نعم الله تعالى على سليمان:

أولاً: ورّثه الله الملك عن أبيه، كما أعطاه الله النبوة، فكان نبياً ملكاً، جمع بين الشرفين، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ داودَ. . .﴾ الآية. قال ابن كثير: أي ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال لأنه كان له بنون غيره، وفي الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» فأخبر الصادق

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٠ من الفتح، ومسلم رقم ١٦٥٤ في الأيمان، والنسائي ٧/ ٢٥ وفي بعض الروايات «لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة. . .» وانظر جامع الأصول ١١/ ٦٦٥.

Marfat.com

المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم بل تكون أموالهم صدقة على الفقراء[1].

ثانياً: علّمه الله منطق الطير، وسائر لغات الحيوانات، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدّث معها كما كان الأمر مع الهدهد أو النمل أو غيرها. روى ابن عساكر قال: مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبيّ الله: قال يخطبها إلى نفسه، ويقول: زوجيني أسكنك أيّ غرف دمشق شئت، قال سليمان: وغرف دمشق مبنية بالصخر لا يسكنها أحد ولكن كل خاطب كاذب[2].

قال تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ . . .﴾ الآية.

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا . . .﴾ الآية.

ثالثاً: إنّ الله تعالى آتاه الحكمة على حداثة سنه، ويشهد لذلك ماأوردناه من بعض القصص التي حكم فيها بحكم أقرّه القرآن الكريم عليه: ﴿ففهمناها سليمان﴾ وبما حصل له في قصة الذئب الذي عدا على ولد إحدى المرأتين كما مرّ سابقاً.

رابعاً: سخّر الله تعالى له (الريح) فكانت تنقله إلى أيّ أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات. كما قال تعالى: ﴿ولسليمانَ الريحَ غدوّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ. . .﴾ والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن البصري: (كان يغدو من دمشق فينزل

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٨.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٩.

Marfat.com

بأصطخر فيتغدى بها، ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل، وبين دمشق وأصطخر مسيرة شهر وبين أصطخر وكابل مسيرة شهر).

وذكر ابن كثير: (أنه كان له بساط تحمله الريح فيه الدور المبنية والخيام والأمتعة والخيول والجمال والرجال وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفراً حملته الريح).

أقول: ليس هذا بغريب ولا عجيب على قدرة الله تعالى، فالإنسان الذي يقطع الآن بالطائرة النفاثة أقاصي المعمورة، وينتقل من بلد إلى آخر في سويعات معدودات، لا يستنكر مثل ذلك الذي سخّره الله تعالى لنبيّه الكريم (سليمان) بواسطة الريح، وهذا التسخير من المعجزات التي اختص بها سليمان عليه السلام.

وقد أنكر الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» موضوع البساط، ولا محل لهذا الإنكار لأن قدرة الله تصنع العجائب، ونحن نؤمن بما أثبته القرآن من أنّ الريح تقطع به المسافات البعيدة، ولكن كيف كانت الريح تحمله هل تحمل به القصر؟ أم تحمل به الخيل؟ أم تحمل البساط؟ نترك علم ذلك إلى الله تعالى ونكتفي بما حدّث عنه القرآن، قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ . . .﴾.

ونحن ـ مع الشيخ ـ نقرّ بالمعجزات والعجائب، ولكن لا نبذّر فيها ولا نسرف ولعلّ الذي دعاه إلى إنكار ذلك تلك الصورة الغريبة العجيبة التي ذكرها بعض أهل القصص أو المبالغة التي اعتمد عليها بعض أهل التفسير، في ذكر أوصاف البساط.

خامساً: سخّر الله تعالى له الجنّ ومردة الشياطين، يغوصون له في البحار لاستخراج الجواهر واللآلىء، ويعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة، والقصور العالية، والقدور الراسيات، والجفان التي تشبه الأحواض، كما قال تعالى:

Marfat.com

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ . . . ﴾.

كما جعل الله له سلطة على جميع الشياطين، يسخّر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة، ويقيّد من يشاء في الأغلال ليكف شرّهم عن الناس كما قال تعالى: ﴿والشياطينَ كلّ بناءٍ وغوّاصٍ، وآخرينَ مقرّنينَ في الأصْفَادِ. . .﴾ أي: الأغلال.

ولم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير (سليمان) عليه السلام، وذلك غاية العظمة، ونهاية الملك والسلطان لملوك الدنيا، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله نبيّ الله سليمان عليه السلام، روى الإمام البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ عفريتاً من الجن تفلّت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني اللّهُ منه فأخذتُه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿ربِّ اغفرْ لِيْ وهبْ لِيْ مُلْكاً لا ينبغيْ لأحدٍ مِنْ بعدِي﴾ فرددتُهُ خاسئاً»(١).

سادساً: أسال الله له عين القطر (وهو النحاس المذاب) فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء فيصنع منه ما شاء، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ وهذه من خصوصيات سليمان عليه السلام كما ألان الله تعالى لأبيه الحديد. . ﴿وألنّا لهُ الحديدَ﴾ فكان بين يديه كالعجين يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وقد قال ابن عباس في تفسير (القطر) بأنه النحاس وكانت باليمن، أنبعها الله له فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها(٢)، ويقول بعض العلماء: ولعلّ ذلك كان في أرض بركانية.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المساجد ٦/٢٢٤ من الفتح، ومسلم رقم ٥٤١ في المساجد أيضاً.
(٢) انظر: البداية والنهاية ٢/٢٨.

Marfat.com

سابعاً: كان جنده مؤلفاً من (الإنس والجن والطير) وقد نظّم لهم أعمالهم ورتّب لهم شؤونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكبٍ حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه، والطير تظلّله بأجنحتها من الحر، وعلى كل من هذه الجيوش نقباء ورؤساء يسيرون في عرض رائع، وموكب ملكي حافل، لم ترَ العينُ مثله، وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصته عندما خرج بجنده فمرّ على واد النمل، فتكلمت نملة مع رفيقاتها، وفهم سليمان كلامها واعتذارها فتبّسم ضاحكاً من قولها وشكر الله على نعمه العظيمة التي أغدقها عليه، وطلب من ربه أن يرزقه الشكر على هذه النعم، اقرأ قوله تعالى:

﴿وحُشِرَ لسُليمَانَ جنودُهُ منَ الجِنّ والإنسِ والطّيرِ فهم يُوْزَعُونَ حتى إذا أتَوْا على وادِيْ النّمْلِ قالَتْ نملةٌ يا أيّها النّملُ ادخُلُوا مساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ. فتبَسمَ ضاحكاً منْ قولِهَا وقالَ ربّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتكَ التي أنعمْتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ، وأدْخِلْني برحمتِكَ في عبادك الصالحينَ. . .﴾.

قال ابن كثير: وفي هذا السياق، دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه، لا ــ كما زعم بعضهم ــ من أنه إذ ذاك على البساط، لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء، لأنّ البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام، والطيرُ من فوق ذلك كله كما سنبيِّنُه إن شاء الله(1).

والمقصود أنّ سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أسراب النمل حين أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، لئلا يتحطموا تحت وطأة الأقدام، ثم اعتذرت عن سليمان وجنده بذلك الاعتذار اللطيف، الذي يدل على فهم وإدراك منها لنفسية سليمان الكريمة، ولجنده الأوفياء الأبرار: ﴿لا يَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهمْ لا يشعرونَ﴾ أفليس هذا دليلاً على أدب هذه النملة، وتمييزها بين الأشرار والأبرار؟.

---

(1) انظر: البداية والنهاية ٢/١٩.

Marfat.com

وروي عن السدّي أنه قال: (أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا للاستسقاء، فإذا بنملةٍ قائمة على رجليها، باسطة يديها وهي تقول: (اللهمّ إنّا خلقٌ من خلقك، ولا غنى لنا عن فضلك...) فقال: ارجعوا فقد سقيتم من أجل هذه النملة.

قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ:

قصّ علينا القرآن الكريم قصة سليمان مع ملكة سبأ، وهي قصة رائعة فيها مغزى دقيق للملوك والعظماء وفيها بيان لسعة ملك سليمان حيث امتدّ من بيت المقدس، إلى أقاصي اليمن، ودانت له الملوك والأمراء، وقد اتخذ الملك وسيلة للدعوة إلى الإسلام فلم يترك ملكاً كافراً، ولا حاكماً جائراً، ولا سلطاناً ذا بأس وقوة إلّا ودعاه إلى الدخول في دين الله، فمن لم يجبه كان السيف هو الحكم الفصل، وهكذا انتشر دينه في أقطار المعمورة وعمّ أرجاء الدنيا.

ذكرنا أنّ جنده كانوا ــ من الإنس والجنّ والطير، كل له عمل يقوم به ــ وكان الجميع يحضرون لديه كما هي حالة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد ــ على ما ذكره ابن عباس ــ البحث عن الماء في القفار في حالة الأسفار فيجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء؟.

وتفقد سليمان الطير يوماً فلم يجد (الهدهد) فعدّ ذلك جريمة اقترفها وتهدده بالذبح أو التعذيب إلّا إذا أتاه بعذر مقبول عن سبب هذا التخلف، فلمّا جاء (الهدهد) سأله عن غيبته فأخبره أنه كان في اليمن في بلدة سبأ، وهناك ملكة تسمى (بلقيس) قد ملكت على تلك الأمة، ولملكتهم عرش عظيم فيه أنواع الزينة والجواهر، وأنها وقومها جماعة وثنيون يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله وأخذ يقص عليه نبأ تلك المملكة العظيمة وما فيها من الأقوام الوثنيين الكافرين بالله.

تعجّب سليمان من هذا الخبر، كيف يكون في الدنيا من يعبد غير الله؟ وأراد أن يختبر الهدهد هل هو صادق في خبره أم كاذب؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى

Marfat.com

الملكة، فذهب (الهدهد) بالكتاب إلى اليمن وألقاه على سريرها، وكان فيه الدعوة إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان إلى الخضوع لملكه وسلطانه.

أخذت الملكة الكتاب وفتحته فإذا به:

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

لم ترد الملكة أن تستبدّ بالإجابة على هذا الكتاب، فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها الوزراء والأعوان وأطلعتهم على هذا الكتاب وما فيه من الخطاب الشديد، فأخذتهم العزة بالإثم، وثارت فيهم الحماسة، وقالوا لها: ﴿نحنُ أولُوا قُوّةٍ وأولُوْا بأسٍ شديدٍ، والأمرُ إليك فانظرِيْ ماذا تأمرينَ؟﴾ كانت الملكة (بلقيس) ذكية عاقلة، فنظرت في الأمر بعين الفطنة ـ ولم تغتر بما أبداه رجالها من القوة والحماسة ـ وقالت لهم: إنّ دخول الملوك إلى المدن ليس بالأمر اليسير السهل، بل هو خراب للبلاد، وخاصة إذا دخلوها عن ثورة وغضب:

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى حل هذه الأزمة التي أتتها من حيث لا تحتسب، وذلك بأن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها، وتستنزل مودّته بسببها، وتحمّل هذه الهدية لرجال دهاة ينظرون مدى قوة سليمان، ثمّ بعد ذلك تقرّر ما يجب أن تفعله على ضوء ما يأتيها عنه من أخبار.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» ما نصه:

(وظاهر أنها كانت تريد من إرسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال هذا الملك الذي أرسل يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها إليه خاضعة بلا تردّد، ثم يعودون إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته، وقوته في ملكه، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة إذا لم تخضع لأمره، لتكون على بيّنة مما تأتي وتدع! وتكون على رأس أمرها، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تقدير عواقبه، فلما جاءت رسلها

Marfat.com

إلى سليمان بالهدية لم يقبلها، وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم وأنه في حال حسنة، وانفساح ثروة أكثر مما فيه المِلِكَةُ وقومها، وتوعدّهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قِبَل لهم بها (أي لا قدرة لهم على قتالها) وأنّ عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلة صاغرين[1].

رجع الرسل إلى الملكة، ووصفوا لها ما شاهدوه من عظمة ملك سليمان، وكثرة جنده، وقوة بأسه وأخبروها بأنه رد الهدايا إليها، ولم يرض المصانعة وأنه مصمم على غزو البلاد بجيش عرمرم فعزمت الملكة على الاستسلام والانقياد وشدت رحالها وأحمالها، وسارت مع جماعتها إلى سليمان، اقرأ هذه الآيات البينات:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب
بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ
إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟
نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٣٣٤.

Marfat.com

ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ . . . ﴾[1] .

حين علم سليمان بأن ملكة سبأ قادمة على زيارته في عاصمة ملكه شيّد لها صرحاً (قصراً) عظيماً من زجاج، وعمل في ممرّه ماءً، وجعل عليه سقفاً من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء، بحيث يخيّل للناظر أنه (لجّة) ثم جلس سليمان على سريره فلمّا دخلت الصرح كشفت عن ساقيها لأنها ظنت أنّ في طريقها الماء، فقال لها سليمان: إنّه صرح ممرد من قوارير (زجاج). وهذا شيء عظيم لا عهد لأهل اليمن بمثله.

وقد أراد سليمان أن يظهر لها من دلائل عظمته وسلطانه ما يبهرها، وأن ترى بعينيها ما لم تره بالأحلام . . وهو أن يأتي بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح، فأمر جنوده بأن يخبروه عن شخص قوي ليأتيه بعرش بلقيس، فانتدب له عفريت من الجن وأخبره بأنه قادر على المجيء به في مدة قصيرة لا تتجاوز نصف النهار، وكان هناك رجل من أهل العلم والإيمان، مشهور بالولاية، قال لسليمان: ﴿أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدّ إليكَ طرفُكَ﴾ أي: في طرفةِ عين، وإذا بالعرش قد حضر وهذا الرجل هو (آصف بن برخيا) كما يذكر المفسّرون وهو ابن خالة سليمان، وهو من أهل الولاية والصلاح، وقد كان هذا من كراماته، والكرامات لأولياء الله ثابتة، لا ينكرها إلاّ مكابر، قال في الجوهرة[2]: «وأثبتَنْ للأولياء الكرامة: ومَنْ نَفَاهَا فانبذْن كلامه». ويميل بعض المفسرين إلى أنّ الذي أتى بعرشها هو (سليمان) عليه السلام نفسه ويجعل نقل العرش معجزة لسليمان، وقد رد هذا القول السهيلي وابن كثير، وقال: إنه غريب جداً، لأن سياق الكلام لا يؤيد هذا الرأي[3] .

---

(١) سورة النمل: الآيات (٢٠ ــ ٣٧).
(٢) انظر: شرح جوهرة التوحيد للشيخ اللقاني.
(٣) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/٣٦٧ .

Marfat.com

وقد أمر سليمان أن يغير بعض معالم العرش ليمتحن بها قوة ملاحظتها وانتباهها فلمّا جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة فعُرِض عليها عرشُها وقيل لها: (أهكذا عرشك؟) فأجابت: كأنه هو، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها، لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب. ولمّا رأت هذه الدلائل الباهرة، والخوارق العجيبة أعلنت إسلامها، وتبرأت مما كانت عليه هي وقومها من ضلال فقالت: ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسيْ وأسلمتُ مع سليمانَ للّهِ ربِ العالمينَ...﴾ اقرأ هذه الآيات الكريمة في تتمة القصة:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فتنة سليمان عليه السلام:

يخترع بعض المغرَمين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة صورة عجيبة غريبة لفتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم إشارة خاطفة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾...﴾.

ويحكون بعض الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان حول (خاتم

Marfat.com

سليمان) وأنه كان يلبس الخاتم فيحضر إليه الجانّ والعفاريت، ثم إنَّ الخاتم ضاع وألقي في البحر ففقد سليمان ملكه، وجلس الشيطان بدل سليمان على كرسي الملك، إلى آخر ما هنالك من أباطيل تتنافى مع الرسالة والنبوّة ولا يقبلها عقل ولا نقل، وقد ردّها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي، والبيضاوي، وغيرهم من العلماء الأجلاّء.

قال ابن كثير: (وقد أورد بعض المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثيرٍ منها نكارة شديدة[1].

ولعلّ (الفتنة) المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح (ثمّ أناب) أي رجع إلى حالة الصحة، وهذا ما اختاره الفخر الرازي من الوجوه التي ذكرها. أو المراد فتنته بكلمته التي قال فيها لأطوفن على مائة امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة منهن جاءت بشق رجل (أي نصف إنسان) فوضع على كرسيه، فلما رأى ذلك رجع وأناب إلى الله، والحديث قد مر سابقاً وهو مرويٌ في الصحاح، وقد مال إلى هذا الرأي البيضاوي والنسفي وغيرهما.

وعلى كل حال فإن ما ورد في قصة الخاتم، كلُّه باطل وبهتان، وقد قال النسفي رحمه الله: «وأمّا ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود»[2].

وفاة سليمان عليه السلام:

عاش سليمان عليه السلام ٥٢ سنة، وقد لبث في الملك ٤٠ سنة على الرأي الراجح الذي ذكره ابن (إسحٰق) ثم توفي عليه السلام، وكان أمر وفاته حدثاً

---

(١) راجع: الجزء الرابع من تفسير ابن كثير من الصفحة ٣٧ إلى ٤٠.
(٢) انظر: تفسير النسفي ٤/٤٢.

Marfat.com

غريباً، لم تعلم بـه الإنس ولا الجن حتى بعد مرور سنة على الوفاة، وذلك بعـد أن أكلت «الأَرَضَةُ» عصاه فخر على الأرض، وتحقق الناس من موته، وقد دخل معبـده فمات وهومتوكىءٌ على العصا. . . روى ابن كثير، عن وهب بن منبّه، أنه قـال: إن (سليمان) عليه السلام قال لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بقبضِ روحي فـأعلمني، فأتـاه فقال: يا سليمان قد أُمِـرْتُ بك، فـدعا الشيـاطين فبنَوا عليـه صَرْحـاً من قواريـر لـه بـاب، فقـام يصلي فـاتكـأ على عصـاه، فـدخـل عليـه ملك المـوت فقبضَ روحـه وهـو متوكٍ على عصـاه، والجنّ تعمل بين يـديه وينـظرون إليه ويحسبـون أنه حيّ، قال: فبعَثَ اللّهُ دابةَ الأرض إلى منسأته (يعني عصاه) فأكلتهـا حتى إذا أكلت جوف العصا، خرّ على الأرض فلمـا رأت الجن ذلك تبيّنـوا ﴿أنْ لو كـانوا يعلمـون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1]. قال تعالى إشارة إلى حادثة موته:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهنا إشارة لطيفة وهي أنّ الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب، فلمّا مـات سليمان ولم يعلموا بموته وهم في أعمالهم الشاقة التي كلّفهم بها سليمـان، اتضح الأمر بكذب دعواهم، وقد دفن سليمان في بيت المقدس رحمـه الله رحمةً واسعـةً، وأسكنه في مقعد صدق عنـد مليكٍ مقتدر.

❊ ❊ ❊

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/٥٣٨.

Marfat.com

إلياس عليه السلام

ـ ١٥ ـ

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

من سورة الصافات: الآيات (١٢٣ ـ ١٢٥)

ذِكْرَه في القرآن الكريم:

ذُكِر اسم (إلياس) عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن في آية من الأنعام، وفي آيتين من الصافّات، أولاهما ذكر فيها لفظ (إلياس) والثانية ذكر فيها لفظ (إلياسين) قال تعالى: ﴿سلامٌ على إلْياسين﴾، قال ابن كثير: أي إلياس والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة، وتبدلها من غيرها، كما تقول: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين[1].

نَسَبه عليه السلام:

قال علماء النسب هو: (إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هـٰرون) هذا ما ذكره المؤرخ ابن جرير الطبري في تاريخه واختاره، وذكر غيره نسباً آخر يختلف بعض الشيء عما ذكره ابن جرير، ولكن الجميع متفقون على أنه من ذرية (هـٰرون) عليه السلام إلى أنْ ينتهيَ نسبه صاعداً إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم أجمعين، ومن المقطوع به أنه من أنبياء بني إسرائيل.

(١) البداية النهاية ١/ ٣٣٩.

Marfat.com

دعوته عليه السلام:

جاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحق ما ملخصه:

«إنّ إلياس عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى نبذ عبادة الأصنام، والاستمساك بعبادة الله وحده، رفضوه ولم يستجيبوا له، فدعا ربه فقال: اللهمّ إن بني إسرائيل قد أبَوا إلّا الكفر بك والعبادة لغيرك، فغيّر ما بهم من نعمتك، فأوحى الله إليه: إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك، فقال إلياس: اللهمّ فأمسك عليهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد الناس جهداً شديداً، ولمّا دعا عليهم استخفى عن أعينهم، وكان يأتيه رزقه حيث كان، فكان بنو إسرائيل كلّما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا: هنا إلياس فيطلبونه وينال أهلَ المنزل منهم شرٌ، وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، لها ابن يقال له (اليسع بن أخطوب) به ضرّ فآوته وأخفت أمره فدعا ربه لابنها فعافاه من الضر الذي كان به، واتّبع (إلياس) وآمن به وصدّقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب وكان (إلياس) قد أسنّ وكبر، وكان (اليسع) غلاماً شاباً ثمّ إن (إلياس) قال لبني إسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرّج عنكم، فأخرجوا أصنامهم ومحدثاتهم فدعا الله لهم ففرّج عنهم وأغاثهم، فحييت بلادهم ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه ولم يستقيموا فلما رأى (إلياس) منهم دعا ربه أن يقبضه إليه فقبضه ورفعه، ثمّ إنّ الله أرسل إليهم (اليسع) بعد إلياس[1].

ويذكر (ابن كثير): أن رسالته كانت لأهل (بعلبك) غربي دمشق، وأنه كان لهم صنم يعبدونه يسمى (بعلاً) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري الجزء الثاني.

Marfat.com

ويذكر بعض المؤرخين أنه عقب انتهاء ملك (سليمان بن داود) عليه السلام وذلك في سنة ٩٣٣ قبل الميلاد انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قمسين:

الأول: يخضع لملك سلالة (سليمان) وأول ملوكهم (رُحْبَعام بن سليمان).

الثاني: يخضع لأحد أسباط (أفرايم) بن يوسف الصديق، واسم ملكهم (جُرْ بعام).

وقد تشتّت دولة بني إسرائيل بعد (سليمان عليه السلام) بسبب اختلاف ملوكهم وعظمائهم على السلطة، وبسبب الكفر والضلال الذي انتشر بين صفوفهم، وقد سمح أحد ملوكهم وهو (أخاب) لزوجته بنشر عبادة قومها في بني إسرائيل، وكان قومها عباداً للأوثان فشاعت العبادة الوثنية، وعبدوا الصنم الذي ذكره القرآن الكريم واسمه (بعل)، فأرسل الله إليهم (إلياس) عليه السلام الذي تحدثنا عن دعوته.

فلمّا توفي (إلياس) عليه السلام أوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء واسمه (اليسع) عليه السلام ليقوم في بني إسرائيل، فيدعوهم إلى عبادة اللّهِ الواحد القهّار.

* * *

Marfat.com

اليسع عليه السلام

- ١٦ -

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ... ﴾.

من سورة صۤ: الآية (٤٨)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر (اليسع) عليه السلام في آيتين من القرآن الكريم، في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وفي سورة (صۤ) وهي الآية التي صدّرنا بها الكلام على هذا النبي الكريم.

نَسَبه عليه السلام:

جاء في تاريخ الطبري حول ذكر نسبه أنه: (اليسع بن أخطوب) ويقال: إنه ابن عم إلياس النبي عليهما السلام، وذكر الحافظ ابن عساكر نسبه على الوجه الآتي: (اسمه أسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف الصدّيق عليه السلام).

وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد أوجز القرآن الكريم الحديث عن حياته فلم يذكر عنها شيئاً وإنما اكتفى بعدّه في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً..

Marfat.com

دعوته عليه السلام:

قام بتبليغ الدعوة بعد انتقال (إلياس) إلى جوار الله، فقام يدعو إلى الله مستمسكاً بمنهاج نبيّ الله إلياس وشريعته، وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة فقتلوا الأنبياء وشرّدوا المؤمنين فوعظهم (اليسع) وخوّفهم من عذاب الله ولكنهم لم يأبهوا بدعوته ثم توفاه الله وسلّط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب كما قص علينا القرآن الكريم في قوله تقدّست أسماؤه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

ويذكر بعض المؤرخين أن دعوته ظهرت في مدينة تسمى (بانياس) إحدى مدن الشام، ولا تزال حتى الآن موجودة وهي قريبة من بلدة اللاذقية، والله أعلم.

* * *

Marfat.com

يونس عليه السلام

ـ ١٧ ـ

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

من سورة الصافات: الآيات (١٣٩ ـ ١٤١)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر يونس عليه السلام باسمه في القرآن الكريم أربع مرات في سورة (النساء والأنعام، ويونس، والصافّات) وذكر بالوصف في موضعين حيث لقبه الله (بذي النون) أي الحوت في سورة الأنبياء في قوله تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ...﴾.

وبلفظ صاحب الحوت في سورة القلم في قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ...﴾.

فيكون قد ذكر في القرآن ست مرات، أربع مرات بالاسم، ومرتين بالوصف.

نَسَبه عليه السلام:

لم يذكر المؤرخون نسباً ليونس عليه السلام، وإنما اتفقوا على أن اسمه (يونس بن متّى) قالوا: (ومتّى) هي أمه ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير (يونس وعيسى) عليهما السلام، ويسمى عند أهل الكتاب (يونان بن أمتاي) ويونس عليه

Marfat.com

السلام من بني إسرائيل، ويتصل نسبه بـ (بنيامين) أحد أولاد يعقوب عليه السلام وهو أخو يوسف الشقيق.

دعوته عليه السلام:

أرسله الله تعالى إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، ولهم صنم يسمونه (عشتار).

فذهب يونس عليه السلام من بلاد الشام إلى (نينوى) فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذّبوه ولم يستجيبوا لدعوته، شأن أكثر أهل القرى، كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فبقي معهم يذكّرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله، ولكنّه لم يلق منهم إلاّ آذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً، فضاق بهم ذرعاً، ثمّ أوعدهم بالعذاب إنْ لم يؤمنوا، فلمّا طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث، ويظهر أن قومه توعّدوه أيضاً وغضبوا منه ولاحقوه فأبق فاراً منهم، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظنّ أنّ الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج ولنْ يضيّق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وذا النون إذْ ذهبَ مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه . . .﴾ الآية. فهو قد ذهب مغاضباً لقومه لا مغاضباً لربه فإنّ ذلك معصية لله وهو يتنافى مع (عصمة الأنبياء) وقد وضحنا ذلك مفصلاً في (بحث العصمة) فارجع إليه هناك.

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف: فلما خرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة. وندموا على ما كان فيهم مع نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثمّ عجّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، وجأرت الأنعامُ والدواب، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته

Marfat.com

ورحمته عنهم العذاب الذي دار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ...﴾.

يونس في جوف الحوت:

أما يونس عليه السلام فإنه حين ترك قومه سار حتى وصل إلى شاطىء البحر فوجد سفينة على سفر فطلب من أهلها أن يركبوه معهم، فتوسّموا فيه خيراً فأركبوه، ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب، فاستهموا فيما بينهم على أنّ من وقع عليه السهم ألقوه في البحر، فوقع السهم على (يونس) فسألوه عن شأنه، وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح فحدّثهم بقصته، فأشفقوا أن يلقوه في البحر، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله، فألقوه فالتقمه حوت عظيم بأمر الله، وسار به في الظلمات في حفظ الله وتأديبه، وتمت المعجزة فقد أوحى الله إلى الحوت أن لا يصيب من يونس لحماً، ولا يهشم له عظماً، فحمله الحوت العظيم وسار به في عُبَاب البحر حيّاً يسبّح الله ويستغفره، وينادي في الظلمات ﴿أن لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾ فاستجاب الله له ونجّاه من الغم، ثم أوحى الله إلى الحوت أن يقذف به في العراء على ساحل البحر فألقى به وهو سقيم، وقد مكث في جوف الحوت ثلاثة أيام بلياليها، ثمّ وجد نفسه في العراء سقيماً هزيلاً، فحمد الله على النجاة، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظل بظلها، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه، وعلم (يونس) أنّ ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم، بدون إذنٍ صريح من الله له، وإنْ كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكنّ مثل هذا الاجتهاد إنْ قُبِل من الصالحين العاديين، فإنه لا يقبل من المرسلين المقرّبين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل

Marfat.com

ما يستحق عليه اللوم والتأديب الرباني[1].

إقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)...﴾.

ولمّا قدر يونس على المسير عاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين بالله تائبين إليه منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه فلبث فيهم يعلّمهم ويهديهم، ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

ومتّع الله أهل (نينوى) في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده آمنين مطمئنين إلى حين، ثمّ بعد ذلك لمّا أفسدوا وضلوا سلّط الله عليهم من دمّر لهم مدينتهم فكانت أحاديث يرويها المؤرخون ويعتبر بها المعتبرون.

وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس عليه السلام مائة وعشرين ألفاً على رواية ابن عباس، لأن الله تعالى قال: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ وقد ورد في ذلك بعض الآثار، والله تعالى أعلم.

* * *

(١) أخذاً من كتاب العقيدة الإسلامية للأستاذ عبد الرحمن حبنكة.

Marfat.com

زكريا عليه السلام

ـ ١٨ ـ

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

من سورة الأنبياء: الآية (٨٩)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم زكريا عليه السلام في القرآن الكريم ثماني مرات، في كل من السور الآتية: (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء) وذكرت قصته مفصّلة في سورتَيْ (آل عمران، ومريم) أمّا في مريم فمن بداية السورة الكريمة إلى الآية الخامسة عشرة منها في قوله تعالى: ﴿ كهيعص، ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَه زكريّا. إذْ نادَى ربَّهُ نِدَاءً خَفياً . . ﴾الآيات،وهو على وجه القطع من رسل بني إسرائيل لأنه من ذرية (سليمان بن داود) الذي يتصل بـ (يعقوب) عليه السلام المسمّى (إسرائيل) وهو أحد الرسل الذي يجب الإيمان بهم تفصيلاً.

نَسَبه عليه السلام:

لم يذكر المؤرخون له نسباً متصلاً موثوقاً، بيد أنّ الحافظ ابن عساكر في كتابه «التاريخ المشهور» قد ذكر له نسباً طويلاً مكوناً من أربعة عشر أباً حتى وصل إلى (سليمان بن داود) عليه السلام ونحن نوجزه على الشكل الآتي: (زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان . . . إلى أن يصل إلى رحبعام بن سليمان بن داود).

ويذكر الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه يوجد زكريا آخر، غير زكريا

Marfat.com

(والد يحيى) ليس له قصة في القرآن الكريم أصلاً وهو (زكريا بن برخيا) ويقول: هذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى، وكان في زمن (داريوس) أي قبل زمن المسيح بحوالي ثلاثة قرون، وهو الذي تكلم في كتابه من الفصل التاسع عن ولاية (عمر بن الخطاب) وغلبه على (أورشليم) يعني القدس ودخوله إليها منصوراً وادعاً راكباً على حماره، والنصارى يأوّلونه بالمسيح، واليهود يأوّلونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال...)[1].

متى كانت رسالته؟:

قبيل ميلاد السيد المسيح بن مريم عليه السلام بعث الله (زكريا) عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، فقام يدعوهم إلى الله، ويخوفهم عذابه، في وقت اشتد فيه الفسق والفجور وانتشرت المنكرات، وكثرت المعاصي، وطغت على الأمة الإسرائيلية موجة عنيفة من التفسخ والتحلّل، وطغيان المادية، حتى نَسوا الله والدار الآخرة، وتسلّط على الحكم ملوك ظلمة جبابرة يعيشون في الأرض فساداً، ويفعلون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، لا يراعون حرمة لنبيّ، ولا قدسية لدين، دينُهم ما يوحي إليهم به شيطانهم، وعبادتهم ما تشتهيه أهواؤهم، وقد تسلّطوا على الصالحين والأتقياء والأنبياء حتى سفكوا دماءهم، وكان أعظمهم فتكاً وإجراماً هو (هيرودس) حاكم فلسطين الذي أمر بقتل (يحيى بن زكريا) وقدم إليه رأسه في طبق والدم ينزف منه، إرضاء لشهوة عشيقته كما سنبينه إن شاء الله عند الحديث عن يحيى عليه السلام.

وقد لقي (زكريا) عليه السلام من الحكام والجبابرة، وبني إسرائيل كل عَنَت ومشقة، وكل جهد وبلاء، وناله من أذاهم الشيء الكثير وتوالت عليه الأهوال والشدائد، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، ولم يعد به طاقة لتحمل الأذى والمخاطر، وخشي على بني إسرائيل أنْ يضلّوا ويُفتنوا، فطلب من ربّه أن يعينه بولد

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٢٦٨.

Marfat.com

يواسيه في شيخوخته، ويخلفه في تبليغ الرسالة، لا يتركه وحيداً فريداً يقاسي في هذه الحياة المتاعب والآلام، قال تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

ولادة يحيى بن زكريا:

كانت رسالة نبي الله زكريا عليه السلام إلى بني إسرائيل تمهيداً وإيذاناً بقرب ميلاد السيد الأكرم، والنبي الأعظم «عيسى بن مريم» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، ومن المعلوم أنّ السيد المسيح «عيسى بن مريم» هو آخر أنبياء بني إسرائيل، لذلك فقد بعث الله بين يديه نبيين كريمين هما «زكريا» وولده «يحيى» عليهما الصلاة والسلام يحوطانه ويرعيانه منذ ولادته إلى حين اكتمال شبابه، وكانت رسالتهما إيذاناً ــ كما تقول الأناجيل ــ بقرب اقتراب ملكوت السموات.

وقد كان زكريا قبل أن يكرمه الله بالرسالة، ويختاره لإنقاذ بني إسرائيل من الشقاوة والضلالة، من كبار (الربّانيّين) الذين لهم شركة في خدمة الهيكل ثمّ نبّأهُ الله، وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان (عمران) والد مريم إمامهم وكبيرهم، والكاهن الأكبر فيهم فلمّا توفي (عمران) كان الكافل لابنته (مريم) هو زكريا عليه السلام وهو زوج خالتها، وقد كان يرى من عجائب قدرة الله تعالى في حفظ هذه السيدة البتول ما يبهر العقل، وقد قصّ علينا القرآن الكريم طرفاً من هذا في قوله تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ...﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٨٩ ــ ٩٠). (٢) سورة آل عمران: الآية (٣٧).

Marfat.com

كان زكريا عليه السلام إذا دخل على مريم معبدها يجد عندها من الرزق ما لا يوجد مثله في البلد، أو عند سائر الناس، ويكرمها الله بأنواع من الإكرام، من حيث لا تحتسب، فيسألها زكريا في دهشة واستغراب: ﴿أنى لَكِ هَذَا﴾ فتجيبه: ﴿هو من عند الله﴾!!.

وكان (زكريا) عليه السلام قد تقدّمت به السنّ، وَوَخَطَه الشيبُ، وبلغ من الكبر عتياً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فلمّا رأى من كرامات الله تعالى لمريم، ومن آياته الباهرات، ما يدهش ويحيّر، طمع في فضل الله ورحمته فطلب من ربه أن يرزقه الله غلاماً تقياً، يرثه في النبوة والهداية لبني إسرائيل، ويجعله من العباد الصالحين: ﴿هنالِكَ دَعَا زكريّا ربّه قالَ ربّ هبْ لي منْ لَدُنْكَ ذريّةً طيّبةً إنك سميعُ الدعاء...﴾ وقد كان عمره حين طلب الولد تسعاً وتسعين سنة، وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة، ولم يكن طلب (زكريا) للولد لمجرّد حبه للبنين، ولكنه رجا ربه أن يرزقه الولد ليخلفه في بني إسرائيل وليقوم بأعباء الدعوة التي حملها أبوه وقد كان يخشى من بعد وفاته على بني إسرائيل أن يتولى أمرهم في شؤون الدين الموالي من الجهلة والفساق، ومن ليس في قلبه تعظيم لشعائر الدين، فيعملوا بما لا يوافق شرع الله وطاعته، ولذلك سأل ربه الولد، وناداه نداء خفياً، لا يسمعه إلا من يسمع الصوت الخفيّ، ويعلم القلب النقيّ، وطلب منه أن يكرمه بولد برّ تقي فاستجاب الله دعاءه وأجاب نداءه، ورزقه على الكبر غلاماً زكياً هو (يحيى) عليه السلام، من امرأته العاقر، التي لم تكن في حال صباها تلد، فكيف بها وقد أصبحت في سن الهرم والشيخوخة؟ ولكنها قدرة الله التي تفعل الأعاجيب وتأتي بالخوارق، وتجيب دعوة المضطر إذا دعاه، اقرأ الآيات الكريمة في سورة مريم:

﴿ كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ
رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ

Marfat.com

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ . . .﴾.

ولد لزكريا ذلك الولد البارّ، الذي رُزقه على الهرم والشيخوخة من زوجته (أشياع بنت عمران) أخت مريم بنت عمران، وعاش في كنف والده عيشة البر والتقى، ثم كانت الفتنة الكبرى حين ذُبح (يحيى) قرباناً لأهواء أهل الضلال، في حياة أبيه الشيخ الكبير الوقور، الرسول النبي الصالح، الذي لقيَ بعد ذلك حتفه على أيدي الظلمة من الحكام، وذاق نفس الكأس الذي ذاقه ولده، فقُتِلَ زكريا عليه السلام ـ على ما يذكر بعض المؤرخين ـ نشراً بالمنشار، ولقي وجه ربه شهيداً مرضياً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * *

Marfat.com

يحيى عليه السلام

ـ ١٩ ـ

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ ﴾.

من سورة مريم: الآيتان (١٢ ـ ١٣)

ذِكْرُه في القرآن:

ذُكِر اسم يحيى عليه السلام في القرآن الكريم في أربع آيات في كل من السور الآتية: (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء) وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بالثناء العاطر، ووصفه بالبرّ والتقوى، والصلاح والاستقامة فقال في شأنه:

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ . . . ﴾.

وأعطاه الله النبوة وهو ابن ثلاثين سنة، كما قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكمَ صبياً﴾ وجعله سيداً حصوراً بعيداً عن مقارفة المنكرات والشهوات، كما قال تعالى ﴿وسيّداً وحصوراً ونبياً منَ الصّالِحِينَ﴾.

نَسَبه عليه السلام:

هو يحيى بن زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان. . إلى أن يصل نسبه إلى نبي الله (سليمان بن داود) عليه السلام وهو من سبط يهوذا بن يعقوب لأن داود عليه السلام هو من سبط (يهوذا) كما هو محقق عند علماء أهل النسب.

Marfat.com

ولادته عليه السلام:

ولد يحيى عليه السلام قبل مولد المسيح عيسى بن مريم بثلاثة أشهر، وعاصره وعاش معه فترة طويلة من الزمن، ورافق أطوار دعوته عليه السلام، وقد نشأ يحيى ـ كما بشّر الله ـ نشأة صلاح وتُقى وطُهْر ونقاء، بعيداً عن مظاهر الترف والنعيم فكان في شبابه يأوي إلى القفار، ويقتات بالجراد، ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق، وكان كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى، روى مجاهد قال: (كان طعام يحيى بن زكريا العشب، وإنه كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القرّ على عينيه لخرقه). وروى ابن عساكر: أنّ أبويه خرجا يوماً في طلبه فوجداه عند (بحيرة الأردن) فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً، لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل.

وقد آتاه الله الحكم صبياً، وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالماً بارعاً متبحّراً، ومرجعاً يرجع إليه في الفتاوى الدينية، ثم وافته النبوة والرسالة قبل أن يبلغ من العمر ثلاثين سنة. وخاطبه الله تعالى بقوله:

﴿يا يحيى خُذ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

روي عن خيثمة أنه قال: (كان عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا ابنيّ خالة، وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر[1] ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم، ولا أمة ولا عبد، ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنّهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلاّ أن أغضب، قال: لا تَقْتَنِ مالاً، قال: أمّا هذه فعسى[2].

لقد عاش على الزهد، وكان كثير العزلة عن الناس، يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذّى بالجراد في بعض الأحيان وكان يخاطب نفسه فيقول: من أنعمُ منك يا يحيى؟!.

---

(١) الوبر: هو ما يخرج من الإبل من شعره، والصوف للغنم والوبر للجمل.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١/٥٢.

Marfat.com

دعوة يحيى عليه السلام:

قام يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الله، ويبشّرهم باقتراب ملكوت السماوات، وكانت دعوته بالحكم والمواعظ الرقيقة. روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن الله أمر (يحيى بن زكريا) بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطىء، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فإمّا أن تبلغهنّ وإمّا أن أبلغهن، فقال، يا أخي أخشى إنْ سبقتني أنْ أعذّب، أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

وأولهنّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإنّ مَثَلَ من أشرك باللّهِ، مَثَلُ من اشترى عبداً من خالص ماله بِوَرِقٍ (فضة) أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيّده، فأيكم يسّره أن يكون عبده كذلك؟ وإنّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة: فإنّ الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام: فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجلٍ معه صُرّة من مِسك في عصابة، كلّهم يجد ريح المسك، وإنّ خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة: فإنّ مَثَل ذلك كمثل رجل أسره العدّو فشدّوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه.

وأمركم بذكر الله: عز وجل كثيراً، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً

Marfat.com

في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل»[1].

معنى التعميد عند أهل الكتاب:

يسمى يحيى عند علماء النصارى (يوحنا) ويلقبونه (المعمدان) لأنه كان قد تولى التعميد المعروف عند النصارى وهو التبريك بالغسل بالماء للتوبة من الخطايا، وقد ظهر يحيى في ناحية الأردن ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل القدس والقرى القريبة من الأردن فكان يعمدّهم في النهر، وينذرهم باقتراب ملكوت السموات، وقد عمّد يحيى (المسيحَ عيسى) في نهر الأردن وبرّك عليه وهو ابن ثلاثين سنة. وقد سأله اليهود: هل هو المسيح؟ فقال: لا، فسألوه: هل هو النبي؟ فقال: لا، فقالوا له: لماذا تعمِّد إذا لم تكن المسيح ولا النبي؟ فقال: أنا صوتٌ صارخ من البرية: هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة[2].

لماذا قُتل يحيى عليه السلام؟

يروي المؤرخون في سبب مقتل يحيى بن زكريا عليه السلام أسباباً كثيرة أشهرها ما رواه ابن كثير وذكره الشيخ النجّار في كتابه «قصص الأنبياء» وهو ما يلي:

كان حاكم فلسطين (هيرودس) وكان رجلاً شريراً فاسقاً، وكانت له ابنة أخ يقال لها: (هيروديا) بارعة الجمال فأراد عمها أن يتزوج منها، وكانت البنت وأمها تريدان هذا الزواج، فلمّا علم يحيى عليه السلام بذلك أعلن معارضته لأنّ هذا الزواج محرم في الشريعة عند أهل الكتاب كما هو محرم عند المسلمين.

فحقدت أم الفتاة على يحيى، وبيّتت له مكيدة قتل، فزينّت ابنتها (هيروديا) أحسن زينة، وألبستها أفخر اللباس، وأدخلتها على (هيرودس) فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فقال لها: تمنّيْ عليّ!! فقالت له ـ كما علّمتها أمها ـ: أريد رأس

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٤٤، والترمذي رقم ٢٨٦٧ وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: كتاب العقيدة الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنّكة ص ٢١٦.

Marfat.com

يحيى بن زكريا في هذا الطبق، فاستجاب لطلبها وأمر برأس يحيى، فقتل عليه السلام وهو في الصلاة وذبح كما تذبح النعجة، ثم قدم رأسه في طبق والدم ينزف منه فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها»[1].

هذه القصة تبين لنا مدى الظلم والطغيان الذي حلّ بحكام بني إسرائيل، حتى تجرّؤا على قتل الأنبياء، وسفك دماء الأبرياء من أجل شهوة طائشة أو في سبيل إرضاء رغبات أهلَ الفسق والضلال، المستهترين بحرمة الدين، وقدسية الشرائع السماوية. ولا عجب، فإنّ بني إسرائيل (اليهود) هم أوّل من سنّ هذه السنة السيئة وهي (قتل الأنبياء) حتى أصبح ذلك شعاراً لهم، ورمزاً لطغيانهم وضلالهم، فمن (يحيى) إلى (زكريا) إلى التآمر على (المسيح عيسى) إلى أنبياء لا يُحْصِي عددهم إلا الله سُفكت دماؤهم بدون ذنب على أيدي أعداء الله (اليهود الخبثاء) وأعداء الإنسانية في كل حين وزمان، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن إجرام اليهود بقوله: ﴿ويسعونَ في الأرضِ فساداً واللَّهُ لا يحبُ المفسدينَ﴾. وقال تعالى في بيان قتلهم الأنبياء: ﴿أفكلّمَا جاءَكُمْ رسولٌ بما لاتَهْوى أنفُسُكم استكبرتُمْ ففريقاً كذّبتُمْ، وفريقاً تقتلونَ﴾؟.

وقال تعالى: ﴿قُلْ فلمَ تقتلونَ أنبياءَ اللَّهِ من قبلُ إنْ كنتم مؤمنين؟﴾ وقال تعالى: ﴿ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقٍ. . .﴾.

وفي حادثة مقتل يحيى عليه السلام قتل عدد كبير من العلماء الذين أنكروا على الحاكم طغيانه وظلمه ومنهم (زكريا) والد يحيى عليهما السلام، ويشير بعض المؤرخين إلى أنه نشر بالمنشار بعد مقتل ولده يحيى كما مرّ سابقاً.

ويروى عن سعيد بن المسيّب أنه قال: (لما قدم بختنصّر الشام إذا هو بدم

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٣٦٩.

Marfat.com

يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه بما حدث له، فَقَتَل على دمه سبعين ألفاً فسكن. . .). وبذلك انتهى شأن يحيى عليه السلام بتلك المأساة المفجعة.

وروى الحافظ ابن عساكر، عن زيد بن واقد، أنه قال: (رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب فكانت البشرة والشعر على حالة لم يتغيّر، وفي رواية: كأنّما قُتِلَ الساعة).

أقول: ليس هذا بغريب فقد ثبت في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ اللّهَ حرّم على الأرض أنْ تأكُلَ أجسادَ الأنبياء»(١).

وجاء تلاميذ يحيى وأخذوا جثته بعد قتله فدفنوها، ثمّ جاءوا إلى المسيح عيسى بن مريم وأخبروه بمقتل يحيى عليه السلام فحزن حزناً شديداً عليه، ثم جهر بدعوته وقام في الناس واعظاً، واتبعه خلق كثير إلى أن دبّر له اليهود مؤامرة لقتله واغتياله فرفعه الله إلى السماء ونجاه الله من كيدهم، كما مر عند ذكر حياته ﷺ.

* * *

هؤلاء هم الرسل الكرام من غير أولي العزم، ذكرنا حياتهم ودعوتهم بالتفصيل، وشيئاً من سيرتهم العطرة، وإذا ضممنا إليهم الرسل الخمسة من أولي العزم، مع أبي البشر آدم عليه السلام، يكتمل عددهم خمساً وعشرين نبياً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

● ● ●

(١) هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ١٠٤٧ والنسائي ٩١/٣ وإسناده صحيح، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٢٦٥/٩.

Marfat.com

ردود على أباطيل[٧]

بعد صدوركتابي «النبوة والأنبياء» بخمسة عشر عاماً أو تزيد، أخرج طالب «متعالم» نشرةً ينتقد فيها كتاب النبوة والأنبياء، بأسلوبٍ يعرى عن أدب المناظرة وخلق المسلم النبيل الذي يعرف أصول الخطاب، والأدب الإسلامي الرفيع في التحدث مع الناس. هذا الطالب اسمه (محمد محمود أبو رحيِّم) فلسطيني الجنسية، كان يدرس في جامعة أم القرى وتخرَّج مها وهو يحمل شهادة الدكتوراة، وقد أحبَّ أن يَظْهر ويُشْهر بالردِّ على كتابي النبوة والأنبياء الذي لاقى استحساناً طيباً عند جمهور السادة القراء، وطُبع عدَّة مرات، فأراد المتعالم أن ينال منه ومن مؤلفه، بالطعن فيه، والتجريح بكاتبه، بالزور والبهتان، ليظهر بمظهر الألمعيّ النابغ في علمه وانتقاده، وقوة فهمه وذكائه.

وحتى لا نحرم السادة القراء، من معرفة هذا الأدب الرفيع، الذي سلكه الطالب مع شيخ أساتذته الذي خرَّج الأجيال، وأفنى عمره في خدمة العلم والدين، نطلعكم على بعض الفقرات التي جاءت في نشرته، ثم طبعها في رسالةٍ في الكويت تحت عنوان «نظرات في كتاب النبوة والأنبياء» بعد أن هذَّبها وشذَّبها، ليوهم القارىء أنه يرغب في تصحيح الأخطاء التي وردت في الكتاب، وأن انتقاده ليس بدافع عداوة شخصية، أو انتصاراً لأحدٍ من الناس، إنما هو لمعرفة الحقِّ على حدِّ زعمه. وقد اتهمني في هذه الرسالة باتهام فظيع شنيع، هو أنني رميتُ مريم عليها السلام بالزنى، وأنني كنت في كتابي هذا كحاطب ليل.

Marfat.com

يقول الدكتور المتعالم: أصل كتاب «النبوة والأنبياء» محاضرات ألقاها الصابوني على طلبة كلية الشريعة. . وذاع صيتُ الصابوني بسببه، وبسبب غيره من الكتب. . وساق فيه من الإسرائيليات ما تقشعر منه الأبدان. . ومن الأخبار الواهية ما لا يصلح به الحال. . وكان يبتر أقوال المؤرخين. وبالجملة فقد كان الصابوني حاطب ليل.

ثم يقول في المقدمة نفسها بعد سطور: والتزمتُ الأدب في التعبير، ثم خلص بعد المقدمة بنتيجة هي: أنني قذفتُ مريم بالزنى، ويجعلني مع اليهود في صفٍ واحد على السواء. . . إلى آخر تلك الاتهامات الباطلة، والافتراءات الشنيعة التي لا تصدر من شخص عادي، فضلاً عن طالب في مرحلة الدكتوراة في قسم العقيدة الإسلامية، يريد أن يكون في المستقبل داعية من دعاة الإسلام.

ولا عجب أن نرى مثل هذه الأساليب الملتوية، في صفوف بعض الشباب اليوم، فإن من يعلم شذوذ بعض من تلقى العلم على أيديهم، لا يستغرب مثل هذه الألاعيب والافتراءات التي اشتهروا بها، وفنون الأكاذيب التي درجوا عليها، فهم لا يتورعون عن الطعن في أهل العلم، والتجريح في كرامة إخوانهم المؤمنين، بشتى الطرق والأساليب، مرَّة باسم الرد العلمي، وأخرى باسم الغيرة على مذهب السلف، وما هم من أخلاق السلف في فتيلٍ ولا قطمير!!

بهتان صريح

لقد ذكرتُ في قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ص ٢٤٧، نسبه في الإسلام، ونسبه عند النصارى، فقلت ما نصُّه: هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، آخرُ أنبياء بني إسرائيل، اسمه (عيسى) ولقبُه (المسيح) ويكنّى (ابن مريم) نسبةً إلى أمه (مريم بنت عمران) لأنه وُلد من غير أب. . . وهو عبدُ الله ورسولُه، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة «التي أحصنت فرجها، وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين».

وقلتُ أيضاً في صفحة ٢٤٩ تحت عنوان: من هي مريم؟ ما نصُّه:

«هي مريم بنتُ عمران، الصدِّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربت في

Marfat.com

حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة: ﴿ومريم ابنةَ عمرانَ التي أحصنتْ فرجها...﴾ الآية. وكان والدها (عمران) رجلاً عظيماً، وعالماً جليلاً من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته ـ كما ذكر ابن إسحٰق ـ لا تحبل، فنذرت إن حملت لتجعلن ولدها محرّراً لله تعالى لخدمة بيت المقدس... إلخ. وذكرتُ نسب السيد المسيح في إنجيل (لوقا) وإنجيل (متّى) كما تذكره كتبهم المقدسة، ثم قلت: ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب السيد المسيح، بين هذه الأناجيل، وتناقضاً واضحاً لا يمكن معه التوفيق، مما يجعلنا نجزم بأن أهل الكتاب، يكتبون بلا تحقق، ويؤمنون بلا تثبُّتٍ، ويُصدِّقون بكل ما يُلقى عليهم من رؤساء الدين، وأن ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه التحريف والتبديلُ، كما نصَّ عليه القرآن الكريم.. إلخ، كما قلت بعد سطور:

ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات، في كتاب مقدَّس، يؤمن به مئات آلاف الملايين من النصارى، اللهم إلا أن يكون ذلك من تحريف رؤساء دينهم، الذين أكَّد القرآن الكريم تحريفهم للكتب المقدسة!! فكيف يزعم هذا «الكاتب المتعالم» والدكتور الحصيف أنني لم أردَّ تلك القصة بكلمة واحدة، ولم أبيِّن خطورة روايتها، ثم نقول: وما الفرق بين إثبات الصابوني، واتّهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجار؟!.

﴿سبحانك هذا بهتانٌ عظيم﴾.

القصة أوردها الحافظ ابن كثير

إن القصة التي ينتقدها، ويزعم أن فيها رمياً لمريم بالزنى، ذكرها الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» الجزء الثاني صفحة ٦٥ ونقلتها عنه باللفظ، ويستطيع أن يراها القارىء في كتابي «النبوة» وفي كتاب ابن كثير «البداية والنهاية» وهذا هو النصُّ: «يُروى أن مريم لمَّا ظهرت عليها مخايلُ الحمل، كان أول من فَطِن لذلك رجل من أقربائها، يُدعى (يوسف النجار) وكان من العُبَّاد الصالحين ـ وكان

Marfat.com

ابن خالها ـ فجعل يتعجَّبُ من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج، فعرَّض لها ذات يوم في الكلام فقال يا مريمُ: هل يكون زرعٌ من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجرٌ من غيرِ ماء، قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال لها: هل يكون ولدٌ من غير ذكر؟ قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكرٍ وأنثى، قال: فأخبريني خبركِ، فقالت: إن الله بشَّرني بكلمةٍ منه «اسمه المسيح عيسى بن مريم» فعرف أنها بريئة، وأن الحمل الذي بها إنما كان بمشيئة الله وإرادته الحكيمة(١)؟.

هذه هي القصة فأين هو وجه الاتهام لها بالزنى مع يوسف النجار؟ وهل كان ابن كثير أيضاً قاذفاً لها بالزنى؟ كما اتهمني به هذا الدكتور المتعالم؟!.

صلة يوسف النجار بمريم صلة عبادة وتقوى

إن صلة يوسف النجار بمريم صلة قرابةٍ وتقوى وعبادة، وليست صله فاحشةٍ وزنى، وحتى النصارى لمَّا يذكرون صلتها بيوسف النجار لا يتهمونها بالزنى، إنما يقولون إنها كانت تسابقه العبادة والطاعة، وهي عندهم قدِّيسة بريئة من الفاحشة، ولهذا يقولون: «الحمل بلا دنس» والذين رموها بالزنى هم اليهود اللعناء، فكيف رضي سيادة الدكتور أن يصم شيخاً من شيوخ المسلمين بأنه رماها بالزنى، والله تعالى يقول: ﴿ والتي أحصنتْ فرجها﴾ ألا يكون هذا الافتراء تكذيباً للقرآن العظيم؟ فكيف ساغ لك يا دكتور أن تتهمني هذا الاتهام الشنيع فتقول: «وما الفرقُ بين موقف النصارى من نسب المسيح، وموقف الصابوني في إثبات أن (يوسف النجار) خطيب أمه نقلاً عن إنجيل (لوقا) و (متّى)؟.

لقد ذكرتُ في كتابي نَسَبه في الإنجيل، لأقيم الدليل والبرهان على تعارض هذه الأناجيل وتناقضها، وناقلُ الكفر ليس بكافر، فقد ذكر القرآن الكريم عن النصارى أنهم قالوا: المسيح هو«الله» بقوله تقدست أسماؤه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٦٥.

Marfat.com

الله هو المسيح بن مريم﴾ ونقل عن اليهود قولهم ﴿وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غُلَّتْ أيديهم ولُعنوا بما قالوا﴾ فكيف تجعلني في صف اليهود والنصارى لمجرد أنني ذكرت نسبه في الإنجيل لأرد عليه؟ ألا تتقي الله في هذا الافتراء والبهتان؟!

والذي لا يُؤتمن على كتاب ـ كما فعل الدكتور ـ كيف يؤتمن على أمةٍ، أو على تخريج الأجيال الذين نعدُّهم للمستقبل؟ وقد ردَّ الله كيد هذا الدكتور المتعالم، فهرب من المملكة قبل أن تصل إليه يد القضاء والعدالة، بعد أن رفعتُ شكوى عليه إلى المسؤولين، فخرج يجرُّ أذيال الخيبة والفشل، إلى بعض المناطق في الإمارات، ليكمل فيها طريقه في الفساد والإفساد، ولولا خشية افتتان بعض الناس باللقب الذي حصل عليه «لقب الدكتوراة» ما كنت لأردَّ عليه، بل أترك أمره إلى من يتولى جزاءه في يومٍ عصيب، لا يجد له فيه الظالم سنداً ولا نصيراً، ولكنني رأيتُ أن ألحق هذا الفصل «ردود على أباطيل» بكتابي هذا، حتى لا ينخدع الناس بأباطيل وافتراءات أمثال هؤلاء المتعالمين[1].

وسأقتصر في هذا الردِّ على الأمور والمسائل التي زعم أنها خطأ تؤثر في العقيدة على حسب زعمه، فأقول ومن الله أستمد العون:

أولاً: حول تزوج يعقوب عليه السلام بأختين:

قال الدكتور أبو رحيِّم:

١ ـ لم يذكر الصابوني مرجعاً لما ذكره وتبنَّاه، بل اكتفى بقوله: ذكر المؤرخون.

٢ ـ أغفل ما قاله المؤرخون بخصوص جمع يعقوب بين الأختين.

٣ ـ إن ما أقَّره الصابوني مخالف لشريعة الإسلام. . . إلخ.

والجواب: مراجعي في كتابي كله أوثقُ كتب التاريخ المعتبرة عند

(١) ردَّ عليه الأستاذان الفاضلان في جريدة الندوة الغرّاء، «صالح أحمد جمال» و «محمد أحمد جمال» في مقالين نُشرا فيها، وطالب سعادة الشيخ صالح جمال بمحاكمته وطرده من الجامعة لذلك الاتهام الشنيع الذي افتراه عليَّ، وقد بقي الدكتور أبو رحيِّم مصرَّاً على الاتهام بإخراجه رسالته التي طبعها باسم «نظرات في كتاب النبوة والأنبياء» لذلك جاء هذا الرد عليه.

Marfat.com

المسلمين، لأن هذه أخبارٌ تاريخية يرجع فيها إلى أقوال علماء المسلمين المؤرخين، والمفسرين، وأنت تعرف هذا ولكنك مدلِّس مكابر، تخفي الحقيقة مع علمك بها، لتوهم خطأ الروايات، ولكن كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة … وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

أما المراجع التي رويتُ عنها فهي الآتي:

١ ـ تاريخ الأمم والشعوب لابن جرير الطبري ١/٣١٩.
٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٧٢.
٣ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/١٨٢.

وهذه مراجعي الأساسية في كل ما يتعلق بالأخبار التاريخية، عدا عما سواها من كتب التاريخ، والتفسير، والحديث، وقصص الأنبياء، ولا يُشترط أن أذكر عند كل خبرٍ أو جملة، المراجع كلها كما فعلتَ أنت في نشرتك الظالمة، لتوهم القراء أنك محقق كبير، وعالم نحرير، وجُلُّ ما فيها إنما هو «سفسطةٌ» وتشويش، كما سيرى القارىء الكريم.

ثانياً: الرواية التي ذكرتها الطبري في تاريخه ١/٣١٧ ولكنه لم يعوّل عليها، بل ذكر ثلاثة نصوص تخالفها، وتؤكد أن (يعقوب) عليه السلام جَمَعَ بين الأختين في وقت واحد.

النص الأول: قال الطبري: (وإن يعقوب سار إلى خاله فخطب إليه ابنته (راحيل) وكانت له ابنتان (ليّا) وهي الكبرى، (وراحيل) وهي الصغرى، فقال: هل من مالٍ أزوجك عليه؟ قال يعقوب: لا، إلاّ أني أخدمك أجيراً حتى تستوفي صداق ابنتك.. فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما وفّى له شرطه دفع إليه ابنته الكبرى (ليّا) وأدخلها عليه ليلاً، فلما أصبح وجد غير ما شرط، فقال له يعقوب: غررتني وخدعتني، فقال له خاله: ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى؟ فهلمّ فاخدمني سبع حجج أخرى فأزوجك أختها. وكان الناس يومئذٍ يجمعون بين الأختين إلى أن بُعث موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة...) إلخ.

Marfat.com

النص الثاني: قال الطبري ١/ ٣١٩: (فخرج يعقوب هارباً من أخيه العيص الذي توعده بالقتل، إلى خاله (لابان) ببابل، فوصل إليه، وزوَّجه ابنتيه (ليَّا) و (راحيل) وانصرف بهما وبجاريتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر إلى الشام منزل آبائه. . .) إلخ.

فما معنى قول الإمام الطبري: «انصرف بهما» هل أخرج التي ماتت من القبر حتى ذهب بها مع أختها؟ أم أنهما كانتا معه في سفره؟.

النص الثالث: وهو الواضح الصريح وقد ذكره الطبري ١/ ٣٢٠ حيث قال: (ثم إن يعقوب هويَ ابنة خاله ــ وكانت له ابنتان ــ فخطب الصغرى فأنكحها إياه على أن يرعى غنمه إلى أجل مسمى، فلما انقضى الأجل زفَّ إليه أختها (ليَّا) قال يعقوب: إنما أردت (راحيل) فقال له خاله: إنا لا يُنكح فينا الصغيرُ قبل الكبير، ولكن ارع لنا أيضاً وانكحهما جميعاً ففعل، فلما انقضى الأجل زوَّجه (راحيل) أيضاً، فجمع يعقوب بينهما فذلك قول الله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما سلف﴾.

يقول: فجمع يعقوب بين (ليَّا) و (راحيل)؟. . . إلخ. فهل هناك أصرح من هذا النصّ الذي أيّده ابن جرير بالآية الكريمة مستدلاً بها على النسخ؟.

كلام ابن الأثير في تاريخه الكامل:

وأنا أذكر ما قاله ابن الأثير في الكامل ١/ ٧٢ حول تزوج يعقوب بالأختين معاً في النصّ الآتي: «ثم إن يعقوب تزوَّج ابنتي خاله وجمع بينهما فلذلك قال الله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما قد سلف﴾ وَوُلِدَ له منهما، فماتت (راحيل) في نفاسها ببنيامين، وأراد يعقوب الرجوع إلى بيت المقدس، فأعطاه خاله قطيع غنم. وأحبَّ يعقوب (يوسف) وأخاه (بنيامين) حباً شديداً ليُتمهما. . .»[1] إلخ.

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٧٢.

Marfat.com

كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

ويقول الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ١٨٢/١ ما نصُّه:

«فلما قدم يعقوب على خاله أرض حرَّان، إذا له ابنتان، اسم الكبرى (ليًّا) واسم الصغرى (راحيل) وكانت أحسنهما وأجملهما، فطلب زواجها فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة على خاله (لابان) صنع طعاماً وجمع الناس عليه، وزفَّ إليه ليلاً ابنته الكبرى (ليًّا) وكانت ضعيفة العينين، قبيحة المنظر، فلما أصبح يعقوب إذا هي (ليًّا) فقال لخاله: لم غدَرتَ بي وأنا إنما خطبتُ إليك (راحيل) فقال له: إنه ليس من سنَّتنا أن نزوِّج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببتَ أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها، فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة، وهذا وحده دليلٌ كافٍ على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليلٌ على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم»[١].

هذا نصُّ كلام المؤرخ، المحدث، المفسِّر، الحافظ ابن كثير، وبه استدل على وقوع النسخ في الشرائع السابقة، وأتى به بصيغة القطع والجزم، أفلا يكفي هذا النص وحده على جواز الجمع بين الأختين في شريعة يعقوب من شيخ المؤرخين والمفسرين؟ فكيف يزعم «أبو رحيِّم» أنني أتيت بالباطل والضلال؟.

«الجواب عن الشبهة الخامسة»

ما هذه العبقرية الفذَّة يا أبا رحيم؟ كيف تطلب أن تكون شريعتنا الإسلامية مطبقة على الأديان والشرائع السابقة؟ وما جاءت الشريعة الإسلامية إلا متأخرة، فكيف يحكم المتأخر على المتقدم؟ ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكمْ شِرْعَةً ومنهاجاً﴾، فالشرائع مختلفة بنص الآية الكريمة، ثم على هذا المنطق الغريب الذي طالعتنا به برأيك الفذّ الثاقب، يجب أن نقول:

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/١.

Marfat.com

(أ) إن صنع التماثيل لسليمان عليه السلام كذب وافتراء لأنه محرَّمٌ في شريعتنا، فلا يمكن لنبي الله سليمان أن يصنع الحرام أو يرضى به، وأين تذهب بقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل..﴾؟.

(ب) إن السجود لغير الله حرام في شرعنا، فينبغي أن يكون سجود يعقوب وأبنائه ليوسف باطل وغير صحيح، لأنه يخالف شرعنا، وينبغي أن ننكر النص القرآني ﴿وخرُّوا له سُجَّداً﴾ أهذا هو منطق العباقرة في هذا الزمان؟.

«الردّ على الاعتراضات»

الجواب عن المسألة الأولى:

أولاً: زعم أبو رحيِّم أنني لم آت بدليل على وصية يعقوب لابنه يوسف أن يدفنه عند أبويه... إلخ.

والجواب عن ذلك: إن الدليل هنا لا يُؤخذ من الكتاب والسنة كما توهَّم، لأن هذه الأخبار سابقة على نزول القرآن، وإنما يُؤخذ من كلام الأثبات من المؤرخين المسلمين، ومن أقوال المفسرين والمحدثين، ومن علماء السيرة وغيرهم من علماء الإسلام.

روى الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ١/٢٠٥ قال: (وذكر ابن إسحٰق أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم تُوفي عليه السلام، **وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفنه عند أبويه إبراهيم وإسحٰق**، قال السُّديّ: فصبَّره وسيَّره إلى بلاد الشام **فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحٰق وجده «الخليل»**. عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً، وأخبرهم بما يكون من أمرهم، وبشَّر يهوذا بخروج نبيٍّ عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو «عيسى بن مريم».

Marfat.com

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر يوسف الأطباء فطيَّبوه بطيب، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا (حبرون) دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل عليه السلام.

أقول: ذكر الحافظ ابن كثير الرواية الثانية عن أهل الكتاب ولم يكذِّبها، ولم يردَّ عليها عملاً بقوله ﷺ فيما رواه البخاري عنه: «. . . وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». وانظر فتح الباري. وكذلك روى الطبري في تاريخه ١/٣٦٤: (**ولما حضرتْ يعقوب الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحٰق**).

ثانياً: دعواه أن هذه الوصية تعارضُ نصاً صحيحاً في السنة «ما قبض الله تعالى نبياً. . .» الحديث.

أقول أولاً: هل شريعتنا يجب أن تتفق مع ما سبقها من الشرائع والله تعالى يقول: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجاً. . .﴾؟.

وثانياً: لقد أغفلت يا سيد (أبو رحيِّم) ما قاله الإمام الترمذي نفسه عن هذا الحديث ــ وهذه خيانة للأمانة ــ فقد قال بعد ذكر الحديث ما نصُّه: «قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، وعبد الرحمن بن أبي بكر المليكي يُضعَّف من قِبَل حفظه». انتهى. فالحديث ضعَّفه الترمذي فكيف تقول: صحيح؟. ثم اسمع ما قاله الأئمة الحُفَّاظ الأثبات عن هذا الحديث لتتحقق بنفسك من خطأ شيخك الألباني.

قال المناوي: الحديث ضعيفٌ لضعف ابن أبي مليكة.

وقال المباركفوري: إن ضعف الحديث لضعف عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي مليكة.

وقال الحافظ في التقريب: الحديث ضعيف، وقد قال الترمذي: يضعَّف من قِبَلِ حفظه.

Marfat.com

فما قيمة تصحيح الشيخ الألباني له إذا كان أهل الاختصاص قد حكموا بضعفه لضعف راويه ولتعارضه مع الواقع؟ وانظر تحفة الأحوذي على الترمذي ٤/٩٨.

الجواب عن المسألة الثانية:

أولاً: لم أكن في كلامي على «وصية يوسف» جانياً أو راجماً بغير علم، بل كنت مقتفياً آثار الثقات من المؤرخين والمفسرين.

فقد ذكر شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تاريخه ١/٣٦٤ ما يلي:

(وكان دخول يعقوب مصرَ في سبعين إنساناً من أهله، وتقدَّم أنه أوصى إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحٰق، ففعل يوسف ذلك به، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر.

وأوصى يوسفُ أن يُحْملَ جسدُه حتى يُدفنَ إلى جنب آبائه، فحملَ (موسى) تابوت جسده عند خروجه من مصر معه). اهـ تاريخ الرسل والملوك للطبري.

ثانياً: وذكر المؤرخ الشهير العلّامة ابن الأثير في كتابه «الكامل» في التاريخ ١/٨٨ ما يلي:

(ولما مات يعقوبُ أوصى إلى يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحٰق، ففعل يوسف فسار به إلى الشام فدفنه عند أبيه ثم عاد إلى مصر، وأوصى يوسفُ أن يُحمل من مصر ويدفن عند آبائه، فحمله موسى لمَّا خرج ببني إسرائيل وولد ليوسف (أفرايم) و (منشا). اهـ من الكامل لابن الأثير ١/٨٨.

ثالثاً: وذكر الحافظ المفسِّر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» ١/٢٠٦ ما يلي:

(ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاةُ، فأوصى أن يُحمل معهم إذا خرجوا من مصر، فيدفن عند آبائه، فحنَّطوه ووضعوه في تابوت، فكانَ بمصرَ حتَّى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي، هذا نصُّهُمْ فيما رأيتُه وفيما حكاه ابن جرير أيضاً، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة). انتهى من البداية.

Marfat.com

هذه يا سيادة «الدكتور اللامع» أقوال أئمة العلم «ابن جرير، وابن كثير، وابن الأثير» فماذا تريد بعد ذلك من أدلة نسوقها إليك؟.

أتريد أن نأتي لك بدليل من الكتاب والسنة على تلك الوصية حتى يطمئن قلبك؟ أم تعتقد أن هؤلاء الأئمة الأجلّاء جهلاء، ضالّون، مبتدعون كما طوّقت به عنقي؟ أما ذكري لكلمة «الرفات» فهذا سبق قلم لم يكن مقصوداً، وكان ينبغي أن يقال «الجثمان» أو «الجسد» كما قال ابن جرير وابن كثير، «وكفى المرءَ نُبْلاً أَنْ تُعدَّ معايبُه».

رابعاً: دعواك من ذكري كلمة «الرُّفات» أن الصابوني يعتقد أن الأرض تأكل أجساد الأنبياء، دعوى باطلة لأنني أنا الذي نبهتك إلى الحديث الشريف: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» الذي ذكرته في كتابي النبوة صفحة (٣٩٣) فكيف تتهمني هذا الاتهام الباطل؟

«الجواب عن المسألة الثالثة»

أولاً: لماذا لا ترجع فتتحقَّقُ قبل أنْ تَرُدَّ، لئلا ينكشف أمرك، أم أنها شهوة الهوى للكلام؟ والظهور على أكتاف الشيخ أنك رددت عليه، فأنت عبقريٌّ نابغ؟ إن رواية الحافظ ابن عساكر قد ذكرها الحافظ ابن كثير، وذكر قبلها ما يؤيدها فقال في كتابه البداية والنهاية ٢ / ٤٩ ما يلي:

«بيانُ سبب قتل يحيى عليه السلام»

«ذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه، أو من لا يحل له تزوجها، فنهاه يحيى عليه السلام عند ذلك، فبقي في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحبُّ منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعث إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشتٍ إليها، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

وقيل: بل أحبَّته امرأةُ ذلك الملك، وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه

Marfat.com

تحيَّلتْ في أن تستوهبه من الملك، فتمنَّع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت..

ثم ذكر ابن كثير في صفحة (٥٠) بسنده، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: (قدم بختنصَّر دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه بأمره، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن، قال: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهو يقتضي أنه قُتل بدمشق، وأن قصة بختنصَّر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري، وروى الحافظ ابن عساكر، من طريق الوليد بن مسلم، عن زيد بن واقد، قال: رأيتُ رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيَّر، وفي رواية: كأنما قُتل الساعة). انتهى من كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

أقول: هذا ما ذكره أساطين المحدثين والمؤرخين، فلم هذا التشويشُ على المؤمنين؟ أم تظن أنك أعلى كعباً، وأوسع علماً، وأثقب فهماً، من الحافظ ابن عساكر والحافظ ابن كثير؟ اللهم إنا نعوذ بك من البهتان والغرور.

«الجواب عن المسألة الرابعة»

أولاً: يطلب السيد (أبو رحيّم) دليلاً من السنة على أن نوحاً عليه السلام قد دفن بالمسجد الحرام، وكذلك (إسماعيل) وأمه (هاجر) عليهما السلام!.

ولستُ أدري هل الأخبار التاريخية يتوقف صحتها على دليل من الكتاب أو السنة؟ وأنا أسأله بدوري ائتني بدليلٍ من السنة على أن «بختنصر المجوسي» هو الذي هدم بيت المقدس؟ وائتني بدليل من السنة على أن اسم نوح هو (نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ) كما ذكره جميع المؤرخين؟ وعلى أن نوحاً أُرسل إلى قومه (بني راسب)؟ ما هذا الشغب بالباطل؟ أنت جاهل أم متجاهل؟ أتريد أن نأتيك على جميع ما يرويه أهل التاريخ بالأدلة من السنة؟ إذاً يجب إلغاء التاريخ بأجمعه

Marfat.com

وكذلك السيرة. وإليك الأدلة على قبر نوح، وإسماعيل، وهاجر، ممن لا تستطيع إنكار كلامهم: قال الحافظ ابن كثير: (وأما قبره عليه السلام فروى ابنُ جرير والأزرقي عن (عبد الرحمن بن سابط) وغيره من التابعين مرسَلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام، وهذا أقوى وأثبتُ من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تُعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بُني بسبب ذلك). البداية والنهاية ١/١١٢.

ألم تقتنع بصواب ما قاله ابن كثير؟ أم أنت أعلم منه في الرواية والدراية؟.

ثانياً: ويقول الإمام الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك ١/٣١٤ ما نصه: «إن إسماعيل لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحٰق، وزوَّج ابنته من (العيص) بن إسحٰق، وعاش إسماعيل فيما ذكر مائةً وسبعاً وثلاثين سنة، ودُفن في الحجر عند قبر أمه هاجر». انتهى. تاريخ الطبري.

ويقول الحافظ ابن كثير ١/١٨٠: «ودُفن إسماعيل نبيُّ الله بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكى إسماعيلُ عليه السلام إلى ربه عزّ وجل حرَّ مكة، فأوحى الله إليه إني سأفتح لك باباً إلى الجنة، إلى الموضع الذي تُدفن فيه، تجري عليك روحُها إلى يوم القيامة» انتهى. البداية والنهاية ١/١٨٠.

لقد ساقها الحافظ ابن كثير بصيغة الجزم والقطع، وذكر أن قبر إسماعيل وهاجر في الحجر؟ فهل تريد أن نضرب بكل هذه الأقوال عُرض الحائط لنصدِّق رأيك الخاطىء؟

هذه أهمُّ الاعتراضات والأوهام التي أوردها سيادة الدكتور (محمد محمود أبو رحيّم) أجبنا عليها بما يشفي الغليل، والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مكة المكرمة ــ جامعة أم القرى

Marfat.com

حاجتنا إلى النقد الموضوعي[1]

اختلاف العقول، وتباين مفهوماتها، وتعدد اتجاهاتها أمر بدهي واقعي بشري لا يماري فيه عاقل، ونتيجة لهذا الاختلاف الطبيعي الفطري في العقول البشرية ومسلماتها من العلوم والمعارف والأفكار، لا بدّ من أن يكون هناك اعتراضات ومخالفات بين المفاهيم والمذاهب والاتجاهات الفكرية وبالتالي انتقاد وجدال بين صاحب هذا المفهوم وذاك المفهوم المعارض أو بين صاحب هذا الاتجاه وذاك الاتجاه المخالف. . .

ومن حق كل إنسان متعلم أو مفكر أو مثقف أن يختلف مع الآخر في رأيه أو عمله الفكري أو مذهبه الثقافي أو أسلوبه في تأليف الكتب. . . إلخ، ولكن ليس من حق المخالف أو المعترض أن ينفعل انفعالاً ينم عن الحقد والبغض والكراهية لصاحب الفكر الآخر. أو المنهج الآخر، وأن ينشط في نشر الإشاعات السيئة عن الشخص الذي يختلف معه، أو يعترض عليه فيما قال من قول، أو كتب من رأي، أو ألّف من كتاب.

قدمت بهذه المقدمة لما لاحظته ـ خلال الأسابيع الأخيرة ـ من أقاويل ومكاتيب ينشرها أصحابها انتقاداً أو اعتراضاً على فضيلة الشيخ محمد علي

(١) كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال، المنشورة في «الندوة» ١٥ شعبان سنة ١٤٠٦هـ.

Marfat.com

الصابوني المدرّس بجامعة أم القرى بأسلوب يتجلّى فيه التحامل والانفعال وينمّ عن حقد وبغضاء، ويخلو من أدب الجدال بالحسنى.

الأستاذ محمد علي الصابوني مدرّس بالجامعة قديم وله مؤلفات عديدة قيمة عن (آيات الأحكام في القرآن) و (الحديث النبوي) ومختصر تفسير ابن كثير، ومختصر تفسير الطبري، وكتاب صفوة التفاسير، وغيرها من كتب ومؤلفات قيّمة ونافعة منها كتاب (النبوّة والأنبياء) الذي هو موضوع الاعتراض.

الأستاذ الصابوني ـ في كتاب النبوَّة والأنبياء ـ ذكر سيرة سيّدنا عيسى عليه السلام وسيرة أمه الصدّيقة مريم، وأورد نسب المسيح من قِبَل امه كما أثبتها القرآن الكريم، ثم أورد ما جاء في الأناجيل... من أن يوسف النجّار كان خطيب مريم قبل حملها لعيسى، وأنَّه عاش معها بعد الحمل بوحي تلقّاه في منامه دون اتصال بها... إلخ.

وعقب الأستاذ الصابوني على روايات الأناجيل بأنَّها متناقضة ومختلفة مما يجعلنا نجزم بأن أهل الكتاب يكتبون بلا تحقيق ويؤمنون بلا تثبت، ويصدّقون كل ما يلقىٰ عليهم من رؤسائهم، وأنَّ ما في التوراة والإنجيل قد دخل عليه قطعاً التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم...

واستند الأستاذ الصابوني في ذلك على ما أثبته زميله في الجامعة فضيلة الأستاذ عبد الرحمن حبنَّكة في كتابه (العقيدة الإسلامية) حيث أورد أيضاً روايات الأناجيل المتناقضة المختلفة... إلخ.

فكيف يقال إن الصابوني أورد في كتابه (إسرائيليات) أموراً تقشعر منها الأبدان وأخباراً لا تصحّ بحال، وإن ما أثبته في كتابه هو اتهام لأم المسيح بالزنا، مع أن عبارة الإنجيل التي نقلها المؤلف ليس فيها اتهام لمريم بالزنا، بل تقرّر أن يوسف النجّار عاش معها خادماً لله بكل إخلاص ـ وقال في مكان آخر.. اتهمها

Marfat.com

بعض الـزنادقـة ــ هكذا ــ بيـوسف النجـار الـذي كـان يتعبّـد معهـا في المسجـد، واتهمهما آخرون بزكريا عليه السلام . . .

فالمؤلف يذكر روايات الأناجيل واتهامات الزنادقـة، بأسلوب ظـاهر وعبـارات صريحة بالاعتراض والرفض ــ لا كما يفتري المفترون عليه . . .

وبعد، فيكفي أن نـذكّـر هؤلاء الـذين يحبّـون أن تشيـع الفـاحشـة في الـذين آمنوا ــ بما أنذرهم الله بـه من عذابٍ أليم . . .

● ● ●

Marfat.com

ردٌ على مقال أبو رحيم
حول النبوّة والأنبياء (١)

قرأتُ ما كتبه السيد محمد أبو رحيم الطالب بجامعة أم القرى حول كتابي «النبوّة والأنبياء» في جريدة الندوة الغرّاء بعددها «٨٢٥٦» الصادر في يوم الإثنين ١٩/٨/١٤٠٦هـ.

وهذا المقال الذي طالعنا به السيد أبو رحيم الفلسطيني الجنسية هو غيضٌ من فيض. وقليل من كثير من كلمات وفقرات، تنم عن أدب جمٍّ، وخلقٍ سامٍ رفيع، تجلّى به الطالب في مرحلة الدكتوراه، الذي وفد إلى المملكة، بمنحة دراسية تقدمها له الجامعة ليكمل دراسته العليا، ومقالهُ جزء يسير من نشرة كبيرة، طبعها بدون إذن من الجامعة، أو تصريح من وزارة الإعلام، ووزعها على أساتذة الجامعة وشيوخ الحرم، وبعض الطلبة المقربين له، اتهمني في هذه النشرات التي وزعها باتهام فظيع شنيع، لا يكاد أحد يتصور أن يتفوّه به مسلم من عامة الناس، فضلاً عن أستاذ في الجامعة، خدم كتاب الله العزيز، وتخرّج على يديه أجيال وأجيال، منهم بعض عمداء الكلّيات اليوم، ومعظم أساتذة الجامعة.. هذا الاتهام هو أنني قذفت «مريم» أم المسيح بالزنى، ورميتها بيوسف النجّار، وجعلني في صفّ اليهود الذين رموها بالزنى، واقترح أن يُقام عليّ حدّ القذف مغلّظاً «١٦٠» مائة وستون جلدة لأنها في حق نبيّ من الأنبياء، ونسي السيد أبو رحيم ــ وهو في

---

(١) نشرت هذه المقالة في جريدة «الندوة»، لفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني، ٢٤ شعبان سنة ١٤٠٦هـ. ردّاً.

Marfat.com

مـرحلة الـدكتـوراه ـ أو جهـل الحكم الشرعي، الـذي يجب أن يُتّخذ في حق القاذف، وهو القتل، لا الجلد لأن من كذَّب القرآن كافرٌ مرتَـدٌ عن الإسلام والمـرتد حكمـه الإعدام والقتـل، لا الجلد كما تصـوّره، فاللّه تعـالى يقول عن مـريم ﴿وأمُّه صـدّيقـة﴾ ويقـول: ﴿يـا مـريم إنَّ الله اصطفـاك وطهَّـرك واصطفـاكِ على نسـاء العالمين﴾ ويقول: ﴿والتي أحصنت فـرجها﴾ فحين يكـذِّب الإنسان هـذه الآيات، ويقـول: إنَّهـا زانيـة والعيـاذ بـاللّهِ يكـون كـافـراً لا قـاذفـاً، وحكم المـرتـدّ القتـل لا ما اقترحه باستدلاله الـلامع!!

«ما الغرض من إخفاء الحقيقة؟»

لقد أخفى السيد «أبو رحيم» الحقيقة عن السادة القرّاء. في مقاله المنشور في جـريدة النـدوة. وخالف كـلامه هنـا ما سجّله هنـاك في النشرة التي وزّعهـا مخالفـة واضحة، فتراه هنا لا يذكر الألفاظ التي تناول بها شخصي، ولا الكلمـات الجارحـة التي تلفظ بهـا خشية أن تتنـاوله أقـلام الكُتّاب الأدبـاء بالنقـد اللاذع لمجـانبته أدب الحديث والخطاب في مخاطبة الأصحاب.

العنـوان الذي ذكـره يخالف الـواقـع، فهو يقـول: وجـدْتُ نفسي بين سـطور الأستاذ أحمد والحقيقة التي وقفت عليها ودونتها في بحثي (نظرات في كتـاب النبوّة والأنبياء للشيـخ الصابوني) مضطراً للرد على الأستاذ أحمد جمـال لما ذكـره الشيـخ الصابوني عن مريم عليها السلام ويوسف النجار. وأذكر لبيان الحقيقة أنني قـدَّمت نسخة من مسوّدة بحثي المذكور لفضيلة الشيـخ الصابوني... إلـخ.

والبحث الـذي نشره ووزعـه لا يحمل هـذا العنـوان مـطلقـاً، وليس فيـه لفظ «شيـخ» ولا «فضيلة» وإنّما هذا لطف جديد أسداه عليّ مؤخراً في الجريدة، وعنوان البحث هو كالآتي:

(الردّعلى الصابوني في النبوَّة والأنبيـاء) ولئلا نحـرم السادة القـرّاء من الألفاظ الـرشيقة اللطيفـة التي أضفاهـا في بحثه المنشـور الـذي وزعه، أقتـطف بعض هـذه

Marfat.com

العبارات من الصفحة الأولى حيث يقول: أصل كتاب النبوّة والأنبياء محاضرات ألقاها الصابوني، وذاع صيت الصابوني.. وساق من الإسرائيليات ما تقشعرّ منه الأبدان.. وكان يبتر رأي المؤرخين فيما ينقله عنهم.. ووقع في تناقضات كثيرة.. وفي الجملة كان الصابوني حاطب ليل.. ثم قال بعد ذلك: والتزمتُ الأدب في التعبير معه، ولم يكن ردّي نابعاً من حقد شخصي، أو حقد نفسي، فأنا لا أعرف الصابوني، ولا يعرف الصابوني من أنا... إلخ. ما شاء الله على التزامك الأدب مع الشيخ في التعبير.

«وقفة قصيرة»

ولا بدّ هنا من وقفة قصيرة مع السيد أبو رحيم: هل هو صادق في كلامه أنه لا يعرف الصابوني، وهو طالب في الجامعة منذ خمس سنوات تقريباً، ويقول في بحثه وذاع صيتُ الصابوني، ثم يقول في ردّه على الأستاذ أحمد جمال إنّني قدّمتُ نسخة من مسوّدة بحثي المذكور لفضيلة الشيخ الصابوني؟

فكيف عرفت فضيلة الشيخ الصابوني وأنت تقول في منشورك: وأنا لا أعرف الصابوني ولا يعرف الصابوني من أنا؟ وهل صحيح إنّك قدّمتَ إليَّ مسوّدة البحث. أم أتيتني بها جاهزة مبيَّضة بعد أسبوعين من طباعتها وتوزيعها على أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وعلى شيوخ الحرم بعد أن ذاع أمرها وشاع؟ فلماذا تقول غير الحقيقة وأنت على أبواب نيل الدكتوراة؟

«عودة إلى جوهر الموضوع»

ولنعد بالسادة القرّاء إلى لبّ القضية في أمر مريم العذراء.

يقول السيد أبو رحيم إنني قذفت مريم بالزنى كما فعل اليهود، ووافقت على ضلالات النصارى حين أثبتُّ في كتابي صلة مريم بيوسف النجار، وقد تهجّم في مقاله على الأستاذ أحمد جمال لأنّه أراد أن يدافع عني ويبرّئني من التهمة التي ألصقها بي ـ هجوماً عنيفاً خرج عن حدود اللياقة والأدب، حتى اضطر سيادة نائب

Marfat.com

رئيس التحرير الأستاذ يوسف دمنهوري أن يكتب في يومين متتابعين في زاويته «حتى لا نجني على أنفسنا» ما يوقف المشتط عـن شططه، ويردُّ المغرور المخدوع بالدكترة عن صلفه وغروره، وأرجو أن يرجع إليهما القارىء ليعرف قصته مع أدعياء القلم.

وإليكم الآن نصَّ كلام أبو رحيِّم الطالب في مرحلة الدكتوراه لتعرفوا كيف تستنتج الأحكام بالنظر الصائب والفكر الثاقب يقول في منشوره في الصفحة «٢».

(وما الفرق بين إثبات الصابوني واتهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجار. . . وما الفرق بين موقف النصارى من نسب المسيح وموقف الصابوني في إثبات صلتها بيوسف النجّار؟).

وتثبيتاً لإدانتي بالقذف لمريم عليها السلام، يقترح إقامة حد القذف مغلّظاً فيقول في صفحة «٣» من المنشور: قال عليّ رضي الله عنه: «من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة» أقول ـ والقائل أبو رحيِّم ـ : وهذا الحكم ينطبق على كل من حدّث بمثل ما حدَّث به الصابوني. . . إلخ.

«حقائق ينبغي أن تُعرف»

* **الحقيقة الأولى**: أن ما كتبه أبو رحيّم عني محض افتراء وباطل وكذب وبهتان، ويكفي للتدليل على ذلك أن أنقل بعض فقرات من كتابي ليظهر بجلاء ووضوح للسادة القرّاء من هو القاذف، ومن هو الجاني؟

ـ تحت عنوان: نسب المسيح عليه السلام صفحة «٢٥٠» قلت:

«هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، اسمه «عيسى» ولقبه «المسيح» ويكنّى «ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم بنت عمران، لأنه ولد من غير أب وهو عبد الله ورسوله، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة «التي أحصنت فرجها. . .».

Marfat.com

ـ وفي صفحة «٢٥٢» تحت عنوان «من هي مريم»؟ قلت: هي مريم بنت عمران، الصدّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربت في حجر الفضيلة،وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة حيث قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾.

ـ وفي صفحة «٢٥٣» قلت: نشأتْ مريم عليها السلام نشأة طهرٍ وعفاف، وبعد عن الآثام والمحرمات، فعاشت في جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة بحراسته ورعايته، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم، فتخبرها بمقامها السامي الرفيع عند الله، وتبشّرها باصطفاء الله لها وتطهيرها من الأرجاس والأدناس... إلخ.

فهل من يكتب هذا الكلام يكون في صف اليهود الذين رموها بالزنى؟!

إنني لا أستطيع أن أتصوّر مسلماً يقع في قلبه أدنى ريب عن عفّة مريم البتول وطهارتها بعد أن حكم القرآن بنزاهتها وبراءتها مما رماها به اليهود اللعناء كما قال تعالى عنهم: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ فكيف طاوعت «أبا رحيّم» نفسه، ورضي له دينه، أن يبتر الكلام بتراً، ويقطّعه تقطيعاً، ليوهم القارىء أنه من كلامي، ويجعلني على قدم المساواة مع اليهود فيقول (وما الفرق بين الصابوني واتهام اليهود لها بالزنى بيوسف النجّار)؟ لشيخ مفسّر من شيوخ المسلمين؟ «سبحانك هذا بهتان عظيم».

* **الحقيقة الثانية**: أن السيد «أبا رحيّم» ظلمني وظلم الكتاب وظلم الحقيقة التي كان ينبغي أن يُقرّ بها ويشكرني عليها. وهي أنني كنت في كتابتي كلها عن السيد المسيح مفنِّداً لأباطيل اليهود والنصارى. مهاجماً لضلالات أهل الكتاب، قاذفاً لليهود ـ لا لمريم الصدّيقة عليها السلام، وقد ردّدت بالحجة القاطعة والبرهان الدامغ، على تعارض الأناجيل وتهافتها حول نسب السيد المسيح فقلت في

Marfat.com

صفحة «٢٥٢» ما نصّه: ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدّس، يؤمن به مئات الملايين من النصارى، اللهم إلاّ أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين، الذين أكّد القرآن الكريم تحريفهم للكتب المقدّسة. . . إلخ.

ولو أنّ «أبا رحيّم» قرأ البحث من أوّله إلى آخره، بروح النزاهة والإخلاص، والتجرّد عن الهوى، لما اتهمني ذلك الاتهام الشنيع.

* **الحقيقة الثالثة**: أنّ صلة مريم بيوسف النجّار عند النصارى صلةُ دين وتقوى، وعبادة، فمريم عندهم هي «العذراء»، العفيفة، الطاهرة، المنزّهة من الدنس، لأنها أم الرب عندهم. . . إلخ. وصلتها بيوسف النجّار عند اليهود صلة زنى، وفاحشة، فكيف استطاع «أبو رحيّم» أن يوفق بينهما مع أنّهما رأيان متناقضان، متعارضان، ويطوّق عنقي بهذا الوسام الرفيع، بأنني كاليهود في إثبات صلتها بيوسف النجّار، وكالنصارى في ذلك، لا فرق بيننا في ذلك الاتهام.

ولبيان الحقيقة أقول: إن صلة مريم بيوسف النجّار لم تذكرها الأناجيل فقط، وإنّما ذكرها المؤرخون المسلمون كابن جرير الطبري في تاريخه، وابن الأثير في الكامل، وذكرها المؤرخ، المحدّث، المفسّر، الحافظ ابن كثير رحمه الله، حيث قال في كتابه البداية والنهاية ٢ / ٦٠ ما نصُّه: ذكر غير واحد من السلف منهم، وهب بن منبّه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل، كان أوّل من فطن لذلك رجل من عُبّاد بني إسرائيل، يقال له، يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها، ونزاهتها، وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى، وليس لها زوج، فعرّض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت نعم، فمن أخرج الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماءٍ ولا مطر؟ قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إنّ الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال

Marfat.com

لها: فأخبريني خبرك؟ فقالت: إنَّ الله بشَّرني «بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. . .» إلخ، فهل كان ابن كثير قاذفاً لمريم في نظر أبي رحيّم.

* **الحقيقة الرابعة**: أنَّ الكتاب قديم طبع منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وحين صدر الكتاب اشترت منه رابطة العالم الإسلامي ووزعته وكذلك دار الإفتاء، وانتشر في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً، وقرّر في بعض الكليات والجامعات في باكستان، ولم يكتشف أحدٌ من القرّاء والأدباء والعلماء أنّ فيه هذا الاتهام الخطير لمريم العذراء، حتى اكتشفه السيد أبو رحيم بنظره الثاقب.

وبعد، فإنَّ الحديث طويل ذو أشجان؛ وإن تعجب أخي القارىء، فعجب من أمر السيد أبو رحيّم كيف سيتخرج ويحمل شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، من أقدس بلد، وأطهر مكان، من جامعة أم القرى بمكة المكرّمة وهو لا يؤتمن على نقل صحيح من كتاب؟ أو يفهم ذلك الفهم الغريب الذي لم يسبقه إليه أحد، ثم هو ينشر تلك الأحكام التي استنبطها في نشرات يوزعها، يتهم فيها الأبرياء، ويجرح فيها كرامة العلماء، ويقذف بالحمم كل من خالفه في الرأي من الكتّاب، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «إنَّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت».

• • •

Marfat.com

خاتمة البحث

يلاحظ الدارس لحياة الرسل الكرام، المتتبّع لتاريخهم، المستقصي لأخبارهم المتأمل في ترابط أنسابهم ودعواتهم، بعد ذلك الاستعراض الشامل لدعوة المرسلين نقاطاً هامة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: أنّ الله جل ثناؤه لم يقصص علينا أخبار جميع المرسلين، الذين بعثوا إلى أهل الأرض، وإنما ذكر منهم أهمّهم وأعظمهم أثراً في تاريخ البشرية وهم (أولوا العزم) وبقية المرسلين الذين مرّ معنا ذكرهم، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك. . .﴾ الآية.

ثانياً: أنه لم تخل أمة من أمم الأرض من بعثة رسول لها، فقد بعث الله تعالى إلى كل أمة رسولاً، كما قال تعالى:

﴿وإنْ من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً. . .﴾ الآية.

ثالثاً: أن هناك بين آدم و (نوح) عليهما السلام فترة من الزمن تقدر بألف عام لم يذكر القرآن الكريم فيها من الرسل إلا (إدريس) عليه السلام، وسكت عن غيره من الرسل ممن أُرسلوا في تلك الفترة من الزمن.

رابعاً: أنّ الله تعالى قد قصّ علينا من الرسل الذين بعثهم بعد نوح عليه السلام، الرسل الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح فقط، ولم يذكر لنا غيرهم.

Marfat.com

خامساً: أن إبراهيم عليه السلام جاء من بعد نوح ومن ذريته لقوله تعالى في سورة الصافات بعد ذكر قصة نوح:

﴿وإنّ من شيعَتِهِ لإبراهيم، إذْ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ﴾.

سادساً: أنّ الله تعالى قد جعل النبوّة والرسالة في ذرية (نوح وإبراهيم) لقوله تعالى في سورة الحديد.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعَلْنا في ذرّيتهما النبوّة والكتابَ. . .﴾.

سابعاً: أنّ معظم الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم وعددهم ثمانية عشر رسولاً (١٨) هم من ذرية إبراهيم من ولديه (إسماعيل وإسحٰق) إلا (لوط عليه السلام) فهو ابن أخ لإبراهيم، قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحٰقَ ويعقوبَ وجعلنَا في ذريتِه النبوّة والكتابَ. . .﴾.

ثامناً: أنّ إسماعيل عليه السلام قد نشأ في مكة وتزوّج من قبيلة عربية تسمى (جرهم) ثمّ جاء من سلالته خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضل الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ وبه ختم الله النبوّة.

تاسعاً: وأمّا إسحاق فقد نشأ في الشام، وولد له ولدان: الأول يسمى (العيص) والثاني يسمى (يعقوب) وقد ظهرت النبوّة في سلالة العيص في الرسولَيْن (أيوب) وولده (ذي الكفل)، وأمّا يعقوب المسمى (إسرائيل) فقد ولد له اثنا عشر ولداً، هم أسباط بني إسرائيل أحدهم يوسف عليه السلام وجميع أنبياء بني إسرائيل هم من ذرية يعقوب عليه السلام كما تقدم.

عاشراً: الأسباط المذكورون في القرآن الكريم ـ وهم أولاد يعقوب ـ قد ظهرت فيهم النبوة على الشكل الآتي:

١ ـ سبط لاوي ظهرت فيهم النبوة في كل من الرسل المذكورين: (موسى، وهٰرون، وإلياس، واليسع) عليهم الصلاة والسلام.

Marfat.com

٢ ـ سبط يهوذا ظهرت فيهم النبوة في كل من الرسل المذكورين (داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى) عليهم السلام.

٣ ـ سبط بنيامين ظهرت فيهم النبوة في (يونس عليه السلام). والله تعالى أعلم.

تمّ الكتاب بعونه تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

رجب الفرد عام ١٣٩٠هـ

• • •

Marfat.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول: النبوة والأنبياء:	٧
١ ــ تمهيد	٩
٢ ــ النبوة هبة ربانية	١١
٣ ــ الفرق بين النبوّة والمُلك	١٤
٤ ــ ما هو النبيّ، وما هو الرسول؟	١٧
٥ ــ الأنبياء صفوة البشر	٢٠
٦ ــ محمّد سيّد الأنبياء والمرسلين	٢٣
٧ ــ هل يجوز التفضيل بين الأنبياء؟	٢٧
٨ ــ لماذا كان الأنبياء بشراً؟	٢٩
٩ ــ مهمّة الرسل الكرام	٣٥
١٠ ــ وظائف الرسل صلوات الله عليهم	٣٦
الفصل الثاني: مزايا دعوة الأنبياء:	٤١
الميزة الأولى: دعوتهم ربّانيّة	٤٣
الميزة الثانية: لا يطلبون أجراً على الرسالة	٤٦
الميزة الثالثة: إخلاص الدين لله تعالى	٤٧
الميزة الرابعة: البساطة وعدم التعقيد	٤٨

Marfat.com

الموضوع	الصفحة
المبزة الخامسة: وضوح الهدف والغاية	٥٠
الميزة السادسة: إيثار الآخرة والزهد في الدنيا	٥٠
الميزة السابعة: التشديد في أمر الغيب	٥٢
صفات الأنبياء (الصدق، الأمانة، التبليغ السلامة من العيوب المنفّرة، العصمة)	٥٥
الفصل الثالث: عصمة الأنبياء:	٦٩
١ ـ تعريف العصمة ومعناها الشرعي	٧٢
٢ ـ هل العصمة قبل النبوة أم بعدها؟	٧٦
٣ ـ شبهات حول عصمة الأنبياء والرد عليها	٨٥
٤ ـ عصمة آدم أبي الأنبياء عليه السلام	٨٧
٥ ـ عصمة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام	٩١
٦ ـ عصمة يوسف الصدّيق عليه السلام	١٠٠
٧ ـ عصمة نوح عليه السلام	١٠٨
٨ ـ عصمة يونس عليه السلام	١١٠
٩ ـ عصمة الرسول ﷺ	١١٣
١٠ ـ الآيات التي ورد فيها العتاب	١١٣
الفصل الرابع: قصص الأنبياء:	١٣٣
١ ـ الحكمة من قصص الأنبياء	١٣٦
٢ ـ أغراض القصّة في القرآن	١٣٧
٣ ـ السر في تكرار القصص في القرآن	١٤٦
٤ ـ نموذج من تكرار القصة في القرآن	١٤٧
الفصل الخامس: آدم عليه السلام كما صوّره القرآن:	١٤٩
١ ـ قصة آدم عليه السلام	١٥١
٢ ـ العبرة من خلق آدم عليه السلام	١٥٢
٣ ـ آدم عليه السلام أول البشر	١٥٤

Marfat.com

الموضوع	الصفحة

٤ ــ الأدلة على أن آدم أول الخلائق من الإنس ١٥٦
٥ ــ نظرية «داروين» وتعارضها مع القرآن والواقع ١٥٩
٦ ــ الرد على «نظرية داروين» وإثبات بطلانها ١٦٠
٧ ــ المراحل التي مرّ بها خلق آدم عليه السلام ١٦٤
٨ ــ قصة «قابيل وهابيل» ابنَيْ آدم عليه السلام ١٧٢

الفصل السادس: أولوا العزم من الرسل: ١٨٥
١ ــ نوح عليه السلام ١٨٧
٢ ــ إبراهيم عليه السلام ٢٠٢
٣ ــ موسى بن عمران عليه السلام ٢٢٤
٤ ــ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ٢٥٠
٥ ــ محمد خاتم النبيين ﷺ ٢٧٧

الفصل السابع: الرسل من غير أولي العزم: ٢٩٧
١ ــ إدريس عليه السلام ٢٩٩
٢ ــ هود عليه السلام ٣٠٢
٣ ــ صالح عليه السلام ٣٠٦
٤ ــ لوط عليه السلام ٣١٣
٥ ــ إسماعيل عليه السلام ٣٢٠
٦ ــ إسحٰق عليه السلام ٣٢٣
٧ ــ يعقوب عليه السلام ٣٢٥
٨ ــ يوسف الصدّيق عليه السلام ٣٢٨
٩ ــ شعيب عليه السلام ٣٤٠
١٠ ــ أيّوب عليه السلام ٣٤٤
١١ ــ ذو الكفل عليه السلام ٣٤٨
١٢ ــ هٰرون عليه السلام ٣٥٠
١٣ ــ داود عليه السلام ٣٥٣

Marfat.com

الموضوع	الصفحة

١٤ ــ سليمان عليه السلام ٣٦٣
١٥ ــ إلياس عليه السلام ٣٧٨
١٦ ــ اليسع عليه السلام ٣٨١
١٧ ــ يونس عليه السلام ٣٨٣
١٨ ــ زكريا عليه السلام ٣٨٧
١٩ ــ يحيى عليه السلام ٣٩٢
ردود على أباطيل ٣٩٩
حاجتنا إلى النقد الموضوعي ٤١٣
رد على مقال أبو رحيم ٤١٧
خاتمة البحث ٤٢٥
الفهرس ٤٢٩

* * *

Marfat.com

Marfat.com